AL-HADAF
الهدف
كل الحقيقة للجماهير
فلسطينية عربية ديمقراطية بهوية يسارية

الدكتور محمد نعيم فرحات «للهدف»:
غسّان غاب لكن الوعي الذي قدّمه لم يسقط، ولم يكنْ من الممكن تغييبُه

وحدة العمل المسلح على ضوء التطورات الاخيرة في الاحداث

تكتسب الاحداث التي وقعت خلال الاسبوع الماضي في المنطقة العربية اهميتها ليس من النظر اليها بمعزل عن بعضها البعض، ولكن من خلال مقارنتها ببعضها ، ووضع الحدث منها في مواجهة الآخر .

حين كانت الدول العربية تجتمع في مؤتمر وزراء الخارجية العرب [illegible] صيغة « للرد » على حرق المسجد الاقصى ، كانت المقاومة [illegible] المسلحة تنصف القدس المحتلة بالصواريخ .

[illegible] الرجعية العربية تحاول استخدام موجة الانفعال القوي [illegible] المسجد الاقصى لطمس المعالم التقدمية لحركة الكفاح [illegible] خطت المقاومة المسلحة خطوة اضافية في توسيع [illegible] ضرب المصالح الامبريالية والرأسمالية المتواطئة

[illegible] المسجد الاقصى ، يكشف عن جوهره [illegible] ردود المقاومة الفلسطينية [illegible] تحويل الصدام مع الامبريالية [illegible] صدام ديني او عنصري .

[illegible] العربية ، حرص [illegible] الفلسطينية . [illegible] والرجعي [illegible] في [illegible] الارض [illegible]

مسألة الحوار حول الاستراتيجية الايديولوجية والسياسية للعمل الفدائي الفلسطيني ، مسألة تدخل في صلب اي مسعى لتحقيق اي صيغة فعلية للوحدة الوطنية الفلسطينية .

— ان المجلس الوطني الفلسطيني الخامس . الذي سينعقد في القاهرة خلال هذا الاسبوع ، مطالب بالا يكتفي بالصيغ العائمة والفضفاضة والمؤجلة ، بسبب من طبيعتها غير المحددة ، على كسب تأييد جميع الاطراف ، ولكن ان يتجاوز ذلك الى وضع صيغ محددة لبرنامج عمل تفصيلي ، يمكن ان يكون دليلا لتحقيق الوحدة الوطنية ، او الجبهة المتحدة .

ومن الطبيعي ان دليل عمل من هذا النوع لا يمكن تحقيقه بالاقتراع، ولا بالاحراج ، ولكن بفتح الطريق [illegible] قواعد متفق عليها ، وبالتالي [illegible] القواعد المتفق عليها [illegible] بغيره من الوسائل .

ولكن الاقتراع [illegible] تمارسه الاكثرية [illegible] اطار برنامجه ، [illegible] التخلي عنها .

ومهما كانت [illegible] المجلس الوطني [illegible] — الاول [illegible] حوار متكافئ [illegible]

وبالتالي فان اي حديث عن الوحدة الوطنية الفلسطينية ، يتجاهل معنى وجوهر تلك المهمات والتحديات كما تبرزها الاحداث اليومية الراهنة ، لن يكون في احسن الاحوال اكثر من الاندفاع ، بعيون مغمضة ، باتجاه حقل الغام خطر .

ان اية صيغة للوحدة الوطنية الفلسطينية لن تستطيع ان تتجاوز اطار الانفعال الحماسي ، ان هي لم تكن قائمة على ارض مشتركة ، تشكل قناعات متبادلة وراسخة لا يمكن فصمها او التنصل مما تلقيه على اكتاف الثوريين من مسؤوليات .

وهذه الارض المشتركة لا تستطيع ان تكون راسخة — من جهة — وقاعدة انطلاق — من جهة اخرى — ان هي لم تكن حصيلة اتفاق ميكانيكي على برنامج عمل واضح ومحدد وقادر على مواجهة التحديات والمهمات التي تطرحها ظروف المعركة الراهنة ، وآفاقها المتطورة .

الاتفاق والاختلاف

ويكاد يكون من الحماس الذي لا مبرر له توقع تطابق كامل في وجهات النظر بين التنظيمات الفدائية المختلفة الآن ، ولكنه من التشاؤم الذي لا مبرر له — ايضا — الاعتقاد بانه لا يمكن توفر رقعة مشتركة بين مجموع التنظيمات الفدائية المقاتلة يمكن استخدامها بصورة راسخة كقاعدة عمل مشترك ، تتطور بالحوار المستمر نحو اتجاهات توحيدية او جبهوية اكمل .

بقلم غسان كنفاني

على ان هذه الرقعة المشتركة من التفاهم على برنامج عمل واضح لا تكتسب رسوخها ان لم تكن معززة بتفاهم مماثل على النقاط التي لا تطابق فيها وجهات النظر ، وعلى صيغة من العلاقات ازاء مثل هذه [illegible] : فمن الخطأ وضع برنامج للنقاط المشتركة ، واهمال طرح [illegible] التناقضات والتقاطعات التي يمكن ان تنشأ بسبب [illegible]

خارطة [illegible]

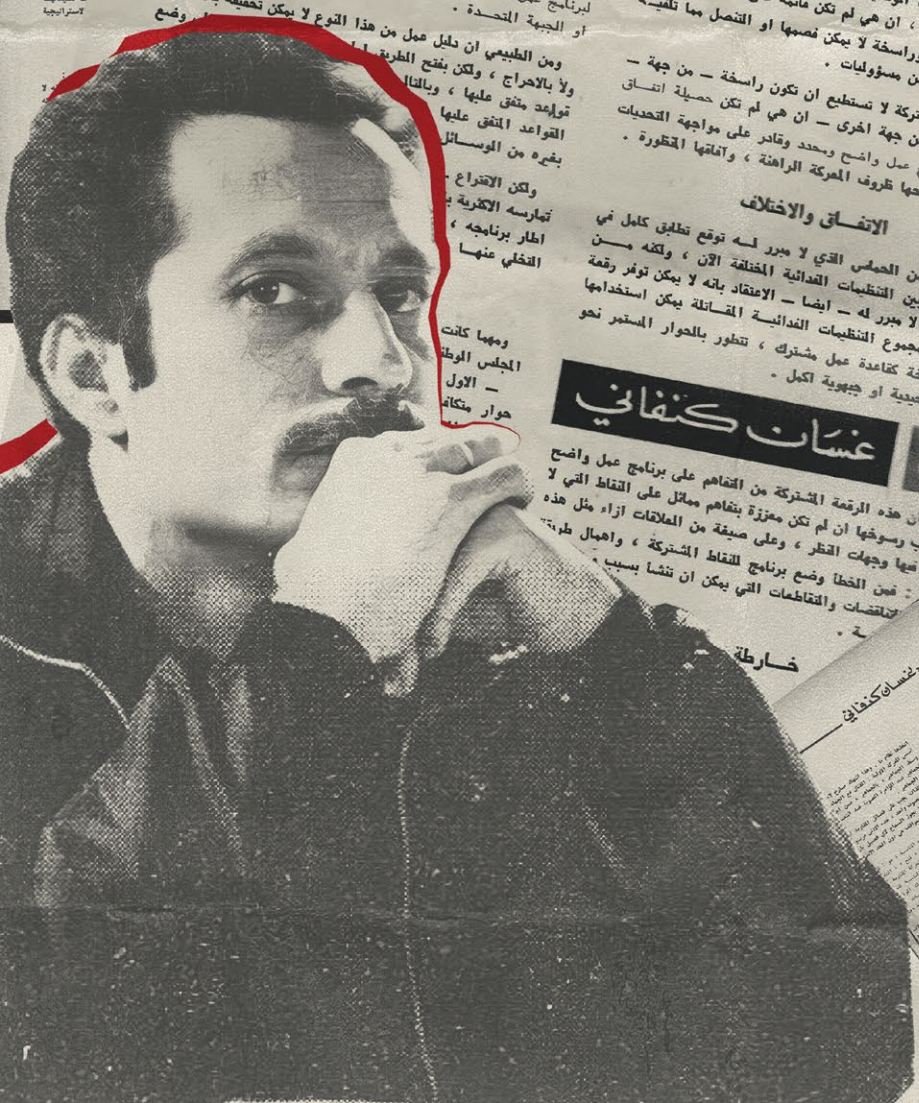

مؤتمرة على المقاومة

بقلم غسان كنفاني

الثّائر الوحيد

ناجي العلي

AL-HADAF
الهدف
فلسطينية عربية ديمقراطية تقدمية يسارية

الهدف AL-HADAF

كل الحقيقة للجماهير

فلسطينية عربية ديمقراطية بهوية يسارية

العدد رقم 52 (1526) آب / أغسطس 2023

غلاف العدد

تصميم الأغلفة
جيفارا عبد القادر

أسسها الأديب الشهيد
غسان كنفاني
عام 1969

المشرف العام
كايد الغول

رئيس التحرير
د . وسام الفقعاوي

مدير التحرير
سامي يوسف

تحرير وتنفيذ
نضال أبو مايلة

المدقق اللغوي
أيوب جمال الشنباري

يسمح بالنقل وإعادة النشر
بشرط الإشارة إلى المصدر

عناوين مجلة وبوابة الهدف
غزة - بجوار مستشفى الشفاء
نهاية شارع الثورة

08 - 2836472
info@hadfnews.ps

تصدر عن :
دائرة الإعلام المركزي في
الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

المقالات المنشورة لا تتطابق مع وجهة نظر الهدف بالضرورة

في هذا العدد

الافتتاحية: لقاءُ القاهرة.. الوحدةُ الوطنيّةُ شكلٌ أم مضمون ؟ 2

وليد دقة.. ميلاد الحرية (ملف)

نطافُ الأسرى تنجبُ «سفراء الحريّة».. « ميلاد وليد دقّة » نموذجًا..... إلهام الحكيم 3
وليد دقّة.. المناضلُ والمفكّرُ والمثقّفُ خلفَ قضبان الأسر..... بسّام عليّان 5
عن وليد دقه المناضل والإنسان، وعن سناء وميلاد..... رلى أبو دحو 7
وليد دقّة ... حكايةُ تحدٍّ جديرةٌ بالتأمّل..... كميل أبو حنيش 9
وليد دقّة.. صانعُ الحياة ومجزرة الأرواح خلفَ الجدران العالية..... منذر خلف مفلح 10
وليد دقة.. رمزُ فلسطينَ وشاهدُها..... خاص الهدف 11
رسائلُ وليد دقّة ... والانبعاث..... مركز حنظلة 12
سجن مجدوّ ومعركة جنين الأخيرة..... مركز حنظلة 12

شؤون عربيـــة

في الذكرى الـ 61 لاستقلال الجزائر.. الاقتصادُ قبلَ السياسة!..... محمد صوان..... 13
سؤال محوري .. لماذا هُزمنا؟ ..... غازي الصوراني 15
النهوضُ بعد الانهيار..... شادي الزيد 17
ليبيا .. والبحثُ عن الاستقرار..... عبد الله الغرياني 19
السودان.. بين المصالح الفئويّة واللعبة الخارجيّة..... مسعود أحمد 20

شؤون دوليـــة

البنيةُ الضابطةُ لمسار العلاقات الأمريكيّة الأوربيّة..... د. عابد الزريعي 21
في عالم شديد التعقيد، سريع التغيّر (1-2)..... م. تيسير محيسن 23
تمرّد فاغنر .. قراءةٌ في الداخل الروسي..... محمد أبو شريفة 25
التّحدّيات الجيوسياسيّة لمشروع «النظام الشرق أوسطي»..... عليان عليان..... 27
اقتصادُ الظّلّ: مكوّناتُهُ وسلبيّاتُه..... د. أدهم شقير 30
دوافعُ تجريمِ حركةِ التضامنِ مع فلسطين في أوروبا وآليّاتُها..... حمدان الضميري 31

شؤون العـــدو

اقتحامُ مخيّم جنين في الحسابات الاستراتيجيّة الإسرائيليّة..... أبو علي حسن..... 33
«علّةُ المعقوليّة».. صافرةُ التّغيير تنطلقُ بالتقسيط...!..... أكرم عطا الله..... 35
دفنُ المخلّفات السامّة في الأرض الفلسطينيّة..... د. إلهام شمالي 36
معركة جنين .. الإعلامُ وتآكلُ الردع الصهيوني..... رضي الموسوي 38

غسان كنفاني: بوصلة فلسطين العصية على الغياب (ملف)

افتتاحية: الوطنُ ليس ذاكرةً فحسب.. عائد إلى حيفا 40
مقابلة العدد مع د. محمد نعيم فرحات أجراها د. وسام الفقعاوي..... 41
روحُ غسان كنفاني..... وليد عبد الرحيم..... 44
استلابُ الذّاتِ الفلسطينيّةِ في مشروعِ غسّان كنفاني..... خالد فارس 46
من غسّان كنفاني إلى ميلان كونديرا: الحياةُ ليست في مكانٍ آخر..... تغريد عبد العال..... 48
غسّان.. في ذكراه!..... د. حسن حميد..... 49
السّردُ القَصصي في (أرض البرتقال الحزين) لغسّان كنفاني..... سعيد بشتاوي..... 50
رسالةٌ مفتوحةٌ إلى غسّان كنفاني..... عبد الرزاق دحنون 52
غسّان كنفاني ومأزق المقاومة الثقافيّة في القرن الـ 21..... د. حاتم الجوهري 54

في الهـــدف

محاولةٌ فاشلةٌ قبل أن تبدأ..... طلال عوكل..... 56

الافتتاحية

رئيس التحرير

لقاءُ القاهرة.. الوحدةُ الوطنيّةُ شكلٌ أم مضمون؟

بدايةً، ليس هناك أدنى شكّ، أنّ النجاح في مواجهة الاحتلال، مشروطٌ بالقدرة على توحيد صفوف الشعب الفلسطيني في مختلف أماكن وجوده، والتوظيف الأمثل لطاقاته، واستثمار كلّ مكوّنات القوّة لديه، بأعلى درجة من الفائدة والكثافة. وهنا، فإنّ السؤال الموضوعي الذي يفرض نفسه بقوّة هو: هل هناك مهمّة أخرى تتقدّم الحفاظ على وحدة الشعب الفلسطيني، في ظلّ المخاطر التي تتهدّد وجوده؟ وهل بالإمكان تحقيقُ هذا الشرط دون اتّضاح رؤيةٍ مسنودةٍ بممارسةٍ وأطرٍ ملائمة لتوحيد حركته الوطنيّة؟

قد تَبدو الإجابة على المستوى النظري سهلةً وبديهيّة، لكنّها سرعان ما تغدو مشكلةً حقيقيّة، عندما تنتقل إلى الواقع. والمشكلةُ هنا ليست مفتعلةً بتاتًا، في ظلّ اختلاف المناهج والخيارات السياسيّة، التي يتقدّم بها كلُ واحدٍ من تيّارات الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة، على تعدّدها ارتباطًا بما تعكسه تلك التيّارات وتمثّله من أبعادٍ طبقيّة وأيديولوجيّة ومستويات تطوّرها، إضافةً لما تمثّله من وزنٍ فعليّ في الواقع الفلسطيني، مضافًا لذلك واقع الانقسام الذي تمأسس في سلطتين متمايزتين من حيث التركيبة والتوجّهات والالتزامات والحمولة الأيديولوجيّة، مع تغييب لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة ودورها، إلى جانب الواقع القسري الذي تعيشه التجمّعات الفلسطينيّة داخل الوطن المحتلّ، وفي مواقع اللجوء والشتات.

في ظلّ هذا الواقع ينعقدُ لقاء الأمناء العامين في القاهرة، الذي من الواضح - دون أيّة نزعةٍ إراديّة أو رغائبيّة - يأتي امتدادًا للقاءات سابقة كثيرة عُقدت تحت المسمّى ذاته، كما جرى في بيروت - رام الله عام 2022، أو تحت عنوان المصالحة، وإنهاء الانقسام التي جالت في الكثير من العواصم العربيّة، وكان آخرها في الجزائر، وفي كلّ مرّة يعود الجميع خالي اليدين، والسؤال هنا: لماذا لقاء القاهرة سيكون كما سابقاته، ولن يؤتي أُكل القوى الوطنيّة التي تنشد الوحدة الوطنيّة فعلًا؟!

إنّ الوحدة الوطنيّة، مبدأ، ومن الناحية النظريّة، ترتقي إلى مستوى الهدف الوطني. ولكن، على المستوى العملي، فإنّ النجاح في الحفاظ على مكانتها هدفًا وطنيًا، هو بقدر تحويلها إلى وسيلة سياسيّة وتنظيميّة لإدارة الصراع ضدّ الاحتلال، وتحشيد طاقات الشعب الفلسطيني وتنظيم قواه، خاصّةً أنّ تحقيق هذا الهدف؛ الوحدة، مرتبطٌ بتوصيف المرحلة التي يخوضها شعبنا، كونها مرحلة تحرّر وطنيّ وديمقراطي، وهذا التوصيفُ يوجب الفرز الواضح للقوى التي ما زالت تنطلقُ من هذا التوصيف من عدمها؛ وهذه نقطةٌ أساسيّةٌ في توضيح مفهوم الوحدة بما يلغي كلّ التباس، ويقف في وجه كلّ محاولة لحرف هذا المفهوم بما ينسجمُ مع مشروع السلطة، المرتكز على الاتفاقات السياسيّة والأمنيّة الموقّعة مع العدو، والرهان على المفاوضات بوهم تحقيق أهدافنا الوطنيّة من خلالها؛ فمفهوم الوحدة باعتباره هدفًا وطنيًا، المرتكز على رؤيةٍ واستراتيجيّة وطنيّة شعبيّة، لا يحتملُ اجتهاداتٍ متعدّدةً ومحاولاتٍ مستمرّةً لتقديم تفاسيرَ جديدةٍ ومغلوطٍ فيها، فهو مفهومٌ مرتبطٌ عضويًا بعناصره الأصليّة التي لا تتناقض مع الفكر الوطني التحرّري، وتنسجمُ كلّ الانسجام مع تكوين هذا التفكير واتّجاهاته النضاليّة. والوحدةُ - وَفْقَ هذا المفهوم - لا تحقّقها إلا الإرادةُ الشعبيّة؛ أي إرادة الشعب، كونها معركةً شعبيّة، وليست وقفًا على طبقةٍ معيّنة أو على اتجاه حزبيّ معيّن؛ وهي لا تعتمدُ في الوصول إليها على أيّ معونةٍ خارجيّة، إلّا إذا كانتْ هذه المعونة طرازًا من التعاطف الوجداني لا تمسّ الكرامةَ الوطنيّةَ ونقاءَها.

وَفْقَ هذا المفهوم أيضًا؛ تغدو قضيّةُ الوحدة الوطنيّة مسألةً نضاليّةً ثوريّة، غيرَ متوقّفة على المباحثات والحوارات فحسب، بمعنى أنّها عمليّةٌ لا تقبل المساومة والتأجيل، والوعود المطّاطة، فكونها معركةً شعبيّةً يعني أيضًا أنّها يجبُ أن تتحقّق بأقصى ما يمكن من السرعة؛ كي يبدأ الشعب بجني ثمار كفاحه الوطني دون تبديدٍ وإخضاعٍ لشروط عدوّه الوطنيّ والطبقيّ.. وهذا يعني أنّ معركة الوحدة تنتهجُ الثوريّة من أجل اختصار الزمن، وضمان عدم انحراف القضيّة بواسطة نقلها إلى الموائد المستديرة؛ كي تصبحَ قضيّةَ صالونات.

نطافُ الأسرى تنجبُ «سفراء الحريّة»..

«ميلاد وليد دقّة» نموذجًا

إلهام الحكيم
كاتبةٌ فلسطينيّة / تركيا

عندما نستمعُ لقرارات الحكم على الشباب الفلسطيني بأحكام عالية يتجاوزُ بعضُها مؤبّدات عدّة، يتبادرُ لذهننا قمّة الظلم والوحشيّة التي يتّسم بها الكيان الصهيوني الغاصب الذي يسعى لحجز حرية الفلسطينيين منعًا لهم من المقاومة الرافضة للاحتلال، هل يمكنُ لأحدنا تصوّر معنى قرار الأَسْر مئات السنين، حيث يفوّتون على الأسير فرصة التفكير بالحرّية مهما حصل على الإعفاء وتخفيض سني الاعتقال، ومن ثَمّ لا يكون للأسير أي أمل بمغادرة السجن، هذا أوّلًا، إضافةً لمحاولة منع الآخرين بالتفكير بالمقاومة خوفًا من الاعتقال، ومن ثَمّ حجب مجرد تفكير الأسير ببناء أسرة من خلال الزواج والإنجاب، فالعدوُ الصهيونيُ يرعبُهُ الجانبُ البشريُ نتيجةَ ارتفاع نسبة الولادات بين أبناء الشعب الفلسطيني، ما يخلُ بالتوزّع الديمغرافي لصالح الفلسطينيين رغم المحاولات المستميتة لرفع عدد المهاجرين الصهاينة إلى الأراضي المحتلّة، فالأسيرُ الأعزب يبقى عازبًا، كما يفوّتون على المتزوج فرصة الإنجاب، ومن ثَمّ زرع اليأس عند الزوجات ودفعهن لطلب الطلاق والارتباط بآخر، أو منح الأسير لزوجته أو خطيبته الحرية باختيار مستقبلها، لكن هذه السياسة الصهيونية الممنهجة باءت بالفشل نتيجة تمسّك الزوجات بأزواجهن، بل والفخر بهم باعتبارهم أسرى حريّة.

تهريبُ نطف الأسرى لإنجاب «سفراء الحرّيّة»:

تحدّثنا بدايةً عن خلفيّة الأحكام العالية التي أحد أهدافها قطع نسل الأسرى، ومنعهم من تشكيل أسرة خوفًا من التكاثر، وحصول خلل ديمغرافي، لكن إصرار الفلسطيني علىٰ استمرار الحياة، واعتبار ذلك جزءًا مهمًّا من نضاله وعقيدته بأنّه سيخرج يومًا، ويعيش بكرامة دفعت العديد من الأسرى أصحاب الأحكام العالية بالتفكير الجدي بالتناسل وهم خلف القضبان عبر تهريب النطف فبدأ تنفيذ الفكرة فترة التسعينات من القرن الماضي، لكنّها فشلت بالأسلوب، إضافةً لتردّد البعض خوفًا من كلام الناس والتداعيات الاجتماعيّة على زوجاتهم، ومع الإصرار الذي لا يعرف المستحيل نجح بعض الأسرى بتهريب نطافهم بأسلوب طبي بالتنسيق مع مراكز لعلاج العقم وأطفال الأنابيب، وتزايدت المحاولات بعد الحصول على فتوى شرعية تجيز تهريب الحيوانات المنوية وتسليمها للمركز بوجود شاهديْن من أهل الأسير وآخريْن من أهل الزوجة للمصداقية بشرعية الموضوع، وصولًا للإلقاح الصناعي في الوقت المحدّد، **وقد وصل عدد الأطفال المولودين جراء التهريب** 122 **طفلًا وطفلةً من** 78 **أسيرًا - حتى الشهر السادس من عام** 2023 **-** آخرهم أربعة توائم للأسير أحمد الشمالي من غزة، والطفل براء ابن الأسير سامر محمد أبو كويك من الضفة الغربيّة..

أما باكورة هؤلاء السفراء، فهو الطفل مهند ابن الأسير عمار الزبن الذي تمّ إنجابه عام 2012، وهذا يعني إصرار الفلسطيني على الإنجاب وتثبيت وجوده حتى وهو في غياهب السجون، لهذا نجحت عمليات تهريب النطاف والإنجاب، ويعدّ الأسير وليد دقة نموذجًا مشرقًا للفلسطيني المقاوم، الذي تسانده الزوجة ومختلف أفراد العائلة رغم حكم المؤبد وعدم الثقة بالسجان الصهيوني بأنه سيخرج ذات يوم:

الأسير المفكّر وليد دقة، من باقة الغربية في الداخل الفلسطيني المحتل عام 1948، اعتقل عام 1986 محكوم بالسجن المؤبد 39 سنة، حاصل على الماجستير في العلوم السياسيّة. له العديد من الكتب والإصدارات ومن أبرز مفكري الحركة الأسيرة، أنهى حكمه في 24 آذار 2023 إلا أن المحكمة مددت اعتقاله لأسباب غير معروفة رغم إصابته الخطيرة بالسرطان في النخاع الشوكي منذ سنوات.. حلم بالإنجاب باعتباره وسيلةً نضاليّة.. وبعد ربع قرنٍ من الاعتقال كتب رسالةً بعنوان: «لطفل لم يولد

بعد» أرعب فيها السجان رغم أن ذلك كان بعيد المنال، لكنّه ليس مستحيلًا بالنسبة لوليد الذي التقى بفتاة أحلامه الصحفيّة سناء سلامة، واتفقا على الزواج رغم وجوده خلف القضبان، وتمّ لهما ما أرادا. عقدا القران عام 1999 لكن لم يُسمح لهما بالخلوة والزواج رغم أن قانون الاحتلال يجيز ذلك كونه «يحمل الهويّة الإسرائيليّة» حسب القانون نفسه المتحيّز لليهود!

بقي وزوجته يفكرا بالطريقة المثلى للإنجاب وكسر حاجز السجن وشوكة السجان وكان لهما ما أرادا بعد 20 عامًا من الارتباط، تحقّق الحلم وأثمر تهريب النطاف بوجود الشهود. حملت سناء وعندما علم الاحتلال بذلك حاول محاصرة الزوجين فمنعهم من اللقاء لشهور عديدة لينغّص عليهم الفرحة. اتفق مع إدارة السجون على متابعة لحظة الولادة عبر الهاتف لكن القبح الصهيوني يأبى إلا أن يظهر بخبث وجلاء، فنقل الأسير إلى العزل ومنعه من عيش لحظة ولادة الحياة لابنته البكر في الناصرة. تحوّل ذلك الأمر غير الإنساني إلى وسيلة نضاليّة شارك فيها الأسرى المحررون مع الأهل والأقارب والأصدقاء والإعلام الفلسطيني، فكانت هبّة شعبية عارمة قلبت السحر على الساحر وأطلقت «ميلاد» صرخة الحياة لتقول وهي في

المهد «أنا ميلاد وليد دقة. تحررت نطفة وولدت عام 2019 وصرت سفيرة للحريّة «اختار والدي البطل اسمي قبل أعوام حين كتب رسالته الشهيرة وقال «لفكرة أو حلم بات يرهب السجان دون قصد أو علم، وقبل أن يتحقق.. أكتب لأي طفل كان أو طفلة، أكتب لابني الذي لم يأت إلى الحياة بعد.. أكتب لميلاد المستقبل.. فهكذا نريد أن نسميه / نسميها». منحني اسمه فكنت أنا ميلاد الخير والمحبة.. ميلاد الحرية مع ارتباط اسمي باسم أبي الحر حتى لو كان خلف القضبان.. ارتبط اسمي به رغمًا عن الاحتلال.

رفض الاحتلال تسجيلها على اسم والدها وحارب الزوجان للحصول على هذا الحق وتسجيلها قانونيًا باسمه. قالت سناء بعد الولادة بشهور: «هذا الاسم الذي حلم به كثيرًا داخل غياهب السجن وبتحقيقه أصبح لحياته معنى آخر» وتتابع: «اليوم بوجود ميلاد صار في غنى.. أكثر من عشرين عامًا على علاقتي بوليد أما اليوم فالعلاقةُ موجودةٌ لكنّها أجمل بمليون مرّةٍ من قبل، لا يوجدُ كلمات تصف الشعور، فعندما أنظر إلى وجه هذا المخلوق الصغير الذي اسمه ميلاد تتقزم في عينيّ كل الدنيا وكما قال وليد: كأن المعاناة وكل السجن بأعوامه الـ 35 مسحته اليوم، علاقة وليد بميلاد أكثر من رائعة ويعيش الدور جيدًا ويحدثها كأنّها صبية في العشرين ويحلم بلحظة لقائه بها. لقد أصبح السجن أقسى عليه أكثر من قبل كما صار غيابه أشد قسوة عليّ حيث أفتقده في أدق التفاصيل وأبسط الأمور، لكن ما يعزينا أن موعده مع الحرية يكون بعد أربعة أعوام وحينها لن تتسع فلسطين لفرحة الزوجين اللذين حلما بإقامة عرس من جديد، وبوجود ميلاد هذه المرة الّتي ستعتز بوقوفها أمام قامة أبيها الذي سيحدثها كيف كان أحد أقدم الأسرى الفلسطينيين، وربما تنام على كتفه وهو يروي لها قصة واقع الأسرى المقاومين للاحتلال والمصرّين على عدم الاستكانة للأسر، ويسعون للإنجاب وفتح البيوت العامرة بالأطفال الفاعلين في خدمة القضيّة والشعب والمجتمع.

مضت السنوات الأربع وانتهت محكوميّة وليد لكن الاحتلال مدّد الاعتقال دون إبداء الأسباب الموجبة لذلك، وهو اليوم يوجد في وحدة العناية المركزة في مستشفى «أساف هاروفيه» في مدينة الرملة، وأكدت عائلته أن وضعه الصحي بالغ الخطورة.. فيما قالت غرفة الفصائل المشتركة في تصريح لها: شعبنا لن يقبل أن يستقبل أسراه شهداء، كما أطلقوا شعار: الحرية لوليد دقة وتحول ذلك إلى «ترند» لكن الاحتلال لم يستجب للنداءات حتى الآن بما فيها نداء ميلاد وليد دقة بقولها: «أنا بانتظارك يا بابا ومشتاقة لعناقك وحنانك يا حبيبي حتى أعيش متل باقي أطفال العالم».

الحرائر ينتظرن حرية الأحرار:

سناء سلامة نموذج مشرق ومشرّف لزوجة أسير طال أمد اعتقاله، لكنها كما زوجات الأسرى اللاتي آثرن انتظار عودة أزواجهن لبيوتهم ومتابعة الحياة العائليّة التي تحلمن بعيشها في جو أسري بعيدًا عن التضييقات المجتمعيّة والمعاناة الاقتصاديّة التي يمكن أن تتعرّض لها الزوجة الوحيدة أو مع أبنائها، يقُمن بدورهن التربوي ولسان حالهن يقول: سيأتي اليوم الذي سيتحرّر فيه زوجي ويعود للمنزل ويخفف عني الأعباء ونوزّع المهام بيننا، وغيرهن فضّلنَ حمل البذرة الزوجيّة في أحشائهن وإنجاب «سفراء الحرية» الذين يستحقون هذا الاسم بكل جدارة، وقد ولدت بعض الزوجات توأمًا أو ثلاثة توائم، ما دفع إدارة مصلحة السجون للتفكير بفرض عقوبات على الأسرى الذين يثبت تهريبهم للنطف كما حصل مع العديد من الزوجات اللاتي حُرمن مع أبنائهن من زيارة الأسرى والتواصل على اعتبارهم عائلة! كما تدرس الإدارة اتخاذ إجراءات عقابيّة إضافةً لمنع الزيارات، تتعلّق بدفع الغرامات الماليّة الطائلة، وعدم الاعتراف بشهادات ولادة هؤلاء الأطفال! لكن إصرار الأسرى وزوجاتهم على تلك العمليّة التي اتّخذت بعدًا اجتماعيًا وسياسيًا ودينيًا جعلها رمزًا للبطولة الفلسطينيّة التي ستستمرُ رغم كلّ محاولات المنع الصهيونيّة.

المصـــادر:

- العالم العربي - القدس العربي - قدس برس - الجزيرة نت

وليد دقّة.. المناضلُ والمفكّرُ والمثقّفُ خلفَ قضبان الأسر

الواقعُ والبطولة.. التحدّي والمقاومة

بسّام عليّان
كاتبٌ وباحثٌ اجتماعيٌ وسياسيٌ فلسطينيّ/ سوريّة

تقفُ الحروفُ حيرى عاجزةً عن أن تنتظمَ بمديحٍ يليق بمقام الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال الإسرائيلي، أو أن تنبئ بوصف بحجم عذاباتهم اليوميّة، هم رجالٌ عزّ نظيرهم، هم عطرُ القضيّة الفلسطينيّة وعنوانُها الأبرز، هم نبضُ البطولة وأنشودةُ النخوة والمروءة، وتراويد الشجاعة والتحدّي، هم العيون المرابطة الرابضة التي باتت حارسةً لرفعة الوطن وعزّته.

يتّفقُ الأسرى الفلسطينيّون في السجون الإسرائيليّة على أن للسجن زمنًا خاصًا لا يدركه إلا من خاض التجربة عن قُرب أو سمع بها، وتتراوح تلك التجربة حسب فترةُ الاعتقال والمشهد السياسي والاجتماعي خارج الأسر، الذي بدوره ينعكسُ على البنية الاعتقاليّة والتنظيميّة داخل سجون الاحتلال.

إنّ زمن السجن مع ثبات المكان، ونضال الأسرى، يدفعنا إلى التأكيد أكثرَ من أي وقتٍ مضى على ضرورة إعطاء قضيّة الأسرى في سجون الاحتلال بعدًا قانونيًا وسياسيًا وإنسانيًا وأخلاقيًا وأدبيًا. وأن تتصدّر قضيّة الأسرى الفلسطينيّين جدول العمل الوطني على الصعيدين؛ الرسمي والشعبي، جرّاء ما يعانونه من إجراءات وتدابير من قبل سلطات السّجون والمعتقلات الإسرائيليّة؛ الأمرُ الذي أدى إلى استشهاد عدد منهم؛ بسبب التعذيب المنهجي والوحشي، والإبعاد التعسّفي لبعضهم، ووجود بعضهم في شبه حالة احتضار بسبب الإهمال الطبي، ومعاناة الأغلبية الساحقة منهم من إضراب الأمعاء الخاوية الأسطوري الذي لا يزال ساريًا حتى كتابة هذه الدراسة.

ومن حالات الاحتضار التي يعاني منها أسرانا الفلسطينيون في سجون الاحتلال حالةُ الأسير المريض وليد دقة؛ والأسير وليد دقة هو كاتبٌ ومفكّرٌ وسياسيٌ فلسطيني، يبلغُ من العمر 61 عامًا من مدينة باقة الغربيّة الفلسطينيّة، المحتلّة عام 1948. أصيب بنوع نادر من سرطان النخاع العظمي عام 2022، وهُو حاليًا في حالة صحيّة صعبة، وبحاجة إلى عناية طبيّة عاجلة.

الأسير «دقة» هو واحد من 19 فلسطينيًا أمضوا أكثر من 30 عامًا في سجون الاحتلال الإسرائيلي، وواحد من 23 فلسطينيًا معتقلون قبل توقيع اتفاقية أوسلو عام 1993، حيث استثنيت هذه المجموعة من الصفقات السياسيّة وصفقات التبادل كافةً، ونكث الاحتلال باتفاقات للإفراج عنهم ضمن الدفعة الرابعة لتبادل الأسرى في آذار عام 2014. وحسب ما لمّح الأطباء، أن حالة «وليد» الصحيّة المتدهورة هي نتيجةٌ للممارسة الممنهجة لمصلحة السجون الإسرائيلية في الإهمال الطبي المتعمّد، تحديدًا بعد رفض نقله بشكل عاجل إلى مستشفى مدنيّ بعد إصابته بجلطةٍ دمويّة.

والمفكّرُ والسياسيّ والمناضل وليد دقة اعتقلته قوات الاحتلال الإسرائيلي بتاريخ 1986/3/25، وحكمت عليه بالسجن المؤبّد، حُدّدت لاحقًا بـ 37 سنة. وكان اعتقاله بزعم مشاركته في المقاومة المسلّحة ضدّ النظام الاستعماري الاستيطاني والعنصري الإسرائيلي عام 1985، وكان من المفترض أن يتم الإفراج عنه في بداية عام 2023؛ إلّا أنّه ما يزال معتقلًا إلى اليوم، رغم أنّه يكافح نوعًا نادرًا من السرطان

وليد دقة من أبرز مفكري الحركة الأسيرة:

نستطيع أن نقول: إنّ الأسير وليد دقة من أبرز مفكّري الحركة الأسيرة؛ فهو مناضلٌ سياسيٌ وكاتبٌ متميّز، ومثقّفٌ مفكّرٌ وقائدٌ محنّكٌ ومؤثّر؛ وهو واحدٌ من الذين أبدعوا في كتاباتهم عن الحالة الفلسطينيّة، وإنتاجه الأدبي المقاوم. فقد فضح «وليد» هذا العدو السجّان، فكتب واصفًا إيّاه بأنّه يستهدفُ الجوهر الإنساني عند الفلسطينيين، وبالتحديد في حياة السجين الفلسطيني المقاوم، فمع تعاقب الساعات والأيام والسنوات، يتم قتل الجوهر عند الفلسطيني السجين لدى الاحتلال.

ووليد استطاع بوعيه وفكره، أن يفضح ممارسات الاحتلال، فلذلك لا نستغربُ أن يقوم العدوّ الإسرائيليّ بتعذيبه بأسلوبٍ ممنهجٍ ومدروس.

وليد ترك إرثًا معرفيًا غزيرًا حول أدب السجون الفلسطيني، وخلال مسيرته الطويلة في الاعتقال أنتج العديد من الكتب والدراسات والمقالات، وأسهم معرفيًا في فهم تجربة السجن ومقاومتها.

ومن أبرز ما أصدره: «الزمن الموازي» و«يوميات المقاومة في مخيّم جنين» و«صهر الوعي» و«حكاية سر الزيت» و«حكاية سر السيف».

وكان الأسير «دقة» قد تعرّض لجملة من السّياسات التّكيليّة على خلفيّة إنتاجاته الفكريّة

والأدبيّة، التي ارتفعتْ وتيرتُها بعد قدوم طفلته ميلاد، فواجه العزل الانفرادي، والنقل التعسفيّ المستمر، وصنّف بعد إضافة حكم عامين إلى مدّة حكمه على أنّه شديدُ الخطورة (سجاف)، وعانى إثر ذلك من إهمالٍ طبيّ متعمّد، وتجاهُل إجراء الفحوصات والمتابعات الدوريّة له. وبدأت صحة «وليد» في التدهور، حيث عانى من مشاكلَ صحيّةٍ مرتبطةٍ بالدم. وعلى الرغم من أنّ طبيب السجن نصحه بإجراء فحوصات دم دورية، إلا أن مصلحة السجون رفضت متابعته طبيًا، ولم تقم بإجراء الفحوصات اللازمة. فوليد يعاني من نوعٍ نادرٍ من سرطان نخاع العظام، الذي يؤدي إلى تعطيل الإنتاج الطبيعي لخلايا الدم، ما يستدعي إجراء عمليّة زراعة لنخاع عظم بشكلٍ عاجل.

ويعاني وليد من ارتفاع ضغط الدم، وفي حال عدم تلقيه العلاج الطبي المناسب والعاجل، فإنّ هناك خطورةً كبيرةً ببقائه على قيد الحياة.

ورغم كل هذا، ما تزال إدارة السجن تماطل في تقديم العلاج اللازم لوليد أو الإفراج عنه لتدهور حالته الصحيّة. فقد أصبح يعاني من عدم قدرته الوقوفَ على رجليه، وصعوبةً في التنفّس، وهزالًا جسميًا عامًا. ويستعين بالأوكسجين للتنفّس. وهذا الحال الذي وصل إليه وليد دقة هو من إهمال إدارة مصلحة السجون الإسرائيليّة التي أدّت دورًا مباشرًا في الحالة التي تهدد حياته؛ وإبقائه في بيئةٍ صحيّةٍ سيّئةٍ وخطيرةٍ؛ ما يجعل من هذا السلوكِ جريمةَ سوءِ معاملة، ومعاملة غير إنسانيّة من خلال إهمال وليد طبيًا وسيلةً للقتل البطيء، وهذا الإهمال الطبي في سجون الاحتلال — سياسةٌ تعسفيّةٌ وغير قانونيّة - تستخدمها سلطاتُ الاحتلال بحقّ الأسرى الفلسطينيين في محاولة لقتلهم قتلًا بطيئًا وإضعاف معنوياتهم. ففي كانون الأول 2022، استشهد الأسير ناصر أبو حميد (50 عامًا) في سجون الاحتلال بعد إصابته بمرض السرطان الذي انتشر في جسده بشكلٍ سريع دون أن يتلقى العلاج الطبي المناسب. وعلى الرغم من الدعوات المتكررة من قبل المجتمع المدني الفلسطيني والمجتمع الدولي، رفضت سلطات الاحتلال الإفراج المبكر عن ناصر على الرغم من تأكيد وفاته المحققة، وبعد استشهاده، رفضت سلطات الاحتلال تسليم جثمانه لعائلته ليُدفن بكرامة.

وتُواصل سلطات الاحتلال الإسرائيلية احتجاز جثامينَ 13 أسيرًا فلسطينيًا استشهدوا داخل سجون الاحتلال، وهم أنيس دولة الذي استشهد عام 1980، وعزيز عويسات استشهد عام 2018، وفارس بارود، ونصار طقاطقة، وبسام السايح استشهدوا عام 2019، وسعدي الغرابلي وكمال أبو وعر استشهدا عام 2020، وسامي العمور استشهد عام 2021، وداوود الزبيدي وناصر أبو حميد ومحمد تركمان استشهدوا عام 2022، ووديع أبو رموز وخضر عدنان استشهدا عام 2023.

وبلغ عدد الأسرى الفلسطينيين الذين استشهدوا داخل سجون الاحتلال الإسرائيلي منذ عام 1967 (237) أسيرًا، منهم 75 أسيرًا استشهدوا نتيجةً للإهمال الطبي المتعّمد، حيث تزداد هذه السياسة من خلال حرمان الأسرى الفلسطينيين من الرعاية الصحيّة التخصّصيّة والفحوصات الدوريّة، إضافةً إلى إساءة معاملة الأسرى المرضى من خلال تقييدهم بالأسرّة في المستشفيات، كما أن سياسة احتجاز جثامين الأسرى الشهداء في الثلاجات هو شكلٌ إضافيٌ من أشكال العقاب النفسي والعقاب الجماعي. كما واستشهد عدد من الأسرى بعد أن تحرروا من الأسر، كحسين مسالمة، الذي استشهد بعد فترةٍ قصيرةٍ من إطلاق سراحه، وذلك نتيجةً للأمراض التي ورثوها داخل سجون الاحتلال.

تستمرُ سلطات الاحتلال الإسرائيلي في انتهاكاتها الصارخة للأعراف والمواثيق الدولية التي تسعى إلى حماية الأسرى، وخاصّةً الأسرى المرضى، حيث تنتهكُ سلطات الاحتلال القانون الإنساني الدولي الذي يضمن توفير العناية والرعاية الطبية اللازمة للمرضى، كما أن سلطات الاحتلال تستخدم العقوبات الجماعية بحق الأسرى وعائلاتهم أداةً للقمع والسيطرة بحق الشعب الفلسطيني. فمنذ عام 1967 شرعت قوات الاحتلال العسكري الإسرائيلي بافتتاح العديد من السجون والمعتقلات لتضييق الخناق على حركة المقاومة الوطنية الفلسطينية؛ فلجأ الاحتلال إلى اعتقال العديد من الشخصيات الوطنية وأبناء المقاومة الفلسطينية وزجّ بهم في سجونه ومعسكرات اعتقالاته.

وبالنسبة إلى ظروف الأسر والاحتجاز، فإنّ عمليّة احتجاز الأسرى من الأراضي الفلسطينيّة تتمُّ في سجون ومراكز اعتقالٍ عسكريّةٍ إسرائيليّةٍ تقع داخل الأراضي المحتلة عامَ 1948، فهناك خمسةُ مراكز تحقيق، وستة مراكز احتجاز وتوقيف، وثلاثة مراكز اعتقال عسكرية، وعشرون سجنًا مركزيًا تابعًا لمصلحة السجون الإسرائيليّة. فلا تزال حكومة الاحتلال الإسرائيلي تحتجز وتعتقل في سجونها ما يقرب (6500) معتقل فلسطيني، بينهم (360) طفلًا، و(61) امرأة، و(6) نواب في المجلس التشريعي.

ويبلغ عدد الأسرى المرضى (1200) أسير تقريبًا (هذا الذين يبلغ عن حالات مرضهم)، من بينهم (130) حالة مزمنة، كأمراض السرطان والسكري والإعاقة الكلية أو الجزئية. بالإضافة إلى ما تقترفه إدارة السجون الإسرائيلية من انتهاكاتٍ جسيمة بحقّ الأسرى والمعتقلين، تتمثّل في ممارسةُ التعذيب، والعزل، والحرمان من الرعاية الطبيّة، وإجراء التجارب الطبيّة عليهم؛ الأمر الذي أدّى إلى وفاة العشرات منهم أثناء الأسر أو بعده. كما تشمل الانتهاكات احتجاز الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين في سجونٍ سريّة، ومحاكمتهم بصورةٍ غير قانونيّة، والاعتقال الإداري غير المشروع، إضافةً إلى اقتحام المعتقلات والسجون، التي تتخلّلها عمليّات القمع والتنكيل، إلا أنّ الأسرى الأبطال داخل سجون الاحتلال الإسرائيلي يقاومون ويتحدون الاحتلال ويتحدون عنجهية الاحتلال وحكومته العسكرية الصهيونية، خاصّةً في غياب استراتيجيّةٍ وطنيّة لدعم نضال الحركة الأسيرة، فيقومونَ بالإضراب عن الطعام رغم قسوته وصعوبته باعتباره أحد أهم الأسلحة التي يستخدمها الأسرى، وأقوى أشكال النضال المشروعة التي تلجأ إليها الحركة الأسيرة خلف القضبان لانتزاع الحقوق الأساسية الخاصة بالفرد أو الجماعة، حيث استطاع الأسرى من خلاله تحقيق الكثير من الإنجازات، وانتزاع جزءٍ من حقوقهم المسلوبة، وكان آخر هذه الاضرابات التي تركت أثرًا واضحًا، واستطاعت أن تغيّر واقع السجون هو إضراب الكرامة في نيسان عام 2012 الذي أنهى العزل الانفرادي في حينه، وأعاد برنامج زيارات قطاع غزة بعد انقطاع مدة 6 سنوات متواصلة، وما يميز هذه الركيزة أنها تُسهم في تحسين ظروف الاعتقال، ولا يثمر عنها تحررهم من الأسر.

وهنا نقول إنّه لا بدّ بل من اللازم والواجب، إعطاء أهمية قصوى لبناء استراتيجيّةٍ وطنيّةٍ لدعم قضايا الأسرى والحركة الأسيرة، تقوم على استعادة وحدة الشعب الفلسطيني، وإنهاء حالة الانقسام التي يستفيد منها الاحتلال ويتمادى في عنجهيته وتعسفه بحق الأسرى، وتحقيق المصالحة في سياق إعادة بناء الوحدة الوطنية، وبما يضمن إعادة بناء نظام فلسطينيّ سياسيّ موحّد على أسس ديمقراطيّةً، وبرنامجٍ وطنيّ واستراتيجيّة نضاليّة ورؤيّة قانونيّةً وسياسيّةٍ لوضع الآليات الكفيلة بتوفير الحمايةً للمعتقلين الفلسطينيين، بالاستناد إلى قواعد القانون الدولي وأحكامه، بعيدًا عن الاعتبارات السياسيّة وإملاءات القوّة العسكريّة للاحتلال.

عن وليد دقه المناضل والإنسان، وعن سناء وميلاد

رلى أبو دحو
كاتبةٌ وأسيرةٌ محرّرةٌ وأكاديميّة/ فلسطين

هذه الكلماتُ محاولةٌ لاستعادة الوصف ليطابق الموصوف شكلًا ومضمونًا؛ هي محاولةٌ لاستعادة ما يبدو أنّه تفخيمٌ فيما هو تمويهٌ مقصودٌ وغير مقصود، ولذا هي كلماتٌ ليست عن وليد المفكر، وإن كانت كتاباته ونحته للمفاهيم خاصّةً صهر الوعي تجعلُهُ مفكّرًا ومبدعًا وكاتبًا واستثنائيًا؛ لأن كل هذا الإنتاج خرج للعلن في ظروف استثنائيّة، حيث العزلة والسجان الذي يحارب الفكرة أي فكرة، ويريد للأسير أن يكون منزوع الإرادة والعقل. ومع ذلك قوّتها في قدرته على نحتها من موقع القوي المتحدّي، والمدرك أن السجن هو خندقٌ نضاليٌ متقدّمٌ ومكانٌ للإنتاج المعرفي منتجًا نضاليًا ثوريًا، وليس رفاهيةً مثقّف لديه متّسعٌ من الوقت أن يصحو من النوم، وينطلق لأقرب مقهى يحتسي قهوة، وينتج عبر وسائل التواصل ما يعتقد أنّه معرفةٌ ثوريّةٌ وتحرّريّةٌ، وقد لا تخرج فعلًا أبعد من باب المقهى ولا ممارسة على الأرض تمنحها بعضًا من المصداقية، وهي ليست كلمات في التبجيل السياسي من قيادةٍ تركت جنودها أسرى في السجون، وتستخدمهم للاستهلاك الإعلامي ولتجميل صورتها الهزيلة المهزومة.

هي كلماتٌ عن وليد الإنسان والمناضل، القائد والثوري بجدارة الصمود والفعل خارج وداخل الأسر. وليد هو التعبير المكثّف عن أن تكون مناضلًا ثوريًا مثقّفًا عضويًا مشتبكًا، وأن تغرق كلك، وكل وقتك في معركة وجودك الإنساني والنضالي، فلسطيني في وجه المحو والاقتلاع الاستعماري.

لذا، هذه الكلمات عن وليد الإنسان أوّلًا؛ لأنّه أدرك مبكرًا معنى انتفاء إنسانيّة الاستعمار، ومحاولته سحق إنسانيّة المستعمَر، فناضل من أجل حريّة شعبه، ثمّ اعتقل، فلم ينكسر أو يتراجع، بل تفحّص جيّدًا قضبان الزنزانة وحيطانها، ورسم في مخيّلته كيف تكون مساحة لرسم طريق الحرية وكيف يحوّلها إلى بقعة ضوء وأمل لرفاقه الأسرى ولشعبه الرابض على تخوم الحرية، وأدرك بلمح البصر أنّ النضال مستمرّ، وأنّ هنا المحكّ الفعلي، حيث تختبر الإرادة والقناعة فأبدع مناضلًا لأنّه إنسان، فكان فاعلًا في منظّمات الأسر في الكتابة، في المحاضرة، في العطاء، في الصمود، في الإضراب، شكّل نموذجًا طليعيًا وثوريًا للمناضل المثال فاستحقّ عن جدارة أن يكون قائدًا ونموذجًا يسعى رواد الزنازين من المناضلين وأجيال من الفلسطينيين أن يتمثّلوا سيرته ونضاله.

أتنقل بين صفحات التواصل الاجتماعي أتابع ميلاد وليد دقه وهي تُنتزع من طفولتها إلى عالم فُرض عليها قصرًا بفعل احتلال بغيض انتزع وليد من حياته وحرّيته إنساناً يحلمُ ويطمح أن يكون يومًا أبًا، أخًا، وزوجًا محبًا، إلى مناضلٍ يقارعُ الاحتلال فيعتقل ويغدو رمزًا للصمود والنضال والاشتباك المستمرّ مع منظومة الاستعمار ممثلة بإدارات السجون التي لاحقت أحلامه وأنفاسه وقلمه والأوراق، واليوم تلاحق ذرات الدماء في جسده وكل مفصل عظام يأبى الركوع.

ميلاد، ها هي تحملُ صورة والدها أمام سجن الرملة، وتهتفُ لحرّيته وحريّة الأسرى، وهي في طريقها لوقفة إسنادٍ هنا أو هناك، أو أمام بوّابات السجون المختلفة تنتظر زيارته من خلف الزجاج دون أن تختبر معنى حضن الأب ودون أن يتمكن هو من اختبار أبوته وهي تتلمّسُ أيدي طفلته الصغيرة، ودون أن يتلقف أولى الكلمات أو الضحكات وحتى الدمعات. ميلاد التي اختبرت الوطن وتعرفت إلى تضاريسه وشوارعه عبر المسافات بين سجن وآخر تطارد رغبات الطفولة لأب تحلم وتشتاق لحضنه كما كل الأطفال، ووليد الذي رسم ملامحها في ليل الزنزانة الطويل، وكيف ستكون وكيف يمكن أن يمنح معنى لأبوة سجينة؟ وكيف لطفلة هي من صلبه بنطفة محرّرةٍ أن تنجبه هو، وتمنحه ميلادًا وحياةً

بعد سنوات سجن عجاف رسمت ملامحها على تجاعيد وجه وأكف يداه؟

كيف تتحوّل الأشياء وتتبدل الأدوار والمواقع لتصبح الطفلة تحمل هم الأب الكبير، وهي عنوان لوجوده وإعلان حياته وبقائه رغم أنف السجان هي امتداده ووجوده في الحرية رغم الأسر. ميلاد إعلان الوجود والبقاء ورغبة الحياة التي لم تطفئها سنوات الاعتقال وتوالي الفصول، ميلاد لوليد بيان الانتصار في معركة الوجود والصمود وصراع الإرادة على السجان، معها وليد يؤكّد للمرة المليون جدلية الحياة والخلود. ميلاد هي سخرية وليد من تبجّح السجان بأمنه وقدرته على حجر حرية الإنسان، هي إعلان أننا كنا وسنبقى نحب الحياة ما استطعنا اليها سبيلًا.

ميلاد الطفلة التي منحتنا جميعًا وقبل وليد وسناء قوة وإرادة إضافية أن نحب الحياة وأن نقتفي درب المناضلين، أضاءت من جديدٍ على عالم الأسر الذي ابتلعه وغيّبه عالمٌ أوسلو البغيض، بها وليد يستنهض فينا الثورة وأن نحيا لنقاتل.

أما وليد فقاتل بقوة؛ كي تصبح أحلامه المصادرة واقعًا رغم أنف السجان، تعلم وكتب وأنتج لنا وعيًا يرفض الانصهار، بل المواجهة اليومية في الأسر التي زادت وليد قناعةً بأن إمكانية المواجهة حتى في ساحة لا تتعدى الأمتار محددة بجدران وقضبانٍ هي أوسع وأرحب من كل شوارع الكرة الأرضية، بل وهي الأكثر دقة وشراسة، وهي معملٌ لإنتاج إرادة وصلابه وتجذير للفكرة التي ننتمي إليها، تحدى صهر الوعي والإرادة وحلق في قلمه إلى أفق الحرية لأسرار الزيت والسيف، حيث لا حدود لأحلام الثوريين، فهو الذي زادته سنوات الاعتقال الطويل صلابة ومنعة وإرادة ومواجهة واشتباكًا يوميًا على مدار الساعة مع السجان، فكان الإنسان المناضل الذي بممارسته الثورية منح مصداقية للفكر والثقافة والكتابة ببعدها الثوري الذي يرتبط جدليًا بنضالنا ضدّ الاستعمار الصهيوني، عبر الاشتباك والمقاومة، وليس الكتابة ترفًا من موقع المتفرج والمنظر كحال الكثير من «مثقفي المرحلة ومفكريها»، وليد سار على درب رفيقه كنفاني فكرًا وممارسة، واستطاع إظهار أجمل ما في المناضل، روحه الإنسانية الوقادة بالحب والفرح، وهل هناك أجمل من فرح منحنا إياه قبل أن يمنحه لسناء، فرحنا بميلاد.

ومنحنا أجمل ما يمكن أن نتعلمه من نضاله وإنسانيته، تلك العلاقة الجميلة التي نمت رغم قباحة الأسر وجدرانه وقضبانه، منحنا أن نشاهد ونعيش الحب النامي والمتشابك على قيد الحياة والأمل بينه وبين العزيزة سناء، علمونا نموذجًا في العلاقات الإنسانية البعيدة عن عالم استهلاك المشاعر، كما الطعام والملابس في عالم أوسلو البغيض وعالم الرأسمال الاستهلاكي الذي انتزع الإنسان من وجوده الإنساني إلى وجود أداتي، وكأنه مرةً أخرى يتغلّب على صهر الوعي بممارسة أعمق إنسانيًا ممّا نعيش.

وسناء التي التقطت أجمل ما في وليد عنف قوة العقيدة وصلابتها والرؤيا ورقة المشاعر وعنفوانها، فكانت حرّيته حريتها، فرحه فرحها، نضاله نضالها، سنوات طويلة، وهي تشاركه الأسر جسده هناك، وجسدها هنا ولكن إرادتهما وروحهما ونضالهما واحدًا موحّدًا انصهرا معًا، وتكاد لا ترى سناء إلا ووليد حاضر، وإن ذكر وليد فسناء عنوانه وصوته وحلمه وجيشه الذي لا يتعب ولا يكل في القتال لأجل حريته؛ مرة كي يرتبطا بعقد الزواج، ومرة كي يدشنا عائلة، فكان الزواج وكانت ميلاد، وبين الإصرار على بناء عائلة وحياة وبين متابعة الإضرابات المختلفة لوليد والأسرى ومن مدينة لأخرى ومن فلسطين من بحرها لنهرها بالمعنى الحرفي والفعلي، تنقلت وتتنقل سناء تنادي وتحرض وتناقش وتطالب وترد وتقاتل وتساند وتشجع وتدعم كل ما له علاقة بالأسرى وليس لوليد وحده، تفعل أي شيء وكل شيء كل شيء بلا استثناء، علاقة حب وارتباط ونضال صاغها وليد وسناء تجاوزت كل ما هو تقليدي ومعروف وممارس في العلاقات إلى نموذج ثوريّ ونضاليّ فاعلٍ وإنسانيّ رقيق المَشاعرِ، كم نحتاجه فيً عالم العَلاقات المادية غير الإنسانية المشوّهة التي تحكم المرحلة.

أن نعزل وليد عن سياقه النضالي والثوري، وصموده وفاعليّته النضاليّة في الأسر إلى اختصاره بلقب مفكّر هو إجحافٌ وتشويهٌ لكلّ ما يمثّله وليد، قُبل أيام تبادلت وسناء تساؤل رفاق حول تفضيل استخدام مفكر أم مناضل؟ فكان رد سناء بليغًا ومختصرًا قالت «إن لم يكن وليد مناضلًا فماذا يكون طبعًا هو مناضل أوّلًا وقبل أي شيء». جيد أن يراه البعض مفكرًا وهو كذلك، ولكن هذه «المفكر» وحدها تعني محاولة تجاوز البيئة والسياق الذي به ولأجله وليد كتب وأنتج ويعيش ويدفع يوميًا من حياته وحريته ثمنًا لكل ذلك، وما الإنسان والكتابة والإبداع إن لم تكن نتاج واقع يعيشه الكاتب، ومنه يستمد مادته لإنتاجه الفكري؟

اليوم وليد يصارع معركة الحياة والبقاء أمام المرض اللعين وإدارة السجون التي تستخدم المرض وسيلةً إضافيةً للتعذيب وللقتل غير المباشر، إرادته لم تخنه يومًا ولا أعتقد أنها ستخونه، فمثله يعيش النضال ممارسةً شخصيّةً يوميّةً عقائديّةً اختبرت فيها إرادته وصموده على مر سنوات الاعتقال الطويل وتجاوزت 37 عامًا، ولم تخنه يومًا، وخرج من كل معاركها قويًا منتصرًا هو ورفاقه الأسرى. أمّا اليوم يخوض معركة الجسد والمرض، يقاومه بكلّ إرادة مسلحًا بحبه للحياة وإيمانه بالانتصار ومعه سناء وميلاد وقلوب الآلاف من شعبه ورفاقه ومحبيه، وكلنا أملٌ ألا يخون الجسد إرادة صاحبه ورغبتها، وأن يعود إلينا معافًى وحرًا كما هو دومًا.

شكرًا وليد؛ لأنّك في سيرتك ونضالك منحتنا وعلمتنا درسًا في النضال والإنسانيّة، في حب البلاد والحرية التي هي المقابل. نحن أنانيون وطماعون ونرغب بالمزيد من هذا العطاء والإرادة ودروس المواجهة والتفاؤل والأمل؛ كي نكون أقوياء، ونظل على قيد الحلم بالحرية، نريدك بيننا، فيا أيّها المرض اللعين تمهّل وامنح للفرح وللأمل وللحرية وللقاء مكانًا لوليد بيننا.

نحبّك يا رفيق وننتظرك منتصرًا على المرض كما عهدناك دومًا مناضلًا ثوريًا منتصرًا على السجّان.

وليد دقّة ... حكايةُ تحدٍّ جديرةٌ بالتأمّل

بقلم الأسير : كميل أبو حنيش
عضو المكتب السياسي للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين،
أحد قيادات الحركة الوطنيّة الأسيرة
سجن رامون/ فلسطين

أظهرَ الأسيرُ الفلسطيني وليد دقة، مقدرةً هائلةً في تحدّي السجن، واستيلاد كلّ ما هو ثاقبٌ في السخرية من السجّان ووسائله التي تلامس الألعاب الصبيانيّة. وليد الذي أمضى حتى الآن أكثر من سبعةٍ وثلاثين عامًا في السجن، ولم يتبقَ له سوى أقلّ من عامين، يرقد حاليًا على سرير المرض في عيادة سجن الرملة في محطّته الأخيرة قبل الانعتاق من عالم السجن، ليعانق «سناءه» و«ميلاده» اللتين كانتا أسطورتين متجسّدتين، ويجسّد ثلاثتهم تجربةٌ إنسانيّةٌ فريدةٌ في دلالتها ونموذجيتها، وإصرارها على البقاء وهي تختصرُ الحكاية الفلسطينيّة بأوجاعها وأحلامها، ورحلتها المتعبة.

آمن وليد وسناء بالحب، على الطريقة الفلسطينيّة، بإنجاب ميلاد الابن والابنة، لكن عالم السجن المتربّص بالحلم الفلسطيني، أعاق مثل هذا الاحتمال لسنوات، فَشكّل إلى جانب قوانين البيولوجيا الصارمة، وجدار الزمن السميك، إحدى الاستحالات أمام ولادة الحلم، بيدَ أنّ القدر الفلسطيني الحافل بألوانه الفسيفسائيّة أصرّ أن يقف إلى جانب وليد وسناء، ليهديهما «ميلاد»، ولتنبئ عمليّة ولادتها، بميلاد زمنٍ فلسطيني آخر، عنوانه تحدّي عالم السجن حتى الرمق الأخير، فانتصر وليد في ربع الساعة الأخير من عمر قيده الطويل، بعد أن تمرّد على زمنه الموازي واخترق جداره؛ ليلامس الزمن الإنساني في عالم ما وراء الجدران.

أما وليد المثقّف، فقد تحدّى السجن ببضعة مؤلفات أدبيّة وفكريّة ثاقبة وعميقة، فمن مسرحية الزمن الموازي التي كتبها وأصبحت تعرض في مسارح المدن الفلسطينية في الداخل المحتل، محوّلًا إياها إلى كابوس يقضّ مضاجع المحتلّين، فلم يتوانوا عن مطاردتها شبحًا عندما أوصلت رسالتها إلى الوجدان الإنساني. أمّا مُؤلَف «صهر الوعي» فقد كشف من خلاله وليد، عن أحطّ الأساليب وأحقرها التي تتّبعها سلطة السجن، في استلاب الوعي، فكان مؤلّفًا فريدًا في فضح وسائل التعذيب الحديثة التي تستهدف أعماق الأسير الفلسطيني وإنسانيّته وانتمائه الوطني.

وتُمثّل حكاية «سر الزيت» شغف وليد الدفين، باستيلاد «ميلاد» من قبضة المستحيل، فطاردت سلطة المُستعمر، حكاية أطفال، وعزلت صاحبها، وحاولت تخريب حفل إطلاقها، لكن القصة انتشرت، وحظيت باهتمام حافل، واشترطت سلطة القمع على وليد أن يحجم عن نشر قصّة «سر السيف» مقابل إنهاء عزله. ووليد الذي أتقن لعبة إغاظة سجانه وإثارة أعصابه، وكيفيّة التحايل على الزمن انحنى قليلًا أمام العاصفة، ولم يلبثْ أن أطلق تلك القصة، محوّلًا إياها إلى تحدٍّ جديد، وهكذا انتصر وليد مرّةً أخرى على سجّانه بقصّة أطفال.

ولأنّ وليد دأب على قهر السجن وفكرته، سينتصر انتصاره المدوي على السجن، بعد أن ينعتق من وراء أبوابه الموصدة، ويكتب تجربته الطويلة مع السجن، ويروي لكلّ من يهمّه الأمر، كيف أخفقت الوسائل الشيطانيّة في صهر وعي الفلسطيني، وكيف اخترق جدار الزمن الموازي، وكيفيّة الانتصار على دولة «إسرائيل الخارقة» بقصّة أطفال.

وليــد دقّــة
صانـعُ الحياة ومجـزرة الأرواح
خـلـفَ الـجـدران العاليـــة

بقلم الأسير : منذر خلف مفلح
عضو اللجنة المركزيّة العامة للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين
ومدير مركز حنظلة للأسرى والمحرّرين
سجن رامون/ فلسطين

تمتدُّ يدُ المحتلّ الغاشم لتطال بعدوانيّتها وإجراميّتها أبناءَ شعبنا الفلسطيني وأرواحهم، فأينما وُجد الفلسطيني فهناك آلة موتٍ، هم الصهاينة ابُتلي بها الشعب الفلسطيني، الذي ما زال وبكلِّ عزيمةٍ وإصرارٍ، وعلى مدارِ أكثر من قرنٍ يحارب البلاء ويقاتله، بل ويعيد التأكيد على الثقة بالانتصار على هذا العدو القاتل بكلّ إصرارٍ دونَ يأسٍ أو كللٍ، أو ملل.
يدُ موتٍ وخرابٍ ودمارٍ هي يدُ الاحتلال الصهيوني لفلسطين، هي اليد ذاتها التي أنبت الفلسطيني مقابلها يد الحياة، يدٌ حرفيّةٌ لصناعة الحياة ليصبحَ الفلسطيني صانعَ الحياة، أمامَ صهاينةِ الموت .

معادلةٌ فرضها التحدّي والزمن أمامَ هذا العدو، ولم يكن أكثرَ بصيرةً وتأكيدًا على مفهوم صنّاع الحياة سوى الأسرى في مواجهة السجّانين، الأسرى الذين تقبضُ على أرواحهم يدُ الموت الصهيونيّة في كلّ لحظةٍ وفي كلّ صيد، ولكنّهم ينبتون من أرواحهم المهدّدة بالموت والحياة والميلاد ليعيدوا الإنولاد، في كلّ لحظة، وبعد كلّ موت، بل وقبل كل موت، ليؤكّدوا لأنفسهم وللعالم أنّهم يمتلكون سرّ الحياة، هي فلسفة الأسرى، فلسفة وليد، فلسفة الميلاد التي زرعها الراحل الفادي السيد المسيح بموته الفلسطيني، لتعود ومنذ قرونٍ عبر صراع الفلسطيني صانع الحياة مع أعدائه، فكيف لصانع الحياة، أن يموت؟ وإن فاجئنا جميعًا الموت، ذات الموت الصهيوني الذي يطارد الفلسطيني في كلّ مكان، وما من مخرج تتسلل منه الحياة، إلا لتعود.. فالحياةُ الحقيقيّةُ لا تنبتُ إلا بجذورٍ فلسطينيّة لا تستسيغُ طعم الحياة إلا بالأرواحِ الفلسطينيّة؛ لأنّها أرواحٌ أتلفّت مع الحياة، تقدّم القرابين لنحيا. فلن تكون المجازر المقترفة بحقّ روح الأسير وليد دقة وجسده وحياته، الذي كان على موعدٍ سابقٍ مع مجزرة جنين 2002، ومقاومتها عبر كتيبة «يوميات المقاومة في مخيم جنين» لتتألف يوميات حياته، وآلامه، ومرضه، مع يوميات المجزرة والمقاومة في ذات المخيم بعد عشرين عامًا وأكثر.

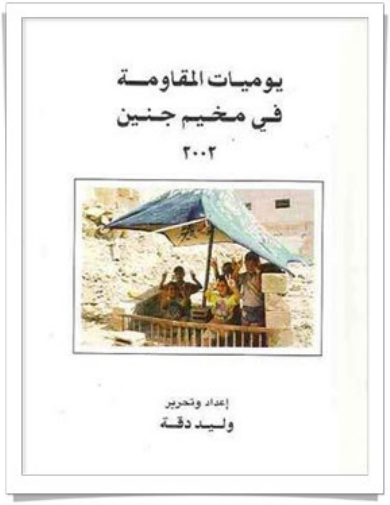

ورغم هذه المجازر وبشاعة الموت الصهيوني المنزرع في أرضنا، يحاول الانزراع في أرواحنا، إلا أن روح المقاومة ستبقى؛ لأنّها أرواح الفلسطينيين، أدركت أنّها روح مقاومة، روح للحياة وصناعتها في رسالة خالدة يحملها الشعب الفلسطيني عن أسلافهم، عبر تجربة مسيحهم الفلسطيني في رسالة للعالم وللبشرية مفادُها أنّنا نحارب قوى الشر والموت نيابةً عن العالم التائه الصامت، بأرواحنا نفدي حياة البشرية لنقتلع جذور هذا الكيان القاتل، مدركين جميعًا، أنّ الإيمان سيأتي لاحقًا، سيأتي المؤمنون لينتصروا لأرواحنا لتنتصر إرادة الحياة على ظلام كيان الموت الصهيوني كما انتصر المسيح على قاتليه منذ قرون، سيكرّر الفلسطيني في كل الوطن الانتصار، وسيكرر وليد دقة بانتصار روحه على السجان، وسيدق صوت الميلاد ليس فحسب تقويمًا للزمن يذكّر العالم بمن هو الفلسطيني، بل سيدق صوت ميلاد وليد دقة أبواب الحياة والزمن، سيدوي رعدًا للانتصار القادم لوليد على القتلة ومحبي الموت والدمار الصهاينة.

ستنتصر يا وليد.. ستنتصر وستنهار الجدران أمام إرادة الحياة والانبعاث.

وليد دقة..
رمزُ فلسطينَ وشاهدُها

خاص الهدف

تكثّف قضيّةُ الأسرى الفلسطينيين حقيقةَ الصراع مع العدو الصهيوني، سواءً لجهة هُويّة طرفي الصراع وطبيعتها وما تدور حوله المواجهة منذ قرن من الزمان، أو لجهة الإنسان المستهدف، كما الأرض، من هذا الصراع.

وليد دقّة أسيرٌ فلسطيني، نموذجٌ واحد، وبعيدًا عمّا يحملُهُ الرجل فكريًا وإنسانيًا، أو رمزيّته ومكانته القياديّة في صفوف الحركة الوطنيّة الأسيرة، أو بين أبناء الشعب الفلسطيني، وفقط بالتركيز على ما واجهه باعتباره إنسانًا قاتلَ لأجل حريّة شعبه ووقع في أسر عدوّه؛ تحاول المنظومةُ الصهيونيّةُ بأكملها منذ اليوم الأوّل لأسره وحتّى اللحظة قتل كلّ معنى مثله هذا الإنسان؛ حرّيته؛ عقله؛ حقّه في الزواج؛ حقه في الإنجاب؛ حقه في العلاج... تقف اليوم المنظّومة الصهيونيّة برمّتها لمنع مريض بالسرطان من الحصول على العلاج، ومنع أسير أنهى محكوميته من الخروج من السجن؛ محاولةً أن تخبر كل فلسطيني أن النضال ضدّها يعني الموت بأبشع طريقة ممكنة، فيما يخبرنا وليد دقة يوميًا منذ اليوم الأول من أسره، عن الحياة والحرية ومعناها، ويمارس بطرقٍ مذهلة كلّ معنى للحياة؛ متحدّيًا قرار القهر الصهيوني ومحاولات الإخضاع.

ما تفعله المنظومةُ الصهيونيّةُ ضدّ وليد دقة، هو امتدادٌ آخرُ لسياستها الموجّهة ضدّ الوجود الفلسطيني مجتمعًا، وضدّ كلّ إنسانٍ فلسطيني، سعيًا للقهر والإخضاع وفرض الاستسلام؛ فالوقوعُ في الأسر في حقيقته نهايةٌ لمعركة الآسر وبدايةٌ لمعركة الأسير، حيث يفترض أن الآسر أخيرًا، قد تمكن من تحييد الخطر المباشر الذي يمثّله الأسير، ولكن في حالة المنظومة الصهيونيّة يختلف الأمر؛ ليكون الأسر بدايةً لمعركة وحرب شاملة تشنّها المنظومة الصهيونيّة بكلّ أدواتها لإخضاع الأسير، وكي وعي شعبنا من خلال التنكيل بهذا الأسير.

لكن العنصر المحوري في قضيّة الأسرى؛ يبقى دومًا هو في استعداد كلّ من هو خارج جدران السجن لرفض أو قَبول أن تمتدّ جدران السجن إليه وتخنقه بداخلها؛ فالخشيةُ من السجن أو من مواجهة ذات المعاناة التي يواجهها الأسير هو قيدٌ وسجنٌ لا يقل سوءًا أو وحشيّةً وقدرةً على الإيذاء من السجن الأساسي، والاستعداد لدفع هذا الثمن والانحياز لحريّة الأسرى وحقوقهم هو اختيار للحريّة، وتغلب على القهر، وهدم لجدران السجن.

إنّ موقع التضامن مع الأسير، مع وليد دقة، مع الأسرى في العزل، مع كل أسير، لا يمثّل انخراطًا في المعركة ضدّ العدو الصهيوني، بل انحيازٌ لقيم إنسانيّة أساسيّة، وإذ يكون الفلسطيني والمناصر لقضيّة فلسطين ملزمًا بهذا الواجب، فإنّ حدود هذا الواجب يجب ألا تقتصرَ على الفلسطينيين وأنصار قضيّتهم وحسب، ولكنْ على كلّ إنسان في هذا العالم.

إنّ هيئات ومؤسّسات ودولًا تسجّلُ اليوم في رصيدها وصمات عار جديدة، باستمرارها في الصمت والتغطية على هذه الجريمة الصهيونيّة، كما تغاضت تاريخيًا عن سجلٍ طويلٍ من جرائم هذا الكيان، وأسهمت في حماية مشروع الغزو الوحشي وتسليحه منذ يومه الأوّل.

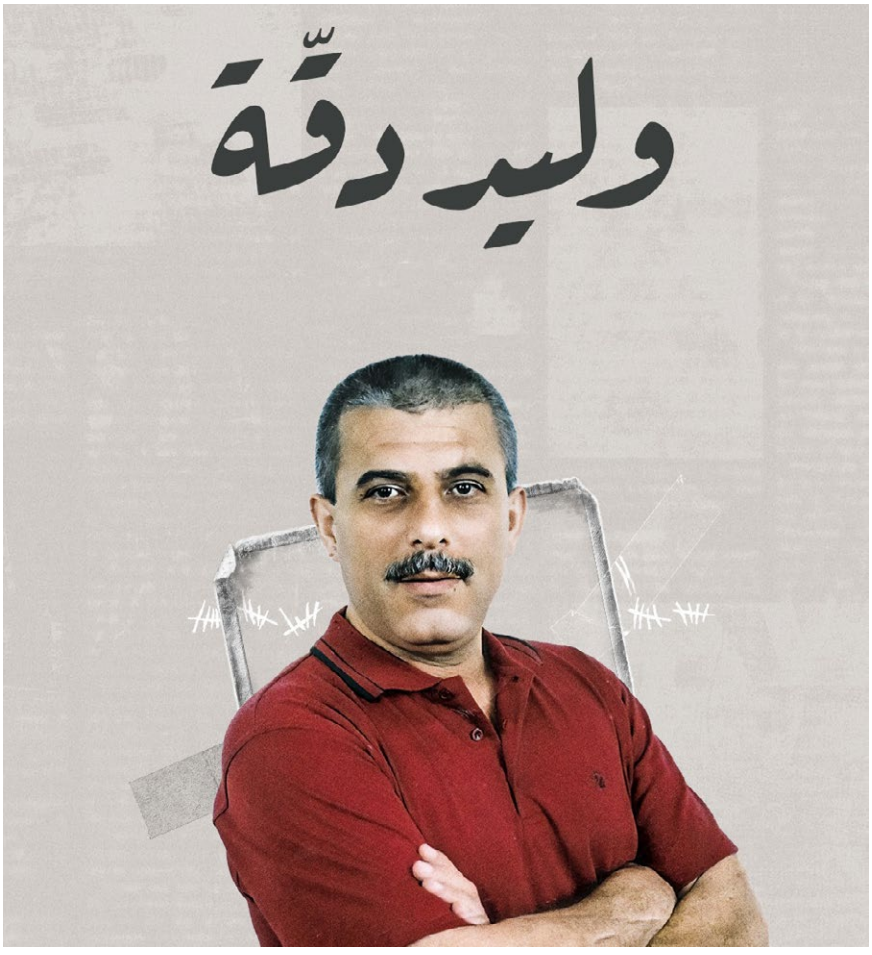

رسائلُ وليد دقّة ... والانبعاث

مركز حنظلة للأسرى والمحرّرين / فلسطين

وليد دقّة؛ الإنسانُ الذي يواجه الفاشيّة، ودولةَ غيرَ الإنسانيّة وقوانينها العنصريّة، سينبعث، بل إنّه قد انبعث بإصرار الأحرار حول العالم، انبعث رسالةَ إنسانٍ يوقّعُ بآلامه على وثيقة الإدانة للمجرم الصهيوني، ينبعثُ مصرًا على مقارعة عدوّه حتّى الرمق الأخير، فإذا كان لا بدّ من الموت، فإنّه يصرُ على تقديم حياته وثيقةَ إدانةٍ تاريخيّة.

وليد دقّة المفكّر، يُصرُّ حتّى آخر نفسٍ قد يلفظه مما تبقى من رؤيته على بثّ فكره المعادي للعنصريّة والنازيّة والفاشيّة؛ ليؤكّد للعالم الذي يتدفأ على حطب إنسانيّته، متناسيًا برودة الصمت الحقوقي والقانوني والدولي على العدل والإنسانيّة، التي ينادي بها وليد دقة هناك، في ظلّ إصرار حكومة الفاشيّين على دفنه حيًا.

وليد دقّة المؤمنُ حتى النخاع، المريض بسرطانهم، يعيد التأكيد وهو مصلوبٌ على الصليب ذاته، لذات المجرم الممتد في جريمته التاريخيّة ضدّ كل ما هو فلسطيني، وضدّ كل ما هو حضاري وإنساني على قيمه في مواجهة القاتل.

وليد دقة انبعث قبل الرماد، وسيكرّر فعل الانبعاث بإصراره على الحياة، وسيحطّم بضعفه ووهنه جدرانهم وسجونهم، وموتهم الذي يزرعونه في جسد كل أسير، يبثوه بأنفاسهم؛ لأنّهم حلفاء الموت، ومثقفي القتل والجريمة، ومهندسي الدمار الإنساني. في أبلغ رسالة له، وهو يعيدُ طرق جدران سجنه وزنزانته، وهو ما يزال مؤمنًا برسالة غسّان كنفاني، ويمارسُ إيمانه بطرق جدران الخزان.

والرسالة الأخيرة، هي لشعبنا والأحرار، أعيدوا لوليد صدى طرقاته، حتى ينهزم الصمت الدولي أمام الجرائم الصهيونيّة.

سجن مجدوّ ومعركة جنين الأخيرة

مركز حنظلة للأسرى والمحرّرين / فلسطين

طالت قرقعةُ المجنزرات وصواريخ الطائرات والاقتحام المدمّر لمخيّم جنين سجن مجدو، الذي يعاني هذه الأيّام الحرجة من إجراءات السجّان الصهيوني، وبقيّة السجون الأخرى.

فقد استقبل سجن مجدو بعد معركة جنين الأخيرة أكثر من مائة معتقلٍ من المخيّم، حيث تم تفريغ قسم (6) في السّجن ذاته، لزج الأسرى به؛ الأمرُ الذي خلق حالةً من عدم الاستقرار في السجن بعد تخوّف السجّان الصهيونيّ من ردّات فعلٍ محتملة للأسرى، فوزّعهم على الأقسام؛ ما أدّى لحالةٍ من الفوضى والاكتظاظ داخل الغرف، ورافق ذلك تقليل كمّيات الطعام، والمراوح داخل الغرفة في ظلّ هذا الصيف الخانق، كما عمد السجّان الصهيوني لسحب (الملاعق) في إشارةٍ ودلالةٍ واضحتين على تحوّل المعلقة في يد الأسير الفلسطينيّ لسلاح مقاومة، وإشارةٍ لعدم قدرة السجان على السيطرة، وتخوفه من تكرار شباب جنين والأسرى معركة الحرية (2) عبر استخدام المعالق.

وتشير المصادر من داخل السجن أن هذه الحالة تنذرُ بانفجارٍ وشيكٍ محتملٍ في سجن مجدو سيجد ارتداداته في بقيةٍ السجون، وربما تنعكسُ على الخارج، في الوقت الذي بدأت فيه الأصواتُ داخل السجون المنادية بضرورة مواجهة الإجراءات الصهيونيّة بحقّهم؛ ما يجعل احتمالات المواجهة مرتفعةً في قادم الأيام، خاصةً أن هذه الارتدادات وصل مداها لسجن النقب الصحراوي في الأيام القليلة الماضية.

في الذكرى الـ 61 لاستقلال الجزائر..
الاقتصادُ قبلَ السياسة!

محمد صوان
كاتبٌ سياسيٌّ فلسطينيّ/ تركيا

في الخامس من شهر تموز عامَ 1962، وبعد 132 سنةً من الاستعمار الاستيطاني الإحلالي، لم تنتهِ علاقةُ الجزائر بفرنسا فحسب، بل انزاحت تلك العلاقةُ عبرَ الزمنِ الذي تلاه، لتطرحَ أسئلة العلاقات من جذورها بين دولتي الاستقلال والاستيطان.. وهل حقّقت الثورةُ تحريرَ الوطن، أم إنّها اكتفت باستقلاله عن محتلّه؟ تتداخلُ في المفهومين تفاصيلُ «مكر التاريخ» والعلاقات الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة معًا.

لم تحمل الثورةُ الجزائريّةُ أيّ صبغة أيديولوجيّة، بل كانت نتيجةَ تراكماتٍ فجّرتها سنواتٌ مديدةٌ من النجاحات والتضحيات. كان محرّكَها النضالُ السياسيُّ والجماهيري، والوعود الفرنسيّة الكاذبة، وكانت جدليّة «المثقّف والعنف الثوري» ترفًا فكريًّا لم يتح لكوادر الثورة الخوض فيه حينذاك، بالرغم من طغيان المدّ التحرّري للبلدان الأفرو-أسيوية في تلك المرحلة المتّسمة بانعتاق الشعوب المستعمرة. وهذا لا يعني أنّ الثورة انطلقت من «العدم الفكري» أو أنّ المثقّف غيرُ معنيّ بالعنف الثوري، بل كان للثورة روافدُ شبابيّةٌ وطلابيّةٌ مثقّفةٌ زوّدتها بالكوادر، وجعلتها تتحوّل من «العفويّة الثوريّة» إلى التنظيم المنضبط والمتماسك للثورة فيما بعد.

تتيحُ المسافةُ الزمنيّةُ التي تفصلنا عن انطلاقة الثورة الجزائريّة «61عامًا» فرصةً حقيقيّةً لكتابة التاريخ الصادق للثورة، بعيدًا عن الإفراط في عاطفة التمجيد، أو التعالي القومجي، وتطرح أمام الباحث الآن فرصة لقراءة متأنيّة في تفاصيل الثورة، بتضحياتها وأمجادها، بعثراتها وأخطائها، وعلى الباحث في حقل علم الاجتماع إدراك أنه أمام منعرج تاريخيّ حاسم في مصير الشعوب العربيّة — الجزائريّ خاصّة - وليس أمام مجرّد حربٍ محدودةٍ في الزمان والمكان.

العلاقات الجزائريّة — الفرنسيّة:

واضحٌ أنّ العلاقات الجزائريّة - الفرنسيّة مرّت وتمرُّ بأسوأ أحوالها، وذلك على خلفيّة التصريحات المستفزّة، التي يطلقها مسؤولون فرنسيّون، إثر إصدار الرئيس الجزائري عبد المجيد تبون مرسومًا يقضي «بأداء النشيد الوطني كاملًا في المناسبات الرسميّة، والتأكيد على إدراج الفقرة الثالثة منه، التي تحفّظت عليها فرنسا؛ لأنّها تنصّ: «يا فرنسا قد مضى وقت العتاب/ وطويناه كما يطوى الكتاب/ يا فرنسا إن ذا يوم الحساب/ فاستعدي وخذي منا الجواب/ وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر/ فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا»!

الفقرة أعلاه إشكاليّة، وسبق أن جرى التغاضي عنها، خاصةً في عهدي الشاذلي بن جديد وعبد العزيز بوتفليقة!

على الرغم من الجدل الواسع الذي أثاره المرسوم الرئاسي؛ فإنّ مسؤولين جزائريّين يعتقدون أنّه أوجد مسافةً لتحجيم الجانب الفرنسي، وشكّل بدايةً لتغيير جذريّ في التعامل معه. لكنّه في المقابل استُدعي ردّات فعلٍ غاضبةٍ من مسؤولين فرنسيين، وقد عبّرت وزيرةٌ خارجيّة فرنسا (كاترين كولونا)، عن استيائها من إعادة ما وصفته «قد تجاوزه الزمن»، ورد عليها نظيرها الجزائري (أحمد عاطف) ساخرًا بالقول: «إنّ بعض المسؤولين الفرنسيين أصبحوا

يستغلون اسم الجزائر لأغراض سياسيّة».

وفي الأثناء، دعا رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي (جيرارد لاريشر) إلى إعادة النظر في الاتفاقيّة الفرنسيّة — الجزائريّة عام 1968، بشأن تسهيل دخول الجزائريين لفرنسا، وإقامتهم فيها بذريعة أن الاتفاقية أبرمت عندما كان عدد سكان الجزائر لا يتجاوز «10 ملايين نسمة، وكانت فرنسا آنذاك بحاجة إلى اليد العاملة الجزائرية، وتغيّرت الأوضاعُ كثيرًا في المرحلة الراهنة». في المقابل قال الرئيس تبون أكثر من مرة: «إن إلغاء الاتفاقية سيكون بمثابة إعلان حرب على بلاده»؛ نظرًا إلى أهمّيتها بالنسبة للجزائر.

تاريخُ العلاقات الجزائريّة - الفرنسيّة، حافلٌ بالأزمات والتوترات، على الرغم أنّه في الآونة الأخيرة حملت معها مراهناتٍ على تغييراتٍ تخفّف من وطأة حمولة الماضي، حيث وعد الرئيس الفرنسي ماكرون، ببناء علاقاتٍ سليمةٍ مع الجزائر تنهي التوتر، وتحقق نوعًا من الثبات، وقال في زيارةٍ سابقةٍ إلى الجزائر في شباط 2017، أنّ «استعمار فرنسا للجزائر الذي استمر 132 سنة، كان جريمةً ضد الإنسانيّة»؛ الأمرُ الذي رحّب به الرئيس الجزائري السابق عبد العزيز بوتفليقة، الذي راهن على أن

ماكرون سيغير كثيرًا في سياسة فرنسا تجاه الجزائر.. لقد عاد التوتر إلى علاقات الدولتين، عند تولي عبد المجيد تبون في كانون الأول 2019 الرئاسة. في ظل الموروث التاريخي الاستعماري بينهما، والاعتبارات الأمنية، والتوازنات الاستراتيجية، خصوصًا بعد تصريح الرئيس ماكرون المستفز «أن لا وجود لأمة اسمها الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، وأن الجزائر قامت بعد استقلالها عام 1962 على منظومة ريع الذاكرة الذي كرسه الجنرالات فيها».. بعد ذلك، تمكن مسؤولو الدولتين من إنهاء مرحلة جفاء دامت سنوات عديدة، سمحت بأن يزور الرئيس ماكرون الجزائر في شهر آب 2022، وجرى الاتفاق خلالها على تعزيز اللقاءات والمشاورات الرفيعة المستوى بينهما، وفق عقيدة جديدة عنوانها «الندية والاحترام المتبادل». وبالفعل استؤنفت العلاقات القنصلية بين الجزائر وفرنسا في 12 كانون الأول 2022، وعاد منح التأشيرات إلى الجزائريين لمعدله الطبيعي، فضلًا عن عقد مؤتمرات ولقاءات بين رجال أعمال ومستثمرين من البلدين في مجالات الطاقة، التعليم، الصحة والرياضة. لكن التوتر سرعان ما عاد، حيث استدعت الجزائر سفيرها في باريس للتشاور على خلفية قضية الناشطة الجزائرية - أميرة بوراوي - التي تحملُ الجنسيّة الفرنسيّة أيضًا، التي تمكّنت من عبور الحدود الجزائريّة إلى تونس — بطريقة غير شرعيّة - قبل أن تتابع طريقها إلى باريس. بعدها بقيت العلاقات محل جذب وشد، قبل أن تصدر الرئاسة الجزائرية في نيسان الماضي بيانًا أعلنت فيه عن زيارة رسميّة ستقود الرئيس تبون إلى باريس منتصف حزيران 2023، لكن الرئيس تبون ذهب إلى موسكو بدلًا من باريس.

لم تكن العلاقاتُ الجزائريّةُ - الفرنسيّة يومًا طبيعيّة، ولم تحكمها أعراف دبلوماسيّة تقليديّة.. كما أن الذاكرة التاريخية للجزائريين حيال الفترة الاستعمارية تضغط بقوة عليهم، إضافةً إلى مسائل التدخل في شؤونهم الداخلية، وما تعدّه الحكومة الجزائرية «دعمًا فرنسيًا لنشاطات معاديةٍ للجزائر من الأراضي الفرنسيّة»، وكذلكَ الدعم الفرنسي للمغرب فيما يتّصل بقضيّة الصحراء (البوليساريو)!. والخلافات في ملفّات إقليميّة أخرى، مثل «مالي والصومال».. والأهم التموضع الجيوسياسي لكل من الدولتين، في محورين متناقضين «الروسي - الصيني - التركي - الإيراني» من جهة الجزائر، «والأوروبي - الأمريكي - الإسرائيلي» من جهة فرنسا.

وأبرز المؤشّرات على زيادة حدة التوتر أن جولة وزير الخارجية الجزائري - أحمد عاطف - الأولى إلى أوروبا مؤخّرًا، لم تشمل فرنسا؛ الأمرُ الذي يدخلُ في سياق استكمال توجه الجزائر نحو البحث عن عقد شراكات سياسيّة واقتصاديّة مع دول أخرى، غيرِ فرنسا، سواءً في أوروبا «إيطاليا وألمانيا والبرتغال» أم في الشرق «روسيا والصين وتركيا وإيران» وفي كل الأحوال لن تصل الأمور إلى حد القطيعة بين البلدين!

الأولويات الجزائريّة:

تُظهرُ الجولةُ الأخيرة من الزيارات التي قام بها الرئيس عبد المجيد تبون إلى كلّ من: روسيا والصين والبرتغال وإيطالياً وتركيا والكويت وقطر، ومجموع الفعاليات المرافقة لهذه الزيارات؛ وجودَ تحوّل في الأهداف الأساسيّة من جولات الزيارة الخارجيّة، التي باتت تعدّ الاقتصاد وشراكات التنمية والاستثمارات — العنوان الأساسي - أولويةً قبل مسائل السياسة والسلاح، وتجري الحكومة الجزائرية إعادة تقييم اقتصاديّ وسياسيّ لعلاقاتها الإقليميّة والدوليّة في المرحلة الحالية، وتوضح خريطةُ الزيارات التي قام ويقوم بها الساسة الجزائريون وجودَ توجه نحو إعادة بناء علاقات الجزائر وشراكاتها — في الفترة المقبلة - على أساس المصالح الاقتصادية والمنافع المتبادلة «رابح - رابح» بحثًا عن روافع تسعف الاقتصاد الجزائري في مرحلة تحوّله عن «الريع النفطي».

أما زيارة الرئيس تبون الأخيرة إلى موسكو التي تعدّ علاقتها شديدة الوضوح مع الجزائر من حيث اقتصارها على مجال التعاون العسكري، فإنّها وفّرت فرصة مشاركة الرئيس تبون في المنتدى الاقتصادي لسانت بطرسبورغ 2023، حيث ألقى خطابًا ضمنه «عدم الحاجة إلى الحروب والسلاح». إضافةً إلى سلسلة الاتفاقيات التي وقعت مع الجانب الروسي حول التعاون والشراكة في قطاعات حيوية، كالذكاء الاصطناعي والإنتاج الدوائي والتعليم العالي والطب والزراعة وغيرها، كما التقى رجال الأعمال الروس ودعاهم للاستثمار في الجزائر، كل ذلك يشير للاستحقاقات الاقتصادية التي تتطلع إليها الجزائر بالشراكة مع روسيا.

ويؤكّد الخبير الاقتصادي وعضو مجلس الأعمال الجزائري مراد ملاح الذي رافق الرئيس تبون في جولة زياراته الأخيرة: «أنّ المتتبّع لمحطّات الزيارات من موسكو إلى بكين مرورًا بأنقرة وروما ولشبونة وبرلين، يجد قاسمًا مشتركًا هو استهداف مؤسّسات وشركات بعينها»، ويستطرد:» يؤكّد هذا أن محاولةً جديّةً لتحديد احتياجات الجزائر في المرحلة الحالية، ومجالات التعاون والشراكة مع كل طرف، إن لم يكن معهودًا هذا التركيز والاستهداف للشركات والمؤسّسات الاقتصاديّة بهذا الشكل الحيوي، حيث بات هناك تعاطٍ و توجّهاتٌ اقتصاديّةٌ للزيارات الرئاسية التي يسبقها معرفةٌ ودراسةٌ للشركات الأجنبية».

ويعدُّ الخبير ملاح أن «زيارات الرئيس تبون إلى الدول الكبرى تحمل رسائلَ واضحةً مفادُها أنّ الجزائر ما تزال وفيّةً لمحور تحالفاتها وصداقاتها وشركائها التاريخيين، لكنّها في الوقت نفسه تختار حلفاءها الاقتصاديين والسياسيين بعناية، وتعزّز تفاهماتٍ جديدةً خارج المشهد النمطي القديم، الذي كان يدور في فلك المؤسّسات الفرنسيّة التي هيمنت لعقودٍ على السوق الجزائريّة».

سؤال محوري ..
لماذا هُزمنا ؟ ولماذا وصلنا إلى ما وصلنا إليه من تبعيّةٍ وتخلّفٍ وخضوع ؟

غازي الصوراني
مفكّرٌ وباحث/ فلسطين

إنّه السؤالُ المحوريُّ الكبيرُ أمام الوطنيين التقدّميين في الوطن العربي كافةً: لماذا هُزمنا؟ ولماذا وصلنا إلى ما وصلنا إليه؟ الجوابُ - باختصارٍ مكثّف - يكمنُ في الأنظمة العربيّة وأجهزتها الطبقيّة والأمنيّة، التي أسّست وراكمت حالةً عميقةً من مظاهر التبعيّة ومؤشّرات الفساد والاستبداد والتخلّف الاجتماعي والاقتصادي، واستغلال ثروات شعوبها، مثلما كرّست كلّ وسائل القهر والقمع الإجراميّ لحساب مصالح حكّامها الذين — في معظمهم - وجدوا في التحالف الإمبرياليّ الصهيونيّ «ملاذهم الآمن» وخضعوا لشروطه ومقتضياته، على حساب أماني شعوبهم وتطلّعاتهم، حيث استطاعت الحركةُ الصهيونيّةُ ودولتها بعد (75) عامًا على النكبة، وبعد (56) عامًا على هزيمة حزيران، أن تحقّق العديد من الأهداف في ظل التحالف الاستراتيجيّ بينها وبين الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

فلقد تمكّنت دولة العدو الإسرائيلي (ومن خلال الدعم المادي والسياسي الأمريكي على وجه الخصوص) من أن تتحوّل اليوم إلى دولة إمبرياليّة صغرى في الشرق الأوسط، كما أصبحَ الوضع العربي الرسمي في حالة ينظرُ فيها إلى القضيّة الفلسطينيّة باعتبارها عبئًا ثقيلًا على كاهله يسعى إلى الخلاص منه طالما كان في ذلك ضمانةٌ لمصالح النظام الحاكم وشرائحه الطبقيّة (البيروقراطيّة والكومبرادوريّة).

على أي حال، لم تكن المراجعةُ للهزيمة الحزيرانيّة بمستوى الحدث: معظم المراجعات بُنيت على أن سبب الهزيمة مرتبطٌ بالمسائل العسكريّة، ولم تُبنَ الرؤيةُ على أن الهزيمة هي هزيمةٌ لبنيةٍ كاملة؛ سياسيّة، عسكريّة، اقتصاديّة، اجتماعيّة، ثقافيّة... من هنا جرى تقليص «الهزيمة» إلى «النكسة»؛ الأمرُ الذي أنتج، بلغة علماء السياسة، «أنظمة الخوف»، التي يقف على رأسها مرجعٌ وحيدٌ لا يخاف إلا من شعبه، وعلى شعبه أن يرهبه وأن يخاف منه، وكان على هذه «الأنظمة الاستثنائيّة» أن «تحارب» السياسة وحريّة الأحزاب السياسيّة وحريّة القول، فقد شكّلت حرب حزيران / يونيو، في لحظة أولى، هزيمةً للأنظمة العربيّة، ومثّلت، في لحظة تالية، هزيمةً للشعوب العربيّة، المحاصرة بالإحباط والأحكام العرفيّة؛ ذلك أنّ في الهزيمة انتصارات للأنظمة التي قاتلت ولم تقاتل، وتحوّلت إلى قوًى تابعةٍ أو خاضعةٍ

مستسلمة، أو أضيفت إلى قائمة أنظمة الرجعيّة، ومن ثَمّ فإنّ الوضع الشاذّ «للأمّة العربيّة» في تعاملها مع الهزيمة، ما يعارض دروس التاريخ واجتهادات المؤرّخين: فمن المفترض أنّ الهزيمة تستنهضُ الإرادة القوميّة الجماعيّة، وهو أمرٌ لم يتحقّق؛ بسبب انهيار المشروع القومي، قبل الهزيمة وبعدها».

لقد أسّست هزيمة 5/ حزيران/67 لمرحلة جديدة في الوطن العربي كلّه، عنوانُها مشهدُ تفكّك النظم الوطنيّة التقدّميّة، الذي تجلّى بعد رحيل القائد الوطني/القومي جمال عبد الناصر، ومن ثَمّ بداية عصر الانفتاح وانهيار المشروع القومي، وتكريس التبعية والخضوع للغرب الرأسمالي بصورةٍ غير مسبوقة.

وفي مثل هذا المناخ، كان من الطبيعي أن يجدّد التيّار الديني عمومًا، وحركة الإخوان المسلمين خصوصًا، نشاطهما بعد هزيمة حزيران التي كانت مصدر ارتياح للعديد من قادة الإخوان المسلمين. وفيَ الواقع، فإنّ عودة جماعات الإسلام السياسي، كان نتيجةَ تضافرِ مجموعةٍ من العوامل السياسيّة والاقتصاديّةَ والاجتماعيّة والفكريّة، ومن بين هذه العوامل، سيادة مظاهر الاستبداد وافتقاد الحرّيات قبل هزيمة حزيران وما بعدها، وتعثّر مشاريع التنمية، وتنامي الاستقطاب الاجتماعي، وانتشار الفساد، وتوسّع مساحات الفقر وتفاقم البطالة وتراجع فرص العمل، وتنامي الشعور بالإحباط واليأس في صفوف الجماهير الشعبيّة.

ولذلك كانت هزيمةُ حزيران 1967 بداية النهاية لمرحلة التحرّر القومي الديمقراطي، خلقت المناخ العام، والمقوّمات اللازمة لإعادة إحياء التشكيلات والتكوينات الاجتماعيّة الطبقيّة القديمة والمستحدثة، بصور وأشكالٍ معاصرة، تتوافق مع شروط الانفتاح والتحالفات السياسيّة العربيّة الرسميّة التي تولّت قيادتها أو توجيهها الأنظمة الأكثر رجعيّةً وتخلّفًا وتبعيّةً في بلادنا.

إنّ الوضع الراهن، الذي تعيشه شعوبنا العربيّة، لم يكن ممكنًا تحقّقُهُ، بعيدًا عن عوامل التفكك والهبوط التي بدأت في التراكم منذ انهيار الوحدة العربيّة بين مصر وسوريا في أيلول 1961، وتطوّرت بعد هزيمة حزيران 1967، وتعمّقت وامتدّت بعد كامب ديفيد 1979 إلى اليوم، لدرجة أنّ الستة عقودٍ الماضية حملت معها صورًا من التراجع لم تعرف جماهيرنا، في كل بلداننا في المشرق والمغرب، مثيلًا لها في كلّ تاريخها الحديث، فبدلًا مما كان يتمتّع به العديد من بلدان الوطن العربي في الستينات من إمكاناتٍ للتحرّر والنهوض الوطني والقومي، تحوّل هذا الوطن بدوله العديدة وسكّانه إلى رقم كبير، يعجُّ بحركات الإسلام السياسيّ وجماعاته بمختلف مسمّياتها، ويعجُّ بالصراعات الطائفيّة الدمويّة والإثنيّة وبالنزاعات الداخليّة والعداء بين دوله المفكّكة أو الضعيفة؛ لا يحسبُ له حسابٌ أو دورٌ يذكر في المعادلات الدوليّة، وتحوّلت معظم أنظمته وحكوماته إلى أدوات للقوى المعادية، فيما أصبح ما تبقى منها عاجزًا عن الحركة والفعل والمواجهة، في إطار عام من التبعيّة على تنوّع درجاتها وأشكالها السياسيّة والاقتصاديّة والتكنولوجيّة والثقافيّة والسيكولوجيّة، من خلال النمو السرطاني للتحالف البيروقراطي والكمبرادوري في مجمل بلداننا في المشرق والمغرب، في ظروفٍ فقدت فيها القوى والأحزاب الديمقراطيّة الوطنيّة والقوميّة واليساريّة قدرتها (لأسبابٍ ذاتيّة وموضوعيّة) على الحركة والنشاط والنمو، وتراجع دورها في التأثير على الناس أو على الأحداث من حولها.

وفي مقابل هذا التراجع الرسمي العربي، تتبدّى هيمنة العدو الصهيوني بصورةٍ غير مسبوقة، لم يستطع تحقيقها في كلّ حروبه السابقة مع العرب، إلى جانب عمليات الترويض الأمريكي للأنظمة العربية الحاكمة، في السياسة والاقتصاد والفكر والثقافة التي لم تنجح في تغيير الموازين والمعايير العسكريّة والسياسيّة في الصراع العربي — الصهيوني لصالح إسرائيل فحسب، بل نجحت في تغيير أسس ما يسمى بعملية التفاوض أو المهادنة إلى الدرجة التي يجري التعامل معها الآن على قاعدة أن يعترف العدو الإسرائيلي بحقوق الشعب الفلسطيني وليس العكس.

والسؤال هنا.. أين يكمنُ الطريقُ إلى المستقبل؟

في الإجابة عن هذا السؤال، أقول: لقد بات الرهان اليوم معقودًا على الرؤية الديمقراطيّة التقدّميّة العلمانيّة في بلادنا، المرتبطة باستنهاض أوضاع القوى والأحزاب والفصائل التقدّميّة العربيّة التي تعيشُ اليوم حالةً من التفكّك والتراجع والتأزّم، ولا تؤهّلها أوضاعها في اللحظة الراهنة للقيام بتحقيق هذه الرؤية وبلورتها في المدى المنظور. لكن إيماننا بآفاق المستقبل الواعد لشعوبنا العربيّة، في هذه المرحلة، يتطلّب من هذه القوى تفعيل عوامل التغيير الثورية والديمقراطية الحديثة وإنضاج أدواتها، والاستجابة لمبرّراتها وأسانيدها الموضوعيّة الملّحة من قلب واقعنا الراهن.

ومن ثَمّ، فإنّ الخطوة الأولى على طريق الخروج من الأزمة في المرحلة الراهنة التي تجتازها بلداننا العربية، تتمثل في العمل على إعادة تكوين اليسار وبناء القوى الشعبيّة؛ وذلك في إطار عملٍ طويلِ النفس يطاول مستوياتٍ عدّة من تحديد الأسس الفكريّة، وسمات المشروع المجتمعي الاشتراكي المطروح هدفًا راهنًا وتاريخيًا، وتحديد المراحل الاستراتيجيّة للتقدّم في الاتجاه المرغوب.. والقوى الاجتماعيّة التي لها مصلحةٌ في إنجاز المشروع والقوى المعادية له.

إنّ الحديث عن كسر نظام الإلحاق وتجاوزه أو التبعية والتخلف الراهن هو حديثٌ عن ضرورةٍ حتميّةٍ في المستقبل المنظور لشعوبنا العربيّة ولكل الشعوب والإثنيّات الأخرى في المشرق والمغرب؛ من أكرادٍ أو أمازيغ وغير ذلك من القوميات، التي تملك الحق بكل أبعاده التاريخيّة والسياسيّة والمجتمعيّة في التعبير عن هُويّتها الوطنيّة وثقافتها التاريخيّة المتميّزة، وهنا بالضبط أشير إلى أن المجتمعات المغاربيّة سواءً في المغرب أو الجزائر وتونس وليبيا وموريتانيا.. الخ، تتميز بأن كلًا منها مجتمعٌ ذو هُويّة وحضارة أمازيغيّة عربيّة إسلاميّة على اعتبارها هُويّةً جامعةً من الخطأ تجاوزها من ناحية، ومن الخطأ أيضًا الحديث عنها باعتبارها هُويةً مطلقةً ومغلقةً على ذاتها، بل على العكس، إنّ التعدّد الفكري عمومًا، واليساري الماركسي الديمقراطي خصوصًا، كفيلٌ من خلال التحليل الموضوعي لمصالح الجماهير الشعبيّة العربيّة أو الأمازيغيّة بجسر الفجوات بين العروبة والأمازيغيّة، وتوفير الأسس والمقومات السياسيّة والمجتمعيّة الكفيلة بتجاوز الصراعات والتناقضات الإثنيّة والقوميّة الشوفينيّة بينهما كافةً؛ إذ لا مصلحةَ للجماهير الشعبيّة الفقيرة في إثارة النزاعات العنصريّة والانفصاليّة بين الأمازيغ والعرب، أو بين أيّة قوميّة أخرى في بلادنا، حيث إنّ القوى الرجعيّة والرأسماليّة التابعة في الأنظمة الحاكمة بالتنسيق مع القوى الإمبرياليّة هي بالضبط صاحبةُ المصلحة في إثاره النزعات العنصريّة الأمازيغيّة أو العربيّة، فالأمازيغي عربيٌّ بثقافته حسب المفكّر الأمازيغي العروبي الراحل محمد عابد الجابري، كما أن العربي لا يمكنه تجاوز الحضارة الأمازيغيّة العربيّة ودورها التاريخي الجامع من خلال التزاوج والاختلاط والحياة المشتركة طوال أكثر من 1400 عام، ومن ثَمّ هناك - كما يقول «الجابري» - من تَعَرّب، وهناك من تَمزّغ، ولا وجود للنقاء، ما يعني توفّر الإمكانيّة الموضوعيّة والذاتيّة في الحياة السياسيّة والمجتمعيّة المشتركة راهنًا ومستقبلًا وَفْقَ قواعد الديمقراطيّة وأسس النهضة والتقدّم الإنساني، ومن منطلق مقتضيات المصلحة العربيّة والأمازيغيّة

المشتركة التي يمكنُ أن تلتحمَ في إطار جامع ومشترك بعيدًا عن أي نزعةٍ عنصريّةٍ أو متعصّبة، مثالُنا على ذلكَ العديدُ من النخب الأمازيغيّة، من أبرزهم رجلُ الدين التنويري والمناضل السياسي ضد الاستعمار الفرنسي ابن باديس، والمناضل الوطني والقومي الأمازيغي الشهيد المهدي بن بركة والرئيس الراحل هواري بومدين والرئيس الراحل عبد العزيز بوتفليقة والمناضل التقدمي إبراهام السرفاتي والمفكّر الأمازيغي المغاربي محمد عابد الجابري الذي استطاع أن يقدّم لنا مثلًا يُحتذى ضمن هذا البعد المجتمعي التوحيدي الجامع على طريق النهوض لشعوبنا في مغرب الوطن العربي ومشرقه، وَفْقَ مفاهيم الديمقراطية وأسس التقدم الحداثي والاشتراكية، التي أرى فيها مدخلًا وحيدًا لأي حديث عن التعايش المشترك بين الأعراق والعصبيّات والإثنيّات كافةً، بعيدًا عن أي نزاعات أو إشكاليّات من ناحية، وبما يحفظُ ويحترمُ حقّ الجميع في التعبير عن وجودهم الذاتي وثقافتهم وخصائصهم بكل حريّة من ناحية ثانية؛ إذ لا حلّ لأوضاع مجتمعاتنا بكلّ تنوّعها إلا من خلال الاشتراكيّة، ولكن هذه الضرورة ستكون ضربًا من الوهم إذا لم نمتلك وضوح الرؤيا للمخاطر التي تفرضها علينا العولمة الأمريكيّة وحليفها الإسرائيلي والرجعي العربي في بلادنا.

من هنا، فإنّ الدعوة إلى مقاومة المشروع الإمبريالي الصهيوني وعولمة الاستسلام، وهي دعوةٌ إلى تفعيل النضال السياسي والطبقي ضدّ أنظمة الكومبرادور في بلادنا وإسقاطها، تمثّل أحد أبرز عناوين الصراع العربي الراهن ضد التحالف الأمريكي الصهيوني وأدواته في بلادنا، من أجل التحرّر والديمقراطيّة والعدالة الاجتماعيّة بآفاقها الاشتراكيّة، مدركين أن أحد أهم شروط هذا التحدي العربي لهذه الظاهرة هو امتلاك عناصر ومقومات العامل الذاتي، الحزب الثوري الحامل للفكر الماركسي في صيرورته المتجدّدة، وبمنهجيّة نقديّة، للفكر والواقع معًا.

النهوضُ بعد الانهيار

شادي الزيد
كاتبٌ سياسيٌّ فلسطينيّ/ الأردن

لا يخفى على أحدٍ أنّ انهيارَ الاتّحادِ السوفييتيّ قبل 32 عامًا، قد أثّرَ سلبًا على الحراكِ الاشتراكيّ العالميّ، حيث عمّ في أوساطِ هذه الأحزابِ والحركاتِ حالةٌ من اليأسِ والضياعِ وصلَ بالبعضِ إلى النكوفِ عن الخطّ الماركسيّ تمامًا، كما حصلَ في الحزبِ الشيوعيّ الياباني. تمكنت الولاياتُ المتحدةُ خلالَ هذهِ الحقبةِ الضائعةِ من مدّ نفوذها بلا رقيبٍ حتى أضحتْ أضخمَ إمبراطوريّةٍ في تاريخِ الجنسِ البشريّ، وانبثقت تحتَ يدها حربٌ معلوماتيّةٌ من طرفٍ واحدٍ حملَ سَيْفَها فاشيو أوروبّا الشرقيّة الذين انفكّتْ عنهمْ قيودُ الحكوماتِ الاشتراكية، فأصبحوا همْ كُتّابَ تاريخِ الحقبةِ الاشتراكية (1917 - 1989) دونَ منازع، فاليومَ ترى الروايةَ الفاشيّةَ الأوكرانيةَ و البولنديّةَ و اللتوانيّةَ و الكرواتيّةَ قد صارت أساسًا للدراساتِ التاريخيّةِ المتعلّقةِ بالاتحادِ السوفيتيّ و دولِ الكتلةِ الشرقيّة.

إنّهُ رغمَ فضلِ الاتّحادِ السُّوفييتيّ على الحركةِ الاشتراكيّةِ العالميّة، فإنّ الاعتمادَ التامّ غيرَ النّقديّ لخطّهِ الرّسميّ كانَ أحدَ أهمّ أسبابِ حالةِ الشّللِ الفكريّ التي أصابتِ الاشتراكيينَ العربَ وغيرَهمْ إبانَ الانهيار. إن الحركاتِ الاشتراكيةَ العربيةَ كما أشارَ مهدي عامل في «أثرِ الفكرِ الاشتراكيّ في حركةِ التحررِ الوطنيّ» قد فشلتْ بشكلٍ عامٍ خلالَ العقودِ الماضيةِ في بلورةِ فكرٍ ماركسيّ عربيّ فريدٍ ومناسبٍ للوضعِ الماديّ العربيّ كما فعلَ ماو تسي تونغ في الصين وكيم إيل سونغ في كوريا، بل ودَخَلَتْ أحيانًا في حالةِ صراعٍ مكلفٍ مع باقي القوى التقدميّةِ العربيّةِ بدلَ أن تحالفها ضد قوى الرجعيّةِ والعمالةِ للاستعمار. لا ننسى - نحن الفلسطينيين خصوصًا - أن الخطّ الرسميّ السُّوفييتيّ تعدى من خطأٍ واضحٍ إلى غباءٍ فادحٍ في مرحلةٍ من المراحل، حيثُ كانَ الاتحادُ السوفييتيُّ أولَ من اعترفَ بالكيانِ الصُّهيونيّ عشيةَ النكبة، وإنْ عَدّلَ موقفَهُ بعدَ ذلكَ بقليلٍ وأَمَدّ الثورةَ الفلسطينيةَ

بالسلاح والعتاد.

أقامتْ كوريا الشّماليةُ عامَ 1992 مؤتمرَ بيونغيانغ الذي وُقّعَ فيه إعلانٌ يَنُصّ على أنّ النظريةَ الماركسيّةَ اللينينيّةَ لا زالتْ ناجعةً في ظلّ الانهيار، وأنّ الاشتراكيةَ رغمَ أنّها قد مُنيتْ بتراجعْ قاسٍ فإنها لا زالتْ مستقبلَ البشريّةِ وطريقَ الخَلاصِ من الظلم والاستبداد. حَضَرَ هذا المؤتمرَ ممثلونَ عنَ 69 حزبًا شيوعيّا من شتى أنحاءِ العالم، صادقوا فيه على هذا الإعلانِ وجدّدوا تمسُّكهمْ بالخطّ الاشتراكيّ. لا زال هذا الإعلانُ مفتوحًا للتوقيع، فكان الحزبُ الاشتراكيُّ الملدافيُّ مثلًا قد وقّعَ الإعلانَ عامَ 2018.

ذَكَرتُ هذا لأنّني أرى في الجبهةِ الشعبيةِ لتحريرِ فلسطين "وفي اليسارِ العالميّ عامةً" حاجةً إلى النّشاطِ والتّجديدِ والتّركيزِ على المبادئِ الاشتراكيةِ التي بُنِيَ عليها الحراك. أقولُ هذا ليسَ عتابًا بل نظرًا إلى المستقبلِ وتحليلا للحاضر: إنّ المَهمّةَ الأولى الآنَ لدفعِ حالةِ الركودِ الأيديولوجيّ هي تثقيفُ الكوادرِ ثم تثقيفُ الشعبِ بفِكْرٍ ماركسيّ لينينيّ عربيّ مناسبٍ خصيصًا للوضعِ الماديّ العربيّ والفلسطينيّ.

قالَ الرّفيقُ كيم إيلَ سونغ في خطابهِ «محوُ الدغماتيّةِ وإرساءُ مبادئِ زوتشه في عملنا الأيديولوجيّ» لعام 1955، و"زوتشه Juche' هي الماركسيّةُ اللينينيّةُ مفصّلةً ومبلورةً خصيصى للحالةِ الكورية) أن الثقافةَ السياسيةَ داخلَ الحزبِ الثوريّ تتخذُ صورةَ النُّواة، والنُّواة فردٌ شديدُ الإخلاصِ للمبدأ تهتمُّ القيادةُ بتثقيفه ليكونَ قدوةً لرفاقه، ينشرُ الوعيَ ويصحّحُ الأخطاءَ في من حولهُ من الكوادر).

أمّا في العصرِ الإلكترونيّ فأنا أدّعي أنّ طريقةَ النواةِ هذه غيرُ كافيةٍ بسببِ سهولةِ الوصولِ إلى المعلومةِ الخاطئة، فُعَدُّونا (الصّهيونيُّ والأمريكيُّ والأوروبيُّ وغيرهم) لم يدخرْ جهدًا خلالَ العقودِ الثلاثِ الماضيةِ لتشويهِ صورةِ الاشتراكيةِ وتمويهِ اليمينِ باليسارِ واليسارِ باليمين، حتى وصلَ الأمرُ ببعضِ المؤلفينَ الأمريكانِ والبريطانيين أنْ يصنّفوا لينين وستالين في نفسِ الخانةِ مع هتلر وموسوليني، مستغلّينَ فرصةَ غيابٍ من يدفعُ هذه الروايات ويدافعُ عن الاشتراكية.

البحثُ في (جوجل) يزجُّ بالقارئِ في دوامةٍ لا تنتهي من المصادرِ اليمينيّةِ المتطرّفةِ التي لا تذكرُ عن ألمانيا الشرقيةِ مثلًا إلا الشرطةَ السريّةَ وجدارَ برلين، وكأن 40 عاما من التطويرِ الاشتراكيّ المبهرِ لم يحصلْ في هذه الدولةِ الاشتراكيّةِ الفقيرةِ المحاصَرةِ التي بَنَتْ نفسَها بنفسها منْ تحتِ ركامِ الحربِ العالميةِ الثانية، وكأنّ الناسَ لم يعيشُوا فيها حياةً طبيعيةً ضَمنَتْ لهُمْ فيها الدّولةُ نظامًا صحيًا وتعليميًا و خدماتيًا مجّانيًا (وهو ما عَجزَتْ عنهُ بل حارَبَتْ ضدّهُ أمريكا "أمُّ الحريةِ' إلى اليوم)! هل يعلمُ الفلسطينيونَ أن ألمانيا الرجعيّةَ التي نراها اليومَ تتخذُ موقفًا وَقِحًا من قضيّتنا ليسَ خجلًا من تاريخها النّازي "هيهات!" بل كراهيةً للاشتراكيينَ الشرقيينَ الذينَ دعموا قضيّتنا في الماضي القريب، وتَبَعِيّةً لربّها الأمريكيّ؟

كيفَ نُثقّفُ كوادرَ الحراكِ الثوريّ العربيّ في فلسطين؟ أنا أقولُ بفائدة (السوشال ميديا) بشكلٍ محدود: لا ضيرَ في بعضِ تصاميم (جرافيك) هنا وهناك، ولكنّ المبدأَ الثوريّ لا يترسخُ إلا بالدراسةِ الجادّة، مثلهُ كمثلِ أيّ علمٍ أو فن، ولذا لزمَ معاملتُهُ بالطريقةِ الموضوعيّةِ المدروسةِ التي يستحقّها.

أقترحُ على قيادةِ الجبهةِ الشعبيّةِ بحُكْمها رأسَ حربةِ اليسارِ العربيّ" تأسيسَ لجنةٍ هدفُها تطويرُ منهجٍ تعليميّ كمنهجِ المدرسة، مكوّنٌ من عددٍ منَ الكتيباتِ متوسّطةِ الطول لا يزيدُ عددها عن 15 كتيبا تتناولُ أساسياتِ النظريّةِ الماركسيّة، وتحليلًا سهلَ الفهمِ للماضي والحاضرِ الفلسطينيّ والعربيّ والعالميّ الاشتراكيّ، ترجع إليها الكوادرُ في حالِ الالتباسِ الفكريّ. مثلًا: كتيباتٌ بعناوينَ مثل: «اليهود»، «الثورةُ الفلسطينيّة»، «تاريخُ الجبهة»، «أساسيّاتُ الماركسيّة»، «الدُّولُ الاشتراكيّةُ السّابقة»، «الواقعُ العربيّ»، وهلمّ جرًا. توزّعُ هذه الكتيباتُ طباعةً إلى الكوادر، وإلكترونيًا بصيغةِ PDF بالعربيّةِ والإنجليزيّةِ إلى جماهيرِ الشّعبِ الفلسطينيّ خاصّةً، وعُمّالِ العالمِ عامّةً، وتوزّعُ كلُّ الموادِّ التعليميّةُ هذه تحتَ رخصةِ المشاعِ الإبداعيّ CC-BY-SA لكي لا تُعيقَ انتشارها حقوقُ الطبعِ والنّشر. يُدَرّسُ ويُناقَشُ المَنْهجُ في الاجتماعاتِ الحزبيّةِ لتعمّ الفائدة.

جديرٌ بالذّكرِ أنّ منشور «على طريقِ الثورةِ الفلسطينيّة» الذي أصدرتهُ الجبهةُ عامَ 1970 ما زالَ قيدَ الطباعةِ باللغةِ الإنجليزيّةِ تحتَ عنوان "Strategy for the Liberation of Palestine ، ويُعَدُّ مرجعًا ومادّةً إلزاميّةً إلى جانبِ كتبُ ماركس ولينين في بعضِ الأحزابِ الشيوعيّةِ في الغرب. هنا أرى النُّواةَ التي تحدّثَ عنها كيم إيل سونغ، ولكنّ النُّواةَ في هذه الحالة ليستْ شخصًا، بل حراكًا بأسره، يكون هو كلُّهُ تأثيرًا إيجابيًا على المجتمعِ الفلسطينيّ بلْ والعربيّ بل والعالميّ، يبعثُ الروحَ في الفكرِ الاشتراكيّ وفي الأحزابِ الشيوعيّةِ من مدغشقر إلى كندا إلى تشيلي، ولْتَقُلِ الأجيالُ القادمةُ أنّ أولَ من كسرَ ركودَ ما بعدَ انهيارِ السوفييت وتغلّبَ عليهِ همُ الاشتراكيونَ الفلسطينيون.

ليبيا..
والبحثُ عن الاستقرار

عبد الله الغرياني
كاتبٌ سياسيّ/ ليبيا

اثنا عشرَ عامًا على أحداث الثورة الليبيّة، وما زال الليبيّون يبحثون عن الاستقرار الذي يؤسّسُ لهم دولتهم المدنيّة الديمقراطيّة التي حلموا بها، وتحمّلوا لأجل قيامها ويلات الحروب وكلفتهم أنهار من الدماء، فبعد تجربتين ديمقراطيتين شهدتها ليبيا في العقد الماضي، يعود اليوم الانقسام السياسي بين الأطراف السياسيّة، فالمجلسُ الأعلى للدولة الذي انتخب في يوليو عام 2012م جسمًا تشريعيًا مؤقّتًا ما زال يصارعُ أعضاؤه للبقاء أكثر في السلطة، يقابله مجلس النواب الذي انتخب في يونيو عام 2014م هو الآخر يدافع أعضاؤه بكل الطرق؛ لكي يستمروا في السلطة، وفي منتصف هذا الصراع يدفع الليبيّون الويلات من غلاء المعيشة وانتشار الفساد داخل المؤسّسات الحكوميّة،

فأعضاءُ هذه الأجسام تحوّلوا لمشرّعين للفساد، ويتّخذون من مناصبهم أداةً لتمرير الصفقات السياسيّة الفاسدة التي أتت بحكوماتٍ توغّلت في صرف الأموال على المشاريع التنمويّة غير الحقيقيّة، ومن خلال اتفاق جنيف فبراير عام 2021، أتت حكومة الوحدة الوطنيّة التي يترأّسها أحد حلفاء نظام العقيد القذافي «عبد الحميد الدبيبة» وكانت المهام الموكلة إليه حسب ما نص الاتفاق التمهيد وتوفير المناخ المثالي لإجراء انتخاباتٍ رئاسيّةٍ وبرلمانيّةٍ مباشرةٍ ومتزامنةٍ في ديسمبر 2021، ولكن ما أن نال «الدبيبة» الثقة من مجلس النواب حتى أصبح طرفًا سياسيًا ثالثًا لتزداد الأزمة تعقيدًا؛ الأمرُ الذي أفشل الانتخابات، ومن هنا انتهزت هذه الأجسام الفرصة لتخلق انقسامًا حادًا، من خلال اتفاق أبرم بين رئيس مجلس النواب «عقيلة صالح» الواجهة السياسيّة للقيادة العامة للجيش الليبي التي تسيطر على شرق وجنوب البلاد و «خالد عمار المشري» الذي هو واجهةٌ لحزب العدالة والبناء الذي يمثّل إحدى أجنحة جماعة الإخوان المسلمين السياسيّة، حيث تمكّنوا من سحب الثقة التي منحت لحكومة الوحدة الوطنيّة خلال هذا الاتفاق، وتم تكليف حكومةٍ موازيةٍ باسم حكومة الاستقرار الوطنيّ تولّى رئاستها وزير الداخليّة الأسبق «فتحي باشا آغا» ولم تتمكّن هذه الحكومة من الدخول إلى العاصمة طرابلس، لتباشرَ مهامها وتوعدها «الدبيبة» بالحرب إذا اقتربت من العاصمة طرابلس، وقام بتحشيد عددٍ من قادة المليشيات الذين أبدوا استعدادهم للوقوف معه مقابلَ تنفيذ بعض مطالبهم الماليّة، ومن هنا سمحت القيادة العامة لحكومة باشا آغا العمل من سِرت وبنغازي، وأصبحت البلد منقسمةً سياسيًا؛ الأمر الذي جعل الانتخابات أمرًا مستحيلًا، وهذا يلبّي رغبات كلّ الأطراف التي ترى في ذهاب الشعب لصناديق الاقتراع موتًا سياسيًا لها، لذلك فإنّ الصراع السياسيّ سوف يزداد ومعدل الفساد سيرتفع وسيبقى المواطن الليبي رهينةً لهذه الأطراف العبثيّة التي تهدّد سلامة ليبيا واستقرارها، أمّا التدخّلات الإقليميّة لن تتوقّف، فهي تراهن على أدواتها المحليّة في تثبيت الوضع الذي يخدم مصالحها، ومن جهة دوليّة، فإنّ ملفّ المهاجرين أبرز الملفّات التي يهتمُّ بها الأوروبيّون؛ الأمرُ الذي يجعلهم دائمًا يهادنون الأطراف المحليّة، ويغلبون مصالحهم على مصلحة الشعب الليبي وتطلّعاته في استقرارٍ دائمٍ يؤسّسُ لهم دولتهم الديمقراطيّة الخاليةً منَ الفساد، التي تبعد عنهم التهديدات، لذلك لا بدّ من الليل أن ينجلي والفساد ينتهي والشعب يأخذ بزمام المبادرة ويسترد بلده وينال حقّه، إلى ذلك الحين ستبقى ليبيا تبحث عن الاستقرار الضائع وسط مستنقع الفساد السياسي.

الـسـودان..
بيـن المصالح الفئويّـة واللعبـة الخارجيّـة

مسعود أحمد
كاتبٌ سـياسيّ/ عُمان

ما يجرى في السودان لم يكن خارج سياق التوقّعات، خاصّةً أنّ المعطيات المتوفّرة وسير التطوّرات الداخليّة ترجّح هذا الاحتمال على غيره من الاحتمالات، حيث طرفا الصراع الرئيسان اللذان هما شريكين منذ عقود طويلة، وينحصر خلافهما في حجم المصالح الذاتيّة، استطاعا منذ البدء ركوب موجة الحراك الشعبي المدفوع بهموم معيشيّة محضة، وإجهاض تفاعلاته، وأن يشكّلوا جزءًا من صياغة مفرداته السياسيّة، وهو أمرٌ أجادته القوى الطبقيّة المتنفّذة، ليس في السودان فحسب، بل في عموم بلدان ما سمي بالربيع العربي، حيث الاندفاع الشعبي التلقائي دون برامج وقوى سياسية منظمة، وحصر مطالبها برحيل الرمز والإبقاء على المنظومة الطبقيّة الراسخة.

ومهما كان دور الفرد يبقى مجرّد تعبير عن مصالحَ طبقيّة محدّدة هي في جوهرها أوسع وأعمق من اختزالها فيه. هذا النمط من النشاط الجماهيري العفوي مهما كان حجمه ومشروعيّة مطالبه، ليس له أفقٌ للانتصار، ويبقى أقرب للمثاليات التي ليس لها مكان في عالم الصراعات الطبقيّة المموهة بشتى الأغلفة.. وفي الحالة السودانيّة المعبأة بالتناقضات الإثنيّة والعرقيّة والقوميّة العميقة وتتغذى من المناخ الإقليمي الذي يدفع بهذا الاتجاه إلى مداه الأقصى، تصبح أكثر تعقيدًا وأكثر قابليّة للتدخّل الخارجي.

من المهمّ فحص أدوار القوى الإقليميّة ذات الارتباط بالمشاريع الدوليّة المشبوهة لاستجلاء كنه ما يجري في الإقليم العربي، حتى ندرك حجم التدخّلات وتأثيرها وأبعادها. إنّ مسألة التحالفات من أهم القضايا في علم السياسة، وتعكسُ بصورة أوضح طبيعة توجّهات القوى الداخليّة وتوجّهاتها، وليس هناك إمكانيّةٌ لتحالفات خارجيّة مشبوهة لتنفيذ أهداف داخليّة سليمة.. لقد وجدت أطراف الصراع في اللّحظة الراهنة فرصةً مواتيةً لتصفية الحسابات السياسية المتراكمة طيلة عقود وتحقيق أهدافها دفعة واحدة. وستضيف الأيام المقبلة المزيد من البراهين عن طبيعة المخطط المتفق عليه ضمنيًا، بحيث تعود القوى المتصارعة إلى طاولة المفاوضات بشروطٍ جديدة، تتجاهل كليًا القوى المدنيّة الديمقراطيّة وتطلّعات الجماهير الشعبيّة، مع التقاطع مع هذا الطرف أو ذاك في هذه الجزئية أو تلك، وفي ضرورة الإبقاء عليها ظاهرةً صوتيّةً إعلاميّة دون تأثير فعلي. وتأتي هذه الخطوة ضمن إطار توافقي بين طرفي الصراع المدججين بالسلاح لتخطي ما تم التوافق عليه، الذي شكّل نوعًا من الوفاق الوطني بصرف النظر عن مضمونه، ووضع الشعب السوداني وجميع قواه السياسيّة في مأزق حقيقي، بحيث يفكك التحالفات الوطنية ويضعها أمام مشهد جديد وصيغ تحالفيّة جديدة، بعد أن استطاعوا شطب الهُويّة العربيّة وتمرير قضيّة التطبيع مع الكيان الصهيوني في ظل السلطة الانتقاليّة، دون مجابهة شعبيّة جديّة... كلّ هذا ما كان له أن يجريَ بالشكل الذي جرى لولا هامشيّة القوى التقدّميّة ذات الخيار الوطني والاجتماعي البديل، وغموض رؤيتها الاستراتيجيّة.

إنّ الاعتقاد بإمكانيّة تحجيم قوى مسلّحة ذات خيارات واضحة ومدعومة من قوى إقليميّة ودوليّة، تسعى لترتيب المنطقة العربيّة وفقَ أجندتها الخاصّة، وبما يؤمّن الوجود الصهيوني الدائم، يدخل في عداد المستحيلات؛ الأمرُ الذي يتطلّبُ حوامل فكريّةً وسياسيّةً مختلفة. إنّ الخارطة السياسيّة الحاليّة غير متبلورة بشكل ثابت وهي عرضةٌ للفكّ والتركيب. لقد استغلّت الثقة المفرطة في عمليّة التحوّل الديمقراطيّ التي روّج له منذ سقوط النظام، باعتبارها إمكانيّةً واقعيّة، رغم صعوبة هذا الرهان في ظلّ سيطرة قوى رجعيّة تمرّست طويلًا في الحروب الأهليّة والإقليميّة، وحيث الانطلاق من فرضيّة حياد المؤسّسات العسكريّة الرسميّة منها والموازية وتسليم عناصر قوّتها بتلك البساطة، أمرٌ لا مكان له في الحسابات السياسيّة الواقعيّة، وإنّ القضيّة في جوهرها رغم مظهرها الانقلابي مجرّد مسرحيّة لترتيب سيناريوهات وخلق وقائعَ جديدة ريثما تكتمل الترتيبات والقضاء على حلم الانتقال الديمقراطي السلمي، بل ودفنه إلى الأبد، أو على الأقل تأجيله ووضع معوقات موضوعيّة وذاتيّة تمكّنها من السيطرة على المقدّرات الوطنيّة؛ الأمرُ الذي يفرضُ نفسه على جميع المكوّنات السياسيّة والاجتماعيّة الحريصة على وحدة الأرض والشعب والهُويّة الوطنيّة وصيغ التعايش المأمول إعادة لملمة أوضاعها من جديد، ومغادرة الخطاب السياسي والإعلامي الذي اتّسم بضبابيّة مدهشة، وحيث شعار الدولة المدنيّة لم يعد كافيًا، أنّ مضامينه بحاجة إلى تفصيل محدّد حول هُويّتها وبعدها العربي وغيرها من العناوين، حتّى يشكّلَ جامعًا وطنيًا مشتركًا، وأنّ التأكيد على الامتداد التاريخي الذي هو نقيض ما هو مرسومٌ للعالم العربي، ليس قضيّة ثانويّة، وأن استسهاله والتفريط به يدخل البلد لا محالة في سلسلة من الأزمات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة. إنّ العودة إلى جذر القضيّة، يكمن في ضرورة التمسّك بالهُويّة التاريخيّة واشتقاق رؤى عصريّة تستجيب للاستحقاقات الراهنة، فإذًا، لا بدّ من توضيح، فإنّ السودان الديمقراطي الموحّد جزءٌ من الأمة العربيّة ويبقى الخيار الأسلم، وهو بحاجة إلى قوى طليعيّة من نوع آخر... تعيد بناء استراتيجيّة وطنيّة جديدة لا تأخذ الواقع العربي المأزوم برهانًا في ضرب الثوابت التاريخيّة المشتركة.

البنيةُ الضابطةُ لمسار العلاقات الأمريكيّة الأوربيّة

د. عابد الزريعي
مدير مركز دراسات أرض فلسطين للتنمية والانتماء/ تونس

تشكّلُ العلاقاتُ الأمريكيّةُ الأوروبيّةُ أحدَ ثوابت السياسة الدوليّة، التي رافقت النظام الدولي المتشكّل بعد الحرب العالميّة الثانية، وعايشت كلّ تغيّراته الجارية حتّى اللحظة الراهنة؛ الأمرُ الذي يدفعُ للسؤال حولَ سببِ هذه الاستمراريّة، وهل تكمّنَ في الرغبة والإرادة المتساوية لطرفي العلاقة؟ أم تعودُ إلى نوعٍ من الاعتماديّة والتبعيّة المفروضة - بصيغة ما - التي خلقت نوعًا منَ الاختلال بين رغبة أحد أطرافها في الانفلاتِ من ربقتها، وكوابح الضغط التي تجبره على البقاء في إطارها؟

يذهبُ المقالُ إلى أن التدقيق في مضامين العلاقة يكشفُ عن أنّها تكاد تدار لصالح طرفٍ واحد من أطرافها، وأنّها تنضبط في مسارها إلى مصالحه الاستراتيجيّة والحيويّة، وأنّها تشتغلُ عبر بنية ثلاثيّة - بغض النظر عن الترتيب ومستوى الظهور - تتمثّل في التباين بين أطرافها، والمحاولة؛ أي رغبة أحد أطرافها في الاستقلالية، والخضوع؛ أي خضوع وانضباط صاحب الرغبة إلى إرادة الطرف المتحكّم، **ونتناول هذه القضايا عبر العناوين الآتية:**

أوّلًا/ التأسيس الجيوبولتيكي للعلاقة:

يعدّ نيكولاس سبيكمان (1893 - 1943) الجيوبولتيكي الأمريكي (هولندي الأصل) وبوصفه أحد أنصار النزعة التدخّليّة الأمريكيّة، المهندس النظري للعلاقات الأمريكيّة الأوروبيّة، ومنظّر عقيدة الاحتواء التي سعتْ أمريكا إلى تطبيقها خلال مرحلة الحرب الباردة. وتتلخّص رؤيته في تعريف الجيوبولتيك بأنّه وضع سياسة السلامة للدولة على أساس العوامل الجغرافيّة، وأنّ مركز الدولة الجيوبولتيكي يتوقّف على موقعها الجغرافي الثابت، وعلى علاقة هذا الموقع بمراكز الثقل في السياسة العالميّة، ولما كانت مراكز الثقل هذه في تغيّر؛ فإنّ قيمة الموقع الجغرافي للدولة في تغيّر أيضًا، وارتباطًا بذلك، صاغ عام 1944 نظريّة حدود/حافة الأراضي، وهي أطراف أوراسيا (أوروبا وآسيا) وبشكل خاصّ في أوروبا الغربيّة والشرق الأقصى، وارتباطًا بذلك أطلق على المحيط الأطلسي (المحيط المتوسط) وأوصى بتحالف أمريكا مع دول أوروبا الغربيّة المشاطئة له، خاصّةً بريطانيا، لتصبح المصالح الأمريكيّة من الضرورات الاستراتيجيّة لأوروبا الغربيّة، وبذلك وضع الأرضيّة التي

تأسّس على هديها حلف شمال الأطلسي بعد الحرب الثانية، الذي شكّل الأداة التنظيميّة العسكريّة للمعسكر الغربي، وفي إطارها تأسّست العلاقة الأمريكيّة الأوربيّة في صورتها المتعيّنة. وأوّل ما تتّسم به هذه العلاقة هو عدم التوازن، من زاوية عدد مكوّناتها وتمثيلها السياسي الدولي، فهي تقومُ بين أمريكيا بوصفها دولةً واحدةً ذات سيادة، وقرارٍ واحد، والدول الأوربية في مستويين؛ أوّلًا مع (الاتحاد الأوروبي) باعتبارها صيغةً فوق وطنيّة تنضوي على مجموعة من الدول المستقلّة المتزايدة، وثانيًا علاقتها مع كلّ دولة على حدة، عبر التمثيل السياسي المتعارفِ عليه دوليًا. إنّ الصيغة الجامعة بقدر ما تشكّل إطارًا عامًا للالتقاء حول مجموعة من القضايا، دون أن ينفي ذلك التباين حول عديد القضايا بين الدول المنضوية بداخله، كما أنّ العلاقات الثنائيّة، وبغض النظر عن الندّيّة الشكليّة، إلّا أنّها تتدرجُ على خطّ طويل من الارتماء في حضن أمريكا أو محاولة ممارسة نوع من الاستقلاليّة عنها، ذلك يقود إلى الاستنتاج بأنّ مسافة العلاقة الأمريكيّة الوديّة أو السلبيّة لا يمكن أن تكون بذات القياس بينها، والاتحاد من ناحية، ومكوّناته من ناحية ثانية، كما يعني أنّ خلافًا أو اتّفاقًا بين أمريكا والاتّحاد، لا يعني بالضرورة انسحابه بالمستوى ذاته على كل المكونات أو العكس. ومن ناحية ثانية، تبرزُ أمريكا كونها الطرف المتحكّم في العلاقة والموجّه لها، وعجز الأطراف الأخرى عن الذهاب بعيدًا عنها؛ لينتهيَ الأمرُ كما صاغه سبيكمان «تصبح المصالح الأمريكيّة من الضرورات الاستراتيجيّة لأوروبا الغربيّة».

ثانيًا/ تجلّياتُ العلاقة في مواجهة الخطر المشترك:

تأسّست العلاقات بين الطرفين نتيجةً لانخراط الولايات المتّحدة الأمريكيّة في الحرب العالميّة الثانية بعد هجوم بيرل هاربر، وإذا كانت ملامح العلاقات قد رُسمت خلال مسار الحرب وتطوراتها، فإنّها قد تبلورت بشكل أوضح في سياق نتائجها، وأبرزها انقسام العالم إلى قطبين؛ اشتراكي ورأسمالي، كما سارت العلاقات بيسر في الأوساط الأوروبيّة؛ بفعل تأثير الصورة الإيجابيّة للولايات المتّحدة الأمريكيّة، كونها قامت بدور رئيسيّ في تحرير أوروبا الغربيّة من الفاشيّة، وساعدتها على النهوض الاقتصادي، عبر مشروع مارشال 1947، وقد نهضت العلاقة خلال تلك المرحلة على ثلاثة ركائز؛ أوّلها الركيزة العسكريّة المتمثّلة في حلف الناتو أو منظمة «حلف شمال الأطلسي» التي قامت الولايات المتّحدة إلى جانب إحدى عشرة دولةً أوروبيّةً بتشكيله عام 1949؛ بهدف ردع أي تهديد توسعيّ من قبل الاتحاد السوفييتي في القارة الأوروبيّة. وثانيها الركيزة السياسية التي تجسّدت في العلاقات الرسميّة عام 1953، عندما زار سفراء الولايات المتّحدة، الجماعة الأوروبيّة للفحم والصلب، وهي الصيغة الأوروبيّة الجامعة آنذاك. وثالثًا الركيزة الأيديولوجيّة القائمة

على أساس تقارب الأنظمة المكوّنة للعلاقة سياسيًا واقتصاديًا ودينيًا، وتوافقها على مواجهة «الشيوعيّة» التي يمثّلها «الاتحاد السوفييتي» باعتباره عدوًّا مشترك، وادّعاء أطراف العلاقة تمثيلهم لمبادئ النظام الديمقراطي الليبرالي العالمي في مواجهة النظام الاشتراكي. لكن هذه الصورة شبه المكتملة للعلاقة لم تستطع أن تحجب ثلاثة قضايا ستبقى ملازمة، بمستويات مختلفة، لكل مسار العلاقات الأمريكيّة الأوروبيّة اللاحق، وهي: أوّلًا، تباين المواقف؛ الأمرُ الذي ظهر خلال حرب السويس عام 1956، حيث تباينت المواقف بين فرنسا وبريطانيا من ناحية، وأمريكيا من ناحية ثانية. وثانيًا، محاولة أوروبا بلورة صيغة إقليميّة خاصّة بها، وقد تبدّى ذلك في توقيع اتفاقية روما 25 مارس 1957، التي وسّعت مجالات التعاون، وأصبحت المجموعة تحمل اسم المجموعة الاقتصاديّة الأوروبيّة، وثالثًا، خضوع الموقف الأوروبي وانضباطه لصالح الموقف الأمريكي من ناحية، وإدارة أمريكيا للتباين من موقع مصالحها أوّلًا، فقد استغلّت حرب السويس لمصلحتها، وتعاملت مع شركائها على قاعدة التغاضي عن الطموح الاقتصادي، وضبط سقف الطموح السياسي وتحديده.

ثالثًا/ العلاقــة فــي ظــلّ الأحاديّــة القطبيّة:

لقد عادت ثلاثيّة التباين والمحاولة والانضباط إلى الظهور بشكل جلّي، لحظة زوال الاتحاد السوفييتي، والانتصار على «الخطر» الموحد لأطراف العلاقة، والمفارقة أن الانتصار قد رُسم لصالح الولايات المتحدة الأمريكية، التي اختلفت مع شركائها في تقييم النظام العالمي المتكوّن، وصاغت تصوّرها للعولمة على قاعدة فرض هيمنتها على العالم. وفي هذا السياق، حددت التهديدات الأمنيّة المستحدثة في الإرهاب والدول المارقة والفاشلة، وجعلت الحرب وسيلة لدرئها. ومن جهة ثانية، برز التوجّه الإقليمي للاتحاد الأوروبي الساعي إلى تأدية دور سياسيّ على الصعيد الدولي دون الإذعان إلى واشنطن، وفي هذا السياق تم تحديد مصادر التهديد فيما يمكن أن يترتب على العولمة من هجرة وفقر وتغيّر مناخي، وكانت دول أوروبا الغربيّة قد دشّنت هذه المرحلة بتوقيع معاهدة ماستريخت عام 1992 التي تم بمقتضاها تجميع مختلف الهيئات الأوروبيّة، ضمن إطار واحد هو الاتّحاد الأوروبي، الذي أصبح التسمية الرسميّة للمجموعة.

لقد تمثّل المتغيّر الأهمّ في نسيج العلاقات خلال هذه المرحلة في ظهور مفهوم الأوربيتين، القديمة (الغربية) والجديدة (الشرقية) التي كانت منضوية في حلف وارسو، وأصبحت عضوًا في الناتو وفي الاتّحاد، لكنّها ربطت عراها بالحبال الأمريكيّة، وباتت تتصرّفُ ضمن الاستراتيجيّة الأمريكيّة. لقد وضعت الولايات المتّحدة نصب عينها استمرار السيطرة على الاتحاد الأوروبي، فنجدها في الوقت الذي تدعم تكامله الاقتصادي، تتقدم ضامنةً لأمنه، وتعزّز تمركزها بالاستناد إلى الأعضاء الجدد في الحلف وفي الاتحاد، ولا تتورّع عن وضعه تحت ضغط عالٍ مثل انتقاد ترامب أوروبا بحجّة ضعف مساهمتها في ميزانيّة حلف الناتو، وأن الاتّحاد الأوروبي نشأ لاستغلال الولايات المتّحدة؛ وتأييده خروج بريطانيا منه، وقد أسهم ذلك في إضعاف القرار السياسي الأوروبي وعرقلة أي محاولاتٍ لتشكيل قوّة أوروبيّة موحّدة.

رابعًا/ العلاقةُ على وقع الحرب الروسيّة الأوكرانيّة:

شكّل اندلاع الحرب الروسيّة الأوكرانيّة، وانفتاحها على عديد الاحتمالات التي تتجاوز الرقعة الجغرافيّة للصراع الى الساحة الدوليّة برمّتها، مناخًا ملائمًا لاشتغال ثلاثية التباين، والمحاولة والرضوخ في إطار العلاقات الأمريكية الأوربية، بشكلٍ غير مسبوق. فبالنسبة للتباين، فقد سبق الحرب الروسيّة الأوكرانيّة، وظهرت ملامحه في الانسحاب الأمريكي المنفرد من أفغانستان، وفي أزمة الغواصات الفرنسيّة، وتحالف أوكوس، وبرز بشكل أوضح في سياق الحرب الروسيّة الأوكرانيّة، وتصاعد أزمة الطاقة والتضخّم في أوروبا، وكذلك التباين في الرؤى الاستراتيجيّة بين أوروبا والولايات المتحدة تجاه الصين. وفي مواجهة ذلك ظهرت محاولات الدول الأوروبية ورغبتها في الاستقلالية الاقتصادية والعسكرية والسياسية عن الولايات المتحدة، وتأدية دور سياسي موازٍ لثقله الاقتصادي على الساحة الدوليّة، وفي هذا السياق دعت فرنسا الاتّحاد إلى فكّ الارتباط بواشنطن، وقرّرت ألمانيا زيادة إنفاقها العسكري. لكن تجسيد هذه الرغبة يبقى رهين قدرة الاتحاد الأوروبي على توحيد مواقف أطرافه وسياساته، وهي مسألةٌ مستبعدةٌ؛ نتيجةً للخلافات والمماحكات بين فرنسا وألمانيا من ناحية أولى، والارتباط الوثيق بين بريطانيا وأمريكيا (وقد تجلّى ذلك في موقفها من الحرب) من ناحية ثانية، وبروز المسافات داخل الاتحاد بين أوروبا القديمة والجديدة؛ الأمرُ الذي عبّر عنه رئيس وزراء بولندا بالقول: «أوروبا القديمة تؤمّن باتفاقيّة مع روسيا، وأوروبا القديمة فشلت. لكن توجد أوروبا جديدة، أوروبا تتذكر ما كانت عليه الشيوعيّة الروسيّة، وبولندا زعيمةُ أوروبا الجديدة هذه». وفي ظلّ واقع أوروبا لم تجد خيارًا غير الرضوخ والانضباط للموقف الأمريكي، والاستمرار في إرسال الإمدادات إلى كييف، في ظلّ الأزمات الاقتصاديّة التي تعانيها أوروبا. وفي هذا السياق وافقت ألمانيا وفرنسا على الاستمرار في إرسال الدعم العسكري وغيره إلى أوكرانيا بعد أن ماطلتا وتمنعتا، وذلك على الرغم من أوضاعهما الاقتصادية واندلاع الاحتجاجات والمظاهرات في الشوارع ضد الحرب.

خاتمــة:

إنّ الانصياع الأوروبي الغربي للموقف الأمريكي، وبالنتيجة؛ الاستمرار في التبعية لها، يعود إلى عاملين، أولهما قوة الضغط الخارجي المتمثل في أن أمريكيا تعدُّ التوجّه الأطلسي أهم أولويات سياستها الخارجية، وأهم أرصدتها للمناوشة في الساحة الدولية، خاصّةً في ظلّ تراجعها، وبروز ملامح تشكّل نظام دوليّ متعدّد القوى والأقطاب. وثانيهما الضغط الدّاخلي المتمثّل في الواقع الأوروبي وخلافاته الكامنة، وارتباط جزءٍ منه بالإرادة الأمريكيّة. يتولّد من هذين الضغطين ممرٌّ وحيدٌ للاستمرار، وهو الاستمرارُ في التبعيّة لأمريكا، مع المحافظة على الروابط المتحقّقة داخل القارة ضمنَ الاتّحاد الأوروبي.

في عالمٍ شديدِ التعقيد، سريعِ التغيّر:
مجموعة «بريكس» واحتدام الصّراع على الهيمنة والنفوذ (1 - 2)

م. تيسير محيسن
باحثٌ وكاتبٌ سياسيّ/ فلسطين

مع نهاية الحرب الباردة، باتت المواجهةُ الأيديولوجيّةُ قضيّةً من الماضي إلى حدّ كبير؛ لم يعد العالمُ ثنائي القطبيّة، وحلّ اقتصاد السوق محلّ الاشتراكيّة، وأصبحت الديموقراطيّة اتجاهًا عالميًا، أو هكذا خُيّل للبعض، فوكوياما على سبيل المثال مع نظريته نهاية التاريخ، أو هنتنغتون مع صراع الحضارات. في الواقع، راح العالم تحت تأثير ديناميتين: محاولة أمريكيّة لإقامة نظام عالميّ أحاديّ القطبيّة من ناحية، ومن ناحية ثانية بروز ظاهرة صعود «الاقتصادات الناشئة»، التي توقّعت لها مؤسّسةُ «جولدمان ساكس» أن تكون في حلول عام 2050 القوّة المقرّرة في العالم.

النشأة والتحوّل:

في الواقع، جاء صعود مجموعة بريكس BRICS (اختصار للحروف الأولى من أسماء دول: البرازيل، روسيا، الهند، جنوب إفريقيا، الصين)، تعبيرًا عن أزمة النيوليبراليّة، ونتاجًا لها، في أسوأ تجلّياتها (أزمة 2009/2008) وفي أبرز ركائزها: الديموقراطيّة والسوق! فهل تشكّل بديلًا أم استمرارًا بنكهة جديدة؟ يقارن البعض نهاية «العالم الثاني» عام 1989، مع نهاية «العالم الثالث» عام 2009 مع الإعلان الرسمي عن ولادة مجموعة بريكس!

تعدُّ «الدولة» وحدة النظام الدولي وتشكيلاته؛ من منظّمات واتّحادات (الاتحاد الأوروبي، البنك الدولي...)، ومن مجموعات (G20، G7..)، تغطي هذه الكيانات مجمل ساحات الفعل والعلاقة الدوليين، وتعنى بقضايا مختلفة. بريكس واحدة من أكثر هذه المجموعات تأثيرًا وإثارةً للجدل، علمًا أنّها ليست حركةً موحّدةً تتبنّى نظامًا اقتصاديًا أو سياسيًا مشتركًا، تنتمي ثلاثة من أعضائها إلى ما يعرف بالدول الديموقراطية (الهند، البرازيل، جنوب إفريقيا)، بينما تحظى كل من الصين وروسيا بمقعد دائم في مجلس الأمن.

في مطلع الألفية جاءت تنبؤات جولدمان ساكس[1] تقول: إنّ اقتصاديات دول البريك (البرازيل، روسيا، الهند، الصين BRIC) يمكن أن تصبحَ قوّةً رئيسةً في الاقتصاد العالمي في حلول 2050، وإنّ العالم سوف يشهدُ نشأة كيانٍ يضمُّ هذه الدول مصداقًا لمقولة الكاتب الفرنسي فيكتور هوجو «لا أحد يستطيع مقاومة فكرة حان وقتها». في الواقع، أحدثت هذه الدول تغييرات هيكليّةً نهايةَ القرن العشرين وأحرزت نجاحات، بررت صعودها كما بررت التنبؤات. أوقفت البرازيل التضخّم، وأدخلت الهند إصلاحات شاملة، كما خرجت الصين سالمةً من الأزمة الاقتصاديّة الآسيويّة، ووضعت روسيا استراتيجيّةً لإعادة بناء وضعها الاقتصادي واستعادته بعد انهيار الاتّحاد السوفييتي.

هذا وحقّقتْ هذه الدول إنجازات اقتصاديّةً معتبرةً في المدّة 2001-2008: انضمّت الصين إلى منظمة التجارة العالمية، وبدأت عمليات التحديث على النمط الصيني، وشهدت البرازيل ازدهارًا اقتصاديًا غير مسبوق (تضاعف 4 مرات)، وباتت كلتاهما، الصين والبرازيل من بين الدول الدائنة عالميًا. باتت الصين ثاني أكبر اقتصاد، بينما احتلت الهند المرتبة الرابعة، وروسيا السادسة، أما البرازيل فقد جاءت في الترتيب الثامن.

من منظور غربي، ظلت بريكس تعاني هاجسًا عميقًا؛ الحاجة إلى إضفاء طابع رسمي، ومواجهة تحديات تتعلّق بمدى استقرار دولها الاقتصادي والسياسي، وما يعتري الأمر من شكوك حول إمكانيّة استمرار عمليّات الإصلاح الهيكلي.

حتّى اليوم عقدت المجموعة 14 لقاء قمّة، ومن المتوقّع أن تعقد القمّة الخامسة عشر قريبًا في جنوب إفريقيا (انضمت للمجموعة عام 2010)، وتهدف مجموعة البريكس إلى تعزيز التعاون والتنمية الاقتصاديّة بين الدول الأعضاء، وتعزيز دورها في النظام الاقتصادي العالمي. تتمتع الدول الأعضاء بموارد اقتصاديّة هائلة ونموّ اقتصاديّ سريع، وتعدّ بريكس أحد الأصوات المؤثّرة في الشؤون العالميّة، السياسيّة والأمنيّة. دعت دول المجموعة في الاجتماعات التمهيديّة ما قبل 2009، وفي القمة الأولى (يكاترينبورغ، روسيا 2009)، إلى عالمٍ أكثر ديمقراطيّة ومتعدّد الأقطاب على أساس سيادة القانون الدولي والمساواة والاحترام المتبادل والتعاون، والعمل المنسّق واتّخاذ القرارات الدوليّة بصورة جماعيّة وتشاركيّة.

في غضون 10 سنوات، تمكّنت بريكس من صياغة مشروع تعاونيّ كبير وتطويره، وعبرت عن رؤيتها الاستراتيجية البديلة متضمنةً قيم الاحترام المتبادل ومبادئه؛ صنع القرار الجماعي والإدارة المشتركة للشؤون العالمية، الالتزام بالقانون الدولي والتعددية، السلام والحل السلمي للنزاعات، الاستقرار الاقتصادي والاندماج الاجتماعي والمساواة، التنمية المستدامة والعمل المناخي الجماعي، التعاون المتبادل المنفعة مع جميع البلدان. ومنذ قمة 2012 دلهي التي كانت بعنوان «شراكة بريكس من أجل الاستقرار والأمن والازدهار العالمي»، أصبحت القضايا الأمنيّة تحتلّ مكانةً بارزة.

بريكس تتطوّر وتحرزُ تقدّمًا خطوةً بخطوة: اقتصاديًا تشكّل اليوم أسرع وأكبر اقتصادات الأسواق الناشئة؛ قد يكون لحصّتها المتزايدة في الناتج المحلّي الإجمالي والاستثمار الأجنبي المباشر والاتجاهات الديموغرافيّة تأثيرٌ كبيرٌ في تشكيل ديناميكيّات مستقبل العالم. سياسيًا وأمنيًا، تحظى المجموعة بنفوذ كبير فيما يتّصل بقضايا ومشاكل مرتبطة بالأمن العالمي (الطاقة والتنمية والمال والإرهاب والصراعات الإقليميّة والتدخّل العسكري، الانتشار النووي والجريمة المنظّمة والإلكترونيّة والفقر وتغيّر المناخ وما إلى ذلك).

تمثّل دول البريكس نحو 40٪ من إجمالي مساحة العالم، وهي موطنٌ لأكثر من 40٪ من سكانه، بما في ذلك أكبر خمس دول وأكثرها كثافة، وتهدف إلى أن تصبح قوّةً اقتصاديّةً

عالميّةً قادرةً على منافسة G7 التي تمثل 60٪ من الثروة العالميّة، في الواقع تجاوز معدل مساهمتها في الاقتصاد العالمي (نحو 32٪)، معدّل مساهمة مجموعة السبع (نحو 31٪).

ديناميات المجموعة: التوافق والاختلاف

مجموعةُ بريكس شديدةُ التنوّع؛ خمس حضارات قديمة غنيّة بتقاليدها الثقافيّة، نزاعات إقليميّة وحدوديّة حادّة، صراعاتٌ دينيّةٌ وعرقيّة، منافساتٌ اقتصاديّةٌ وسياسيّة، قد يبدو ذلك عيبًا أو نقصًا، ولكنّه أيضًا يمثّلُ نقطة قوّة!

بريكس ليست المجموعة الأهمّ بالنسبة لدولها؛ لكنّها تظلّ تجمّعًا ذي نفوذ اقتصاديّ وسياسيّ كبير عالميًا. تمتلكُ المجموعة نقاطَ قوّة كثيرة تبرّر ذلك: تشكّل 25٪ من الناتج الإجمالي العالمي، تمثّل 15٪ من التجارة العالميّة، تنخرطُ دولها في عضويّة مؤسّسات دوليّة متعدّدة الأطراف، تتمتّع بانفتاح تجاري، تمتلكُ قوى عاملة نشطة اقتصاديًا، غير أنّ المجموعة تعاني كذلك من نواقص وسلبيات، وتواجه تحدّيات جمّة: بنية تحتيّة غير كافية، الافتقار إلى إضفاء الطابع المؤسّسي، الطبيعة غير المتجانسة للمجموعة، وعدم وجود هُويّة متماسكة، الطبيعة الهشّة للروابط التجاريّة والاستثماريّة فيما بينها.

يعزو البعض الاختلافات الاقتصاديّة بين دول المجموعة إلى حقيقة أنّ كلًا منها يتبنّى استراتيجيّةً مختلفةً للنموّ الاقتصادي: اقتصاد الصين مدفوعٌ بصادراتها من المنتجات المصنعة، ودورها في سلاسل القيمة العالميّة؛ استهلاكها المحلّي محدود، ما يخلقُ فائضًا في حسابها الجاري حولها إلى دائنٍ دولي. اليوم تسعى الصين إلى تغيير نموذجها إلى نموذج قائم على الاستهلاك، وبينما يعدُّ الاقتصادُ الروسي موجّهًا للتصدير أيضًا، إلا أنّه يعتمدُ على موارد الطاقة، ما يجعله مسارًا غير مستدام، وبينما تتركز أكبر صادرات البرازيل في الزراعة، تتمتع جنوب إفريقيا بموارد طبيعيّة غنيّة (المعادن)، وتواجه تحدّيًا كبيرًا في النموّ الشامل والتوظيف.

تعاني دول المجموعة من توتّرات تجاريّة ثنائيّة، لا يمكن تخفيفها إلا من خلال عمليّة المواجهة والتفاوض والتعاون، وبينما لا تزال مجموعة البريكس تبحثُ عن أرضيّة مشتركة؛ يظلُ إضفاء الطابع المؤسّسي عليها يشكّلُ تحديًا رئيسًا بما في ذلك استراتيجية التوسّع.

ثمّة مشكلةٌ تتعلّقُ بهُويّة المجموعة، تعريفها، أهدافها، لا يوجد اتّفاق واضح، ليس للمجموعة هيكل مؤسّسي واضح باستثناء لقاءات القمة السنوية وما يصدر عنها من إعلانات، هذا وتفتقر آليات المجموعة الحالية إلى إشراك المجتمع المدني، الذي يُعرف بروابطه الوثيقة مع المواطنين ويمكن أن يكون مفيدًا عندما يتعلّقُ الأمرُ بتعبئة الناس لدعم مشروع البريكس التعاوني. أمّا الإشكاليّة المرتبطة بالتوسّع (ثمّة عددٌ كبيرٌ من الدول يرغب في الانضمام للمجموعة)، فتتمثّلُ في عدم وضوح معيار القبول وشرط الدخول؛ وعمّا إذا كان يدورُ حول الكفاءة الاقتصاديّة، أم حول النفوذ السياسي؟

استمرار بريكس في الوجود والتأثير مؤشّر على قدرة المجموعة على مواجهة التحدّيات؛ سواءً تلك الناجمة عن ضغوط دول المركز (الغرب)، أو الأزمات العالميّة (كورونا وحرب أوكرانيا)، أو التعارضات داخل المجموعة. تكتسبُ بريكس أرضيّةً قويّةً مشتركةً تؤهّلها لتأدية دورٍ أساسيّ في منظومة الحوكمة العالميّة؛ وهي تسعى لزيادة الإنفاق على البحث والتطوير، اعتماد الإصلاحات وتنفيذها بطريقة تطوّريّة وليست ثوريّة، أي زيادة التأثير والنفوذ بمسارات النمو طويل الأجل، واكتساب مصداقيّة سياسيّة وقيميّة بين دول العالم.

من الواضح أنّ بريكس تتجاوز تناقضاتها وتمأسس آليّاتها وتبنّي هُويّة مشتركة، وهي تتبنى نظريّةَ تغيير لا تقومُ على العداء أو السيطرة أو التنافس التناحري، وإنّما على أساس التعايش والانخراط في بناء نظام عالميّ جديد وتشكيله. على سبيل المثال، تعدُّ بريكس أنّ إنشاء مؤسّساتها الماليّة والاقتصاديّة الخاصّة بها (بنك التنمية الجديد 2014)، من شأنه أن يساعد في التغلّب على بعض قيود المؤسسات الدولية القائمة، وفي الوقت نفسه، يساعد على دفع النظراء الدوليين لإصلاح هذه المؤسسات، بالقدوة ومن خلال المنافسة. بالمقابل، هناك من يرى أن بريكس، تفقد بريقها وجاذبيتها؛ بسبب توقف النمو الاقتصادي، وتصاعد حدة الخلافات السياسيّة.

تتمثّل الفائدة الأبرز للمجموعة في دعم استقرار النظام داخل كل دولة بشكلٍ غير مباشر، مع تعزيز سلطتها الإقليميّة، وأيضًا ضمان الحماية من التدخّلات الخارجيّة غير المرغوب فيها. تواجه دول المجموعة تحدّيات محليّة تقلّل من قدرتها على إبراز قوتها (اضطرابات داخليّة، أو صراع على الهيمنة الإقليميّة، كما هو الحال بين الهند والصين).

في الواقع، تولّد بريكس لأعضائها قيمةً مضافةً بناءً على احتياجاتهم وتفضيلاتهم، وتعملُ دول المجموعة كتلةً سياسيّةً على مسرح العالم استنادًا إلى نظريّة المؤسّساتيّة العقلانيّة. بريكس ليست سوى «مجموعة»، وليست منظّمة، لذا، من المتوقّع أن تتوافق بشكل مباشر مع احتياجات وتفضيلات أعضائها. وعليه، لا توجد وكالة/شخصيّة مستقلّة لها بعيدًا عن دولها الأعضاء.

تمّ تصميمُ المجموعة وفقًا لمبادئ تشغيليّة تعزّز هذه الفوائد وتأمينها (مبادئ شبه مقننة في بلاغات القمم، وأخرى غير مقننة عبارة عن توجيهات داخل المجموعة)، انطلاقًا من إرثها التاريخي من حيث وقوعها ضحية الاستعمار، فتركيز المجموعة وتشديدها، غالبًا، على سيادة الدولة، وطالما أنّ مجموعة البريكس في شكلها الحالي توفّر هذه الفوائد، فإنّ استدامتها المؤسسيّة وأهميّتها لا تخضعُ لضغوط شديدة.

في الواقع، ينظرُ الكثيرون إلى بريكس باعتبارها مجموعةً لديها ما يكفي من القوّة والإرادة لتغيير العالم، وإن بدا أنّها مجموعةٌ من دول متنافسة شديدة الاختلاف، فلربّما هذا ما يجعلها قويّةً كفاية، فالتنوّع، كما يقول البعض، هو ما يميّز المجموعة، ويفتح أمامها الكثير من الفرص، ويكمل أعضاؤها بعضهم بعضًا (فرغم الخلاف الكبير بين الهند والصين حول مشروع الحزام والطريق أي على الهيمنة الإقليميّة، فقد اختار البلدان «شراكة الضرورة»، حيث يتعيّن عليهما العيش والعمل معًا بسلام من أجل المنفعة المتبادلة).

شكّلت «حرب أوكرانيا» تحدّيًا وجوديًا لبريكس من حيث انسجام المواقف والالتزام بالمبادئ المؤسّسة، وكذلك بانعكاساتها؛ فمن تأثير العقوبات الاقتصاديّة على روسيا وقدرتها على سداد التزاماتها لبنك التنمية الجديد، إلى اتّهام الغرب لدول المجموعة بأنها تمارس النفاق، وتحتكمُ إلى معاييرَ مزدوجة في مواقفها تجاهَ الغزو الروسي، علمًا أنّ هذه «التّهمة» كانت توجّهها دول المجموعة إلى الغرب. في النهاية احتكمت دول بريكس، في المحافل الدوليّة، إلى مصالحها الوطنيّة (فكانت الأفضليّة للبرغماتيّة على حساب المبادئ). من الانعكاسات أيضًا، تضرّر أجندة المجموعة المتخمة بالقضايا ذات الأهميّة: التنمية، المناخ، إصلاح النظام العالمي. شكل الغزو الروسي انتهاكًا لأحد أبرز مبادئ المجموعة: وحدة أراضي الدول وسيادتها وعدم جواز التدخّل في شؤونها الداخليّة.

يتبع!

• (1) جولدمان ساكس (The Goldman Sachs Group, Inc) هي مؤسّسة خدمات ماليّة واستثمارية أمريكيّة متعددة الجنسيّات، تُعدّ من أشهر المؤسسات المصرفيّة في الولايات المتّحدة والعالم، يقع مقرها في مبنى جولدمان ساكس الرئيسيّ، في شارع 200 غرب مانهاتن السفلى في مدينة نيويورك

تمرّد فاغنر..
قراءةٌ في الداخل الروسي

محمد أبو شريفة
كاتبٌ سياسيٌّ فلسطينيّ/ سوريّة

رسمتْ وسائلُ الإعلام الغربيّة صورةً سوداويّةً قاتمةً عن الأوضاع التي جرت في روسيا عشيّةَ تمرّد مجموعة (فاغنر) العسكريّة الخاصة 24 يونيو/حزيران الماضي، والاشتباكات التي كادت أن تحدث مع الجيش الروسي، لكن هذه الصورةُ القاتمةُ استدعت ردود أفعال روسيّة جاءتْ مغايرةً، ومن الواضح أنّ الإعلام الغربيّ تكلّم بما يشتهي أن يحدثَ، وليس بما حدث فعلًا.

فقد كانت الوقائعُ تكذّبُ كلّ معطيات العالم الغربي، وخير دليل على ذلك أنّ الوضع الداخلي الروسي لم يهتزّ قيد أنملة، وأيضًا ساحة الحرب لم تتأثّر بالهجوم الأوكراني المضادّ الذي بدأ منذ نحو شهرين، بل على العكس من ذلك، بقيت الساحة كما هي. ووفقًا لأرقام وزارة الدفاع الروسية، بين بداية يونيو/حزيران الماضي و9 يوليو/تموز، فقدت أوكرانيا ما يقرب من 1250 مركبةً مدرعةً (بما في ذلك الدبابات)، وما يقرب من 950 مركبةً عسكريّةً أخرى، و29 قاذفةً مدفعيّةً صاروخيّة، و425 قطعةً مدفعيّة وقذائف هاون، ونظامين للدفاع الجوي، وأكثر من 500 طائرة دون طيار، و22 طائرة، و6 طائرات هليكوبتر.

وراهن الكثير من المراقبين على إمكانية نشوب حرب أهليّة لا تبقي ولا تذر، وتهدد وحدة البلاد التي يعيش بها 190 مجموعةً عرقيّةً، وتستنزف قدراتها، خاصّةً بعد تقدّم مئات الآليات العسكريّة تجاه العاصمة موسكو، وإشاعة أخبار عن مغادرة الرئيس الروسي مقرّه في العاصمة تجاهَ مدينة سانت بطرسبورغ، حينها استولت قوات مجموعة (فاغنر) العسكريّة الخاصّة، على مقرّ المنطقة العسكريّة الجنوبيّة في مقاطعة روستوف على نهر الدون، وأقامت الحواجز على مداخل المدينة ومخارجها، وهدّدت بعدها بالتقدّم نحو موسكو، لإسقاط القيادة العسكريّة في وزارة الدفاع، ووصف الرئيس الروسي فلاديمير بوتين تصرفات المتمردين بأنّها مغامرةٌ إجراميّةٌ وطعنةٌ في ظهر روسيا وخيانة، وفتح جهاز الأمن الفيدرالي الروسي قضيّةً ضد يفغيني بريغوجين مؤسس (فاغنر) بموجب تهمة تنظيم «عصيان مسلّح».

لقد أشاع الغرب ادّعاءاته ووظّفها في محاولة لإحداث اختراق فعليّ في بنية الدولة الروسيّة وعلاقتها الداخليّة، فتجنّدت وسائل الإعلام الغربيّة المرئيّة والمسموعة والمكتوبة في نشر تقاريرَ زائفة تتحدّث عن صدع كبير في بنية الدولة الروسية، وأن الرئيس بوتين يمر بأوقات صعبة، رغم أن الإعلام الغربي وصف محاولة التمرد «بأقصر محاولة انقلابيّة في التاريخ». ومن المرجح أن كل هذا الضخ الإعلامي كان يهدف إلى إسناد الجبهة الأوكرانية، وربما كان تمرد (فاغنر) بدايةً لحملة واسعة تستهدف وحدة البلاد، بحيث لا يستطيع أحد إيقافها إلا أن احتواء الكرملين لهذا التمرد وبمساندة بعض المقربين من السلطة في موسكو لا سيّما الرئيس البيلاروسي ألكسندر لوكاشينكو أدّى إلى محاصرة الأمر الذي كاد أن يقع ويذهب بالأحوال إلى تعقيدات مجهولة المصير وخسارات جسيمة. وقالَ في بيان له: إنّه «يوجد خيار مقبول ومريح لحل الموقف مع ضمانات أمنيّة لمقاتلي فاغنر»، وذهب البعض إلى التساؤل: لماذا قبل الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بالوساطة بينه وبين قائد ميليشيا انقلابية؟ هل هو حقنًا للدماء، كما صرح قائد (فاغنر) بريغوجين؟ أم كانت الخطوة لقطع الطريق أمام داعمي (فاغنر) من الخارج؟ لا سيّما أن المراقبين يعلمون جيّدًا بأنّ روسيا لم تخسر أي حرب خارج حدودها؛ فالحروب التي تؤثّر عليها هي حروبها من الداخل، واتفقت مجموعة من المحللين الغربيين على أن تسوية الأمر وإخماد التمرد على وجه السرعة لا يعدو أن يكون مرحليًا، وأن الضرر قد لحق بالفعل بصورة بوتين وبحكمه وسيكون لها تداعياتها.

وضمن معادلة درء الخطر ورد الفعل المنتظر كان هنالك تنازل من الطرفين، حيث لاحظ الجميع تنازل بريغوجين عن كل شيء يتعلّق بفاغنر بعد تورطه بعملية التمرد وتم إبعاده خارج البلاد. وفي المقلب الآخر تحفّظ أنصار بوتين على الأسلوب الذي تعامل به في هذه القضية الخطيرة مع بريغوجين، والتوقّعات تقول بتراجع شعبيته بحسب مراقبين؛ لأنه لم يعتقله ويعاقبه. لكن الغالبية ترى أن مثل هذا النوع من التنازلات يتم من أجل مصلحة البلاد والحفاظ على استقرارها. ومن ثَمّ وفقًا للشعب الروسي فقد انتصرت روسيا الدولة بعدم نشوب حرب أهليّة مدمرة، وطمأن بوتين الشعب بتصريحاته وأكد عن بالغ ثقته بنجاح خطط بلاده في أوكرانيا، وأنّه «لا يغفر الخيانة» بأي شكل من الأشكال، خاصّةً أنّها تمسُّ أمن روسيا القومي ومكانتها باعتبارها دولةً كبرى على الساحة العالمية. لذلك تم التنازل عن ذلك ضمن حدود وسقف معينين، حتى إن بعض المصادر المطلعة، قالت إنّ بوتين رفض خروج بريغوجين إلى السعودية أو الإمارات أو تركيا، فقد أراد أن يبقى في بيلاروسيا؛ لأنّها حليفة لموسكو وستبقى (فاغنر) تحت المراقبة الروسيّة رغم أنّه مبعد، ولم تلبث حرب التصريحات أن تأخذ مداها حتى صب بريغوجين جام غضبه على توجيه الاتهامات ضد القيادة السياسية

الروسية وضد وزير الدفاع ورئيس الأركان وطالب بمحاسبتهما والتشكيك بنتائج الحرب على أوكرانيا حتى إنّه وصف حلف الناتو «بالصديق ولا يشكّلُ خطرًا على روسيا»، ما يشير إلى توتّرٍ شخصيّ بينه وبين وزارة الدفاع الروسيّة بقيادة سيرغي شويغو؛ الأمر الذي انعكس على الأرض بمحاولة تمرّدٍ سرعان ما فشلت.

وعملت فاغنر سنوات مجموعةً لتقديم خدمات أمنيّة لأنظمة دولٍ في جميع أنحاء الشرقِ الأوسط وأفريقيا، وفي الآونة الأخيرة كانت تتجه نحو أميركا اللاتينيّة ومنطقة البحر الكاريبي، وتضمّ فاغنر أكثر من 30 ألف مقاتل.

وبعد مرور أسابيع على حادثة التمرد وفشل الهجوم الأوكراني المضاد تراجعت وسائل الإعلام الغربية من حدتها، لكنّها بقيت تعزف على الإيقاع نفسه، فهي تتحدّثُ بغير الوعي الغربي عبر أمنيات تكاد تكون مفارقةً للواقع، فإذا دقّقنا في الوضع الداخلي الروسي وعبر مؤشّرات عدّة نجد أنّ روسيا ما تزالُ ترسمُ استراتيجيّاتها بالتعامل مع الغرب، والتعامل مع ميادين الحرب في أوكرانيا بالإيقاع ذاته، وتشهد العديد من المؤشّرات على ذلك، حيث نلحظُ أنّ المؤشّر الاقتصادي الروسي يؤكّد على متانة القدرة الاقتصاديّة رغمًا من كل الحصار المضروب والعقوبات المفروضة عليه، فهو ما يزال اقتصادًا حيويًّا وقادرًا على الثبات والتطوّر، فيما المؤشّر العسكري يؤكّد أنّ المؤسسة العسكريّة الروسيّة قادرةٌ على صدّ الهجمات الأوكرانيّة المدعومة غربيًا، وحتى الإعلام الغربي يتحدّث عن فشل هذا الهجوم وهزالة الجاهزيّة العسكريّة الغربيّة في ساحة المعركة، واستمرار نقل أسلحة متطوّرة أو محرّمة دوليًّا إلى أوكرانيا من شأنه إجبار روسيا على اتّخاذ إجراءات للرد، وتاليًا لن يؤثّر على مسار العمليّة العسكريّة الخاصّة. أمّا المؤشّر السياسي، فكل الدلالات تؤكّد أن السلطة السياسيّة بقيادة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين ما تزال تمسكُ بكلّ خيوط اللعبة.

وأمام تلك المؤشّرات جميعًا يتساءل المراقبون عن جدوى استمرار الحرب دون قيود، فمن المؤكّد أنّ الغرب استنزف مخزونه الاقتصادي والعسكري والسياسي مستخدمًا ساحة أوكرانيا لإخضاع روسيا، وفرض شروطٍ وإملاءات عليها، وبعد أن تجاوزت الحربُ الـ 500 يوم وأكثر، بدأت بعض ملامح اللغة العقلانيّة تظهر خاصّةً بعد تصريحات الرئيس الأميركي جو بايدن الأخيرة في قمّة الناتو، التي أشار فيها إلى استحالة قبول عضوية أوكرانيا في الناتو في ظلّ الحرب، وبرّر الاستحالة بالقول: إنّ قبول العضويّة يجبر دول الناتو على خوض حربٍ مع روسيا، وهذا غيرُ مطروح على الطاولة. وبهذا الشأن قال زيلينسكيّ، إنّ «الرئيس الأمريكي، جو بايدن، يمكن أن ينهي النزاع في أوكرانيا في غضون خمس دقائق فقط»، واستدرك قائلًا: إنّ ذلك سيكون على حساب التنازل عن أراضينا، لكن كييف لن توافق على مثل هذه الخطوة، على حدّ قوله.

واعترفت جميعُ وسائل الإعلام الأميركيّة ومعظم الغربيّة الرئيسيّة بأنّ الهجوم المضاد لأوكرانيا قد تعثّر، مع فشل كييف وحلف شمال الأطلسي في التأثير على الخطوط الدفاعيّة الروسيّة؛ الأمر الذي دفع واشنطن مؤخّرًا إلى الموافقة على إرسال القذائف العنقوديّة المحظورة دوليًّا إلى زيلينسكي، لتعويض نقص الذخائر لديه، وسط انتقادٍ ولوم أوكراني مستمرّ للحلفاء الغربيين؛ بسببِ بطء وصول الأسلحة، ما يعيق بدء الجيش الأوكراني بشنّ هجماته في مناطقَ عدّة.

وضمن السياق تعالت أصواتٌ غربيّةٌ تنتقد الدعم الغربي غير المحدود لأوكرانيا في ظلّ الإخفاق العسكريّ في ساحة المواجهة، فبعد أكثر من أربعين يومًا على الهجوم المضادّ تتحدّث القوّات الأوكرانيّة عن استعادة 194 كيلومتر مربع فقط من إجمالي مساحة مئة ألف كيلومتر مربع تمّت السيطرة عليها من الجيش الروسي، ونتساءل بداهةً هنا كم يلزم القوات الأوكرانيّة من الوقت لاستعادة كامل الأرض؟!

وثمّةَ مؤشّراتٌ واضحةٌ تدلُّ على خفوت الصوت المنادي باستمرار المعركة، وتشير بعض التقارير إلى مطالبة أوكرانيا بالنزول عن الشجرة والدخول في عملية تفاوضٍ دون شروط.

أمامَ كلّ هذه المعطيات الماثلة اليوم بالإضافة إلى كون روسيا هي إحدى الدول العظمى التي تحتفظ بالعضوية الدائمة في مجلس الأمن الدولي، وهي من دول حقّ النقض الفيتو إلى جانب الولايات المتّحدة الأميركيّة والصين وفرنسا وبريطانيا، وعلى مجريات الحرب في أوكرانيا، ومحاولة التمرّد الفاشلة تنتقل المواجهة بينها وبين الغرب إلى مرحلة توتّرٍ جديدة ربّما تنذر بحربٍ لا تقتصر على روسيا وأوكرانيا فقط، فمن المؤكّدُ أن الدولة الروسيّة وعلى الرغم من كل المآزق والمصاعب التي تمر بها إلا أنّها قادرةٌ وحدَها على إدارة المعركة مع الغرب مجتمعين.

التّحدّيات الجيوسياسيّة لمشروع «النظام الشرق أوسطي»

في إطار العولمة الإمبرياليّة وأخطاره على القضيّة الفلسطينيّة وعلى الهُويّة العربيّة

عليان عليان
باحثٌ وكاتبٌ سياسيّ/ الأردن

بعد انهيار الاتّحاد السوفياتي في مطلع تسعينات القرن الماضي، والعدوان الثلاثيني على العراق عام 1991؛ تكرّست الهيمنة القطبيّة الأمريكيّة على العالم بشكلٍ متفرّد، وباتت الدول الأوروبيّة أكثر تبعيّةً للولايات المتّحدة، ناهيك أنّ المنظّمات المنبثقة عن اتفاقية «بريتون وودز» بعد الحرب العالميّة الثانية، وهي (صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظّمة التجارة العالميّة التي حلّت محلّ اتفاقيّة الجات) والشركات المتعدّية الجنسيّة، أصبحت أداةً رئيسيّةً للهيمنة الأمريكيّة وللعولمة الإمبرياليّة.

وقد بات واضحًا بعد انتهاء الحرب الباردة، وفي ضوء المتغيّرات الجديدة، أنّ العولمة باتت تعني حالة الانتقال إلى مرحلة القطبيّة الواحدة والمسيطرة؛ أي أحادية الجانب الأمريكي على الصعد الاقتصاديّة السياسيّة والعسكريّة، وتفرّد الولايات المتّحدة بمقاليد السلطة العالميّة؛ أي تشكّل نظام عالمي جديد بقيادتها - القطب الرئيسي والأوحد في تلك المرحلة - بعد أن أرهبت العالم بقوّتها العسكريّة ذات التقنية العالية، التي برزت قوّةً طاغيةً في حرب عاصفة الصحراء ضد العراق(1).

لقد سعت الولايات المتّحدة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، إلى إقامة نظام إقليميّ جديد تحت مسمى «الشرق الأوسط الجديد» نظامًا فرعيًا للعولمة الإمبرياليّة الأمريكية، تتحقق من خلاله المصالح الاستراتيجية الأمريكية، ومصالح الكيان الصهيوني ووجوده الآمن، بحيث يؤدي هذا الكيان دورًا محوريًا في هذا النظام، عبر اندماجه في المنطقة، وبما يؤدّي إلى إحلال الهُويّة الشرق أوسطية محلّ الهُويّة القوميّة العربيّة، في ضوء إجراء اتفاقات سلام مرتكزة على علاقات ومشاريع اقتصاديّة مشتركة.

وبصدد مشروع الشرق الأوسط الجديد نشير إلى ما يلي:

أوّلًا / الولايات المتّحدة تسخّر العولمة في المنطقة لمصلحتها بحكم امتلاكها أدوات القوة ووسائلها بمعناها الشامل، وخاصةً وسائل الردع والقوّة العسكريّة، فإنّها عملت منذ سبعينات القرن الماضي على ما يأتي:

١. عملت على تسخير «العولمة» لصالحها، وبوسعنا القول: إنّ الخطط والأطروحات المتتابعة التي يشهدها العالم بشأن العولمة وتطوّراتها، إنّما ترتبطُ عمومًا بالمشروع السياسي الأمريكي الساعي لتوحيد العالم من خلال «رأسماليّة السوق» (Marketing Capitalism). وأوّل الخطوات التنفيذيّة لهذا المشروع، هي الحربُ التي شنّتها الولاياتُ المتّحدةُ وحلفاؤها وأدواتها على العراق عام 1991، التي كانت أشبه بحربٍ عالميّةٍ شنّها الشمال الذي تقوده الولاياتُ المتّحدةُ على الجنوب، بعد أن حوّلت أوروبا واليابان إلى تابعين لها.

٢. عملت على بسط نفوذها على «منطقة الشرق الأوسط»، وذلك بحكم موقعها الحيوي في العالم، فمنطقة الشرق الأوسط كانت ولا تزال أعظم منطقة استراتيجيّة بالنسبة إلى مصالح الولايات المتّحدة، التي لم تتوقّف يومًا عن دعم الأنظمة السياسيّة الموالية لها، ناهيك عن تبنّيها الكامل (لإسرائيل) منذ اغتصاب المنظّمات الصهيونيّة لفلسطين عام 1948.

ولا تقلُّ أهميّة الشرق الأوسط في التفكير الاستراتيجي الأمريكي، عن أهمية أمريكا الوسطى والكاريبي وحتّى أوروبا، حيث ستبقى (إسرائيل) هي الحليف المركزي للولايات المتحدة والمرتبطة بها عضويًا، من خلال اندماج متنوّع في طبيعته وسري في تكوينه ومتعدّد في أبعاده.

ثانيًا / مشروع الشرق الأوسط الجديد:

لقد عملت الولايات المتّحدة منذ مطلع تسعينات القرن الماضي، وخاصّةً بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكيّة، على خلق ترتيبات إقليميّة، تتلاءم مع الرؤية الاستراتيجيّة الأمريكيّة لفترة ما بعد انتهاء الحرب الباردة، لإقامة نظام إقليميّ جديد - عولمة فرعيّة للعولمة النيوليبراليّة الأمريكيّة - تحت مسمى «مشروع الشرق الأوسط الجديد» بحيث تكون «السوق الشرق أوسطيّة» «والتعاون الاقتصادي الإقليمي» أهم ركيزتين لهذا النظام، وأن تضطلع (إسرائيل) فيه بدور الشريك(2).

يمكن الجزم، بأن الحربين التي شنتهما الولايات المتحدة وحلفاؤها وأدواتها على العراق عامي 1991، 2003 تندرجان في إطار تحقيق هدفين هما: ضمان أمن الكيان الصهيوني، وخدمة الاحتكارات الأمريكيّة في مجال النفط وغيره، وكلا الهدفين يصبّ في إطار الشرق الأوسط الجديد.

إذ إنه وبعد سنة واحدة من غزو العراق (2003)، وحسب ما ورد في صحيفة «الفاينانشال تايمز»، زادت أرباح شركة هاليبرتون 80 في المائة، وزادت أرباح شركة «شيفرون تيكسيكو» 90 في المائة، أمّا أسهم شركة صناعة الأسلحة «لوكهيد مارتن» فزادت 300 في المائة منذ تولي جورج بوش الابن الحكم، وبعد سنة على غزو العراق(3).

كما يمكننا الجزم بأن غزو العراق، والجهود الأمريكية لتصفية القضيّة الفلسطينيّة بدءًا من مؤتمر مدريد (1991) مرورًا باتفاقات أوسلو (1993) ومعاهدة وادي عربة الأردنية الإسرائيلية 1994، والقمم الاقتصادية للشرق الأوسط وشمال إفريقيا في الدار البيضاء (1994) وعمان (1995) والقاهرة (1996) ثم مبادرة السّلام العربيّة عام 2002 وخطّة خارطة الطريق لتسوية الصراع في شقّه الفلسطيني الإسرائيلي عام 2003، ومؤتمر أنابوليس عام 2007، وصفقة القرن 2020، يضاف لذلك

الحرب التي شنّتها (إسرائيل) على لبنان عام 2006 والحروب الإسرائيليّة المتتالية على قطاع غزة (2008، 2012، 2014 ، 2023)، والربيع العربي المزعوم، والحرب الإمبرياليّة العدوانيّة والرجعيّة على سوريّة منذ عام 2011، واتفاقيات التطبيع الإبراهيميّة منذ عام 2020.. إلخ، يمكننا الجزم بأنها تندرج كلها في إطار خلق الظروف وتهيئة الأجواء لإقامة مشروع الشرق الأوسط الأمريكي.

ثالثًا / الأهداف الأمريكيّة المتوخاة من مشروع « الشرق أوسط الجديد» وتتمثّل فيما يأتي:

1- سعي الولايات المتحدة لإحكام سيطرتها الجيوسياسيّة على المنطقة، وتوظيف مبرر الحفاظ على أمن الخليج لإحكام هذه السيطرة من جانب، ولتعزيز وضعها الاقتصادي عبر الاستحواذ على ثروات المنطقة من جانبٍ آخر، ولتكريس هيمنتها على النظام الدولي من جانب في مواجهة القوى الصاعدة (ألمانيا في أوروبا، واليابان والصين في آسيا) من جانب ثالث، والحفاظ على أمن (إسرائيل) وتمكينها، من أن تؤدي دورًا رئيسيًا في هذا المشروع من جانب رابع. كما أن مشروع الشرق أوسط الجديد، يأتي امتدادًا لمحاولات الولايات المتّحدة الأمريكيّة السابقة لإزاحة النفوذ الأوروبي من المنطقة، واستكمالًا لمشاريعها، وتحديدًا مشروع الرئيس الأمريكي الأسبق «أيزنهاور» «لملء الفراغ»، الذي طرحه بعد العدوان الثلاثي الفرنسي البريطاني الإسرائيلي على مصر عام 1956.

تجدرُ الإشارةُ هنا إلى أن (النظام الشرق أوسطي) (والسوق الشرق أوسطية) مصطلحان جرى التركيز عليهما في وسائل الإعلام، منذ انتهاء الحرب الباردة، وخاصةً منذ عام 1993 وهو العام الذي جرى فيه توقيع اتفاق أوسلو، بين منظمة التحرير الفلسطينية (وإسرائيل) عام 2003.

في ضوء ما تقدّم، يصبح من السهولة معرفة الهدف الأساسي من وراء عمل الولايات المتحدة (وإسرائيل)، على ربط قضية (السلام) أو تحديدًا: تسوية الصراع بين العرب (وإسرائيل) بمسألة التعاون الاقتصادي، من خلال النظام الشرق أوسطي، إذ إنّه من خلال هذا الربط يمكن تجاوز العناصر الحادة في الصراع، وخصوصًا الجوانب المتعلّقة بالقضيّة الفلسطينيّة، وإيجاد حالة من التعاون والترابط المتبادل، بما يجعل البلدان العربيّة «أكثر طواعية» للمصالح الاستراتيجيّة الأمريكيّة، في عصر العولمة الاقتصاديّة والاحتكار التقني، بحيث تصبح مجموع الخطط الاقتصاديّة، ومشاريع البنية الأساسيّة، رابطًا رئيسيًا بين بلدان المنطقة و(إسرائيل) وتركيا على نحوٍ لا فكاك منه، أو بالأحرى على نحو يجعل «كلفة الانفصال» باهظةً جدًا بالنسبة للدول العربيّة، التي تريدُ أو تودّ الانسحاب من إسار الترتيبات الإقليميّة الجديدة(4).

2- لقد أدركت الولاياتُ المتّحدة، أن تحصين السلام بين الدول العربيّة (وإسرائيل) لا يمكن ضمانته كليّةً في إطار الاتفاقات، والمعاهدات والترتيبات الأمنيّة والتمثيل الدبلوماسي وغير ذلك من إجراءات السلام.. إلخ؛ لأنّ هذا «السلام» قد يتحوّل إلى سلام باردٍ وهشّ، وأنّ الضمانة الحقيقيّة لإنهاء الصراع العربي مع (إسرائيل)، تكمنُ في إقامة قاعدة عريضة من الترتيبات والمشاريع الاقتصاديّة بين (إسرائيل) والدول العربيّة، «كمشروع قناة البحرين» الذي يربط بين البحر الأحمر والبحر الميت، واتفاقية شراء الغاز من قبل الأردن من (إسرائيل) والمدن الصناعيّة المؤهّلة في هذا القطر العربيّ أو ذاك، التي تشارك (إسرائيل) فيها إلخ.. بما يفضي إلى نوعٍ من السلام الحي والديناميكي.

وهكذا، فإنّ الولايات المتّحدة تعطي أهميّةً استثنائيّةً للشرق الأوسط ، باعتباره ميدانًا رئيسيًا للهيمنة والنهب الإمبريالي للثروات؛ ذلك أنّ الترتيبات الاقتصاديّة التي يجري تنفيذها في إطار النظام الاقتصادي الشرق أوسطي وتلك المقترحة، التي يجري شنّ الحروب الأمريكيّة والإسرائيليّة من أجلها (العدوان على العراق عامي 1991 و 2003، والعدوان على لبنان في حرب تموز 2006، والعدوان في حروب متّصلة على قطاع غزّة في الأعوام 2008، 2012، 2014 الخ) هي جزءٌ من فهم أمريكيّ صهيونيّ مشترك، لتنمية روابطَ اقتصاديّة إقليميّة تحقّقُ المصالح الحيويّة للولايات المتّحدة (وإسرائيل).

ويرتكزُ هذا المفهوم على أن تكون (إسرائيل) المركز الإقليمي لهذا الفضاء الاقتصادي الشرق أوسطي، على أن يتمّ تكوين هذا الفضاء بعد سلسلةٍ من الخطوات أبرزها(5):

١.إخضاع المنطقة للهيمنة والسيطرة الأمريكيّة، ووضع المنطقة كلّها تحت هذه الهيمنة والسيطرة.

٢. فرض الكيان الصهيوني (إسرائيل) وإدماجه استراتيجيًا بالمنطقة العربيّة من أجل الهيمنة على مقدّراتها الاقتصاديّة.

٣.إنهاء المقاطعة الاقتصاديّة العربيّة (لإسرائيل) وللشركات المتعاملة معها.

٤.تطبيع العلاقات الاقتصاديّة العربيّة مع (إسرائيل) ثمّ تطبيع العلاقات السياسيّة معها .

٥.وضع التعاون الإقليميّ تحت المظلّة الأمريكيّة.

يضاف إلى ما تقدّم، فإنّ مشروع الهيمنة الإمبراطوريّ الأمريكيّ الذي يتفرّع منه النظام الشرق أوسطي يستهدف ما يأتي (6):

1- السيطرة على منابع النفط وعلى البرزخ القائم بين شرق البحر المتوسّط «بلاد الشام وبلاد الرافدين» والخليج لدقّ إسفينٍ جيوسياسيّ يفصلُ العوالم الثلاثة «العربيّ والتركي والفارسي» بعضها عن بعضها الآخر، تدبيرًا استراتيجيًا استباقيًا لمنع تضامن العوالم الثلاثة في مواجهة مشروع الهيمنة الإمبراطوري الأمريكي.

2- إعادة تشكيل المنطقة العربيّة سياسيًا وثقافيًا، على نحو يؤدّي إلى تفتيت كيانات «سايكس — بيكو» لدويلات أو جمهوريات هزيلة وهزليّة تقومُ على أسسٍ مذهبيّة وقبليّة، فتكونَ بذاتها حدودًا آمنةً (لإسرائيل).

3- تصفية قضيّة فلسطين وفق شروط (إسرائيل) بإقامة كيانٍ فلسطينيّ هزيلٍ بلا سيادةٍ ومجرّدٍ من السلاح، وحرمان اللاجئين الفلسطينيين من حقّ العودة.

4- أمركة سائر دول المنطقة بإقامة نظم «ديمقراطية!» تابعة وفق المواصفات الأمريكية تعتمد اقتصاد السوق وحرية التجارة، وتنفتح على العولمة بما هي «الأمركة»، وتكون ممسوكةً بواسطة طبقة سياسيّة، عمادها رجال الأعمال وحلفاؤهم من الجماعات المذهبيّة وأجهزة الاستخبارات وزعماء العشائر.

في ضوء ما تقدّم، فإنّ النظام الشرق أوسطي الجديد هو نظامٌ إقليميٌّ نقيضٌ للنظام القومي العربي، ونقيضٌ للهُويّة القوميّة العربيّة، يمكّن الولايات المتّحدة من الاحتفاظ بسيطرتها على المنطقة، خاصةً على الموارد النفطيّة والماليّة، وأنماط التصنيع والتقنيّة والتسويق والتمويل، وبذلك تتأكّد الهيمنة على نفط العرب ونمط تصنيعهم ونمط استهلاكهم، ونمط استثمارهم ونمط تجارتهم الداخليّة والخارجيّة (7).

رابعًا/ سبل حماية الهُويّة الثقافيّة الوطنيّة:

مثلما شكّل فقدان المناعة الاقتصاديّة مدخلًا لضرب السيادة والاستقلال وتهميش الهُويّة الثقافيّة وتذويبها في إطار هُويّة المركز الإمبرياليّ الرئيسي، فإنّ إعادة الاعتبار للاستقلال الاقتصادي، هو المدخل والممرُّ الإجباريّ للحفاظ على الهُويّة الثقافيّة والسيادة والاستقلال الحقيقي.

ومتطلّبات هذه المناعة ترتكزُ على أمورٍ عدّة:

1- التكامل الاقتصادي بين الدول العربيّة، وهذا الأمرُ يتطلّبُ إرادةً سياسيّةً قوميّة. لقد أقيمت مشاريع الوحدة الاقتصاديّة العربيّة وخططها عبر اتفاقات في جامعة الدول العربيّة منذ خمسينات القرن الماضي، لكنّها انتهت بالفشل؛ ارتباطًا بعوامل عدّة، أبرزها(8):

أ. غياب الإرادة السياسيّة لدى معظم قادة الدول العربيّة.

ب. ارتهان بعض الدول العربيّة للأجندات الغربيّة وتبعيّتها الاقتصاديّة للدول الرأسماليّة الغربيّة

ج. اختلاف النظم الاقتصاديّة والاجتماعيّة في بلدان الوطن العربي

2- التحصين الثقافي: بمعنى أن تعمل النخب الثقافيّة على خلق حالة من التحصين الثقافي للحفاظ على الهُويّة الثقافيّة القوميّة والوطنيّة، عبر التركيز على مفردات الانتماء والهُويّة والثوابت الوطنيّة والقوميّة، وأن تعمل الدول الوطنيّة على توظيف المناهج التعليميّة في خدمة للحؤول دون تحقيق الاختراق الثقافي المعولَم. وهنا نشيرُ إلى ما أكّده محمد عابد الجابري: بأنّه لا يمكن أن تكون هنالك ثقافة عالميّة واحدة، بل ثقافات، وأن للهُويّة الثقافيّة الجامعة، مستويات ثلاثة: هي فرديّة وجمعويّة ووطنيّة قوميّة، والعلاقة بين هذه المستويات، تتحدّد أساسًا بنوع الآخر الذي تواجهه، ولا تكتملُ الهُويّة الثقافيّة، إلا إذا كانت مرجعيّتها جماع الوطن والأمة والدولة (9).

3- تفعيل حركات المقاومة في الوطن العربي ضدّ المشروع الصهيو أميركي وضد الاحتلال الصهيوني لفلسطين وجنوب لبنان؛ إذ إنّ نجاح المقاومات العربيّة يفشل استهدافات العولمة على صعيد الهويّة، ويفشل مشروع الهُويّة الشرق أوسطيّة.

لقد أفشلت المقاومة اللبنانيّة مشروع الشرق الأوسط الجديد من بوّابة هزيمتها للعدوان الصهيو أميركي على لبنان عام 2006، ومن بوابة التصدّي والمقاومة له في فلسطين والعراق وسوريا وإيران، لكن الولايات المتّحدة رغم انسحابها الذليل من أفغانستان، ورغم انشغالها بالأزمة الأوكرانيّة في مواجهة روسيا، ورغم انشغالها في مواجهة التحدّي الصيني، تسعى لإعادة الاعتبار لمشروعها من بوابة إدامة الحصار على سورية وتفعيل حضورها العسكري في العراق وسورية، واستمرار تبنيها العملي لصيغة صفقة القرن الترامبيّة، واستمرار محاولتها لفرملة الاتفاق السعودي الإيراني ولإنجاز التطبيع الرسمي بين السعودية والكيان الصهيوني.

4- الديمقراطيّة الاجتماعيّة: كما أنّ النضال من أجل العدالة الاجتماعيّة والديمقراطيّة المرتبطة بها، في مواجهة الليبراليّة الجديدة، يحفظ للدولة هيبتها وكرامتها وهُويّتها الوطنيّة.

لقد وصل د. سمير أمين في أطروحة له بشأن الاستراتيجيّة المضادة للنهج النيوليبرالي المعولم إلى خلاصة مفادُها: «أنّه لا يمكن الفصل بين النّضال من أجل العدالة الاجتماعيّة والديمقراطيّة، ونظام دوليّ متعدّد المراكز، مشيرًا إلى أنّ الولايات المتّحدة تعرفُ ذلك، وهي لهذا السبب تحاولُ أن تفرض نظامها الدولي المسيطر بالقوّة العسكريّة محلّ القانون». وهي تعرفُ أنّ هذا هو السبيل الوحيد، لفرض «النظام الاجتماعي النيوليبرالي» الجائر، ومن ثَمّ تقضي على الديمقراطيّة حيثما وجدت، وتمنعها من الظهور في أي مكانٍ آخر. وعلى حركات المقاومة ونضالات الشعوب أن تفهم ذلك هي الأخرى، وأن تفهم أن مشروعاتها للتقدّم الاجتماعي والديمقراطيّة، لن يكون لها مستقبل، إلا بعد دحر مشروع السيطرة العسكريّة للولايات المتّحدة الأمريكيّة (10).

مراجع الدراسة:

١. بير كاسن، مقاتل بعنوان: «إنقاذ المجتمع» منشور في كتاب لمجموعة من المشاركين، بعنوان «العولمة — الطوفان أن الانقاذ»، تحرير فرانك جي وجون بولي، ترجمة فاضل جنكر، صادر عن المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية، مارس — آذار 2004، ص 37- 38.

٢. حسين معلوم، دراسة حول التسوية في زمن العولمة- التداعيات المستقبلية لخيار العرب الاستراتيجي، في إطار ندوة منشورة في كتاب «العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي، تحرير د. عبد الباسط عبد المعطي، مركز البحوث العربية والجمعية العربية لعلم الاجتماع، الناشر: مكتبة المدبولي، القاهرة، 1999، ص 118-119.

٣. عبد الحي زلوم، أزمة نظام «الرأسمالية والعولمة في مأزق»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2009. ص44.

٤. حسين معلوم، مصدر سابق، ص129- 130.

٥. حميد الجميلي، دراسات في التطورات الاقتصادية العالمية والإقليمية المعاصرة، أكاديمية الدراسات العليا والبحوث الاقتصادية، ليبيا — طرابلس، 1998م، ص 347.

٦. عصام النعمان — لبنان، ورقة بعنوان «نحو مواجهة مشروع الهيمنة الامبراطوري الأمريكي طرحت في المؤتمر القومي العربي في بيروت في نيسان 2003»، منشورة في جريدة الوحدة الأسبوعية الأردنية، عدد 92، تاريخ 18 حزيران / يونيو 2003، ص 11

٧. حميد الجميلي، مصدر سابق، ص 348

٨. عليان عليان، العولمة ليست قدراً: في مواجهة تحديات العولمة النيوليبرالية... ما العمل؟ دار فضاءات للنشر والتوزيع، ط 1، 2018، ص 144- 147.

٩. محمد عابد الجابري، ندوة العرب والعولمة، بيروت، كانون أول 1997، جريدة العربي، القاهرة، 29 كانون أول 1997، ص 299

١٠. سمير أمين - بحث تحت عنوان: البديل للنظام النيوليبرالي المعولم والمسلح- الإمبريالية اليوم وحملة الولايات المتحدة للسيطرة على العالم، منشور في كتاب «المجتمع والاقتصاد والعولمة»، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي، ص 26.

اقتـصـادُ الظّـلّ:
مكوّناتُـهُ وسـلبيّاتُـه

د. أدهم شقير
باحثٌ اقتصاديّ/ سورية

هو اقتصادٌ متنوّعُ الأشكال ومتعدّدُ الغايات، يعملُ وَفْقَ مبدأ السرّيّة، توجدُ فيه جميع أشكال العلاقات الاقتصاديّة (من بيع وشراء، دائنة ومديونيّة، ربح وخسارة...إلخ) توجد فيهِ كلّ أنواع الفساد والجريمة والأخلاق والبساطة، ومن ثَمّ لا نستطيعُ أن نجدَ له تعريفًا واضحًا ودقيقًا، لكن هناك عواملُ مشتركةٌ بين مكوّناته تستخدمُ لتمييزه عن غيره من أنواع الاقتصاد العامّ أو الخاصّ أو المشترك.

يتكوّن اقتصادُ الظلّ من مكوّنين أساسيّن؛ الأوّل: هو اقتصادٌ يتعاملُ بالسلع المشروعة، ولكن بأساليب غير قانونيّة، مثل التهريب أو العمل دون تراخيص مهنيّة، أو العمل بالسرّ دون الخضوع لرقابة الدولة، وهو يستفيدُ من منشآت الدولة والبُنى التحتيّة ولا يدفع للدولة ضرائب ورسومًا، وهو جزآن؛ الأول: يرتبط بمنشآت ثابتة جغرافيًا ومحدّدة مكانيًا كـ (الورش الصغيرة، معامل الخياطة البسيطة، الملاهي الليلية، مراكز الصرافة، بعض مراكز الخدمات المختلفة... الخ).

أمّا الجزءُ الآخر من هذا المكوّن، فهو غيرُ مرتبطٍ بمكانٍ جغرافيّ محدّد (الباعة الجوالون، خدم البيوت، عمال المزارع الموسميون، سائقيّ العمومي، الحرفيون الجوالون... الخ) هذا الجزء من اقتصاد الظلّ يعتمدُ على رؤوس أموالٍ قليلة، ويعتمدُ على الشكل العائلي بالعمل، حيث أن صاحب العمل هو المدير، ولا فصل بين الإدارة والملكيّة، كما أنّه يمتازُ بأنّ كل منتجاته تتوجّه إلى السوق الداخليّة والمواد الأوليّة اللازمة له ذات منشأ داخلي أمّا **أسباب وجود هذا النوع من الاقتصاد غير الرسمي:**

أ. ضعف النمو الاقتصادي، ومن ثَمّ عدم القدرة على خلق فرص عملٍ للقادمين إلى السوق.

ب. ندرة بعض السلع وانتشار السوق السوداء وارتفاع الأسعار المفاجئ يؤدّي إلى وجود البسطات والسلع المزوّرة غير المضمونة.

ت. عدم مرونة التشريعات الاقتصادية وواقعيّتها تؤدّي بأصحاب النشاط الاقتصادي إلى التهرّب من القانون والعلنيّة.

ث. سيطرة العلاقات الشخصية والفساد يؤدي بالناس إلى اللجوء للأبواب الخلفية والتحايل على القانون.

أمّا الإيجابيــات:

١. ساعد في حلّ أزمة البطالة.

٢. يؤمّن الاكتفاء الذاتي لبعض السلع والخدمات.

٣. زيادة دخل الأفراد وخلق فرص عملٍ كثيرةٍ مولدةٍ لفرص عملٍ أخرى؛ نتيجة انخفاض تكلفة فرص العمل.

أمّا المكون الأساسي الثاني للاقتصاد، هناك من يسميه بالاقتصاد الأسود، أو اقتصاد الجريمة؛ لأنّه نشاطٌ ممنوعٌ وسلعٌ ممنوعةٌ (مخدرات، سلاح، متاجرة بالبشر، يضاف إلى ذلك الفساد والتهريب وغسيل الأموال) ومن أسبابه: تراجع دور الدولة بمكافحة هذا الإجرام.

آثاره الاقتصادية يؤدي إلى تراجع الحركة الاستثمارية وانخفاض معدلات نمو الدخل القومي وزيادة معدلات التضخم، والأهم سوء توزيع الدخل القومي واتساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء والابتعاد عن العمل الإنتاجي، وما له من آثارٍ سلبيّة على المجتمع، وهذا النوع من الاقتصاد موجودٌ في كلّ دول العالم، ولكن بنسبٍ مختلفة.

إنّ خطر اقتصاد الظّلّ كبيرٌ على الاقتصاد الوطني بصورة كليّة؛ لأنّه يبقى خارج حسابات الدخل القومي وخارج إطار الخطط الاقتصاديّة وخارج إطار السياسات والبرامج؛ ما يُفقد هذه الخطط والبرامج مصداقيّتها وقدرتها على حلّ المشاكل.

بقي أن نقول إنّ نسبة اقتصاد الظلّ للاقتصاد النظامي تختلفُ من دولة إلى أخرى، تتراوح حسب الأوضاع العامة من 30٪ إلى حدود 80٪ في بعض الدول؛ ما أدّى إلى زيادة نسبة الفقراء وارتفاع أعدادهم وحصول تفاوتٍ اجتماعيّ كبير.

دوافعُ تجريمِ حركةِ التضامنِ مع فلسطين في أوروبا وآليّاتُها

حمدان الضميري
ناشطٌ فلسطينيٌّ وعضو الأمانة العامة لاتّحاد الجاليات والمؤسّسات الفلسطينيّة في أوروبا/ بلجيكا

في الوقت الذي تعرفُ حركة التضامن مع فلسطين في الساحة الأوروبيّة صعودًا وحضورًا متزايدًا يقلقُ أوساط اللوبي الصهيوني، وتجسّد هذا الصعود في الوصول لنتائجَ إيجابيّةٍ في تصويت العديد من المدن الأوروبيّة، مثل برشلونة في أسبانيا، وأوسلو في النرويج، ووارسو في بولندا، ولياج وفيرفيه في بلجيكا، على قراراتٍ تمنع التعامل مع سلطة الاحتلال، طالما هي تتبنى سياسات تمييزٍ وفصلٍ عنصري؛ أي تطبيقها لنظام أبارتهايد بحقّ أبناء الشعب الفلسطيني، نجدُ في المقابل حراكًا متزايدًا؛ يهدف لتجريم حركةً التضامن، وإلصاق التهم للنشاط بغير السامية والتهديد لاحقًا بملاحقتهم أمام المحاكم.

تعملُ أوساط اللوبي الصهيونيّ باستخدام سلاح الترهيب والتخويف بحقّ النشطاء، وبحقّ جمعيّات والتهديد بملاحقتهم أمام المحاكم، وهذا ما حصل في العديد من دول أوروبا، مثل فرنسا وألمانيا مع معرفتهم المسبقة أنّهم أمام معركةٍ خاسرة، وهذا ما جرى لمن تمّت ملاحقتهم، سواءً أفراد، وأحيانًا كانوا نشطاء يهود متضامنين مع الحقّ الفلسطينيّ في النضال.

تعملُ أوساط اللوبي الصهيوني الداعم لكيان الاحتلال على مستويات عدّة، ويمكن تلخيصها بالآتي:

المستوى الأوّل يكمنُ بتوسيع تعريف مصطلح «اللاسامية» ليشمل المبادرات المندّدة بالاحتلال وممارساته الاحتلاليّة اليوميّة من اعتقالاتٍ وتوسيعٍ متدرّج للاستيطان، وتبنّي قوانينَ تمييزيّةٍ وعنصريّةٍ بحقّ الفلسطينيين، وتدمير البيوت وممارسات الاغتيالات اليوميّة بحقّ جيل الشباب الفلسطيني؛ يعتمدُ اللوبي الصهيوني، وكلّ الأوساط المتواطئة معه على تبنّي تعريفٍ جديدٍ برز في الولايات المتّحدة، ويقفُ خلفه مؤسّسة صهيونيّة بارزة هناك اسمها IHRA أي التحالف العالمي لذاكرة الهولوكوست، الذي تتبنّى تعريفًا واسعًا لغير الساميّة، وهو تعريفٌ يضيفُ للتعريف التقليدي والتاريخي؛ أي إنّ غير السامية هي الممارسات المعادية والمناهضة لليهود؛ التعريف الجديد يعدّ انتقاد إسرائيل ومقاطعتها والتشكيك بوجودها هي مواقف غير سامية يجب ملاحقة القائمين عليها وإدانتهم أمام الجهات المختصة.

كذلك تم اعتماد وسائل التخويف وترهيب النشطاء وتخويف الجمعيات المساندة والناشطة، واستخدام تهمة «اللاسامية» وإلصاقها بهم، حتى إنّ حالات قضايا رفعتها أوساطٌ صهيونيّةٌ في فرنسا كان ضدّ نشطاء يهود معادين للصهيونيّة، هناك جهدٌ كبيرٌ يبذل للخلط ما بين غير السامية ومعاداة الصهيونية، وهذا نراه عند الكثير من الأوساط السياسية الرسمية.

بعد خروج هذا التعريف الجديد لمفهوم «اللاسامية» مورست الكثير من الضغوط هنا وهناك، وأسفرت على تبنيه عبر البرلمان الأوروبي في تصويتٍ قرارًا غير ملزم، ووافقت عليه أيضًا 20 دولة، منها 16 دولة أعضاء في الاتحاد الأوروبي.

سأتطرّق لثلاثة حالات ترتبطُ بما يجري في كلٍّ من ألمانيا وإنجلترا وفرنسا، وهي الدولُ الأكثر سكانًا في أوروبا كما هو معروف.

في ألمانيا، وهي صاحبة الماضي النازي الأليم، ومنذ نهاية الحرب العالميّة الثانية وهزيمتها فيها تجرّ ألمانيا ماضيها النازي، وتدفع ثمن ذلك لصالح إسرائيل، فقد دفعت ألمانيا منذ عام 1945 حتى عام 1981 ما قيمته 86،8 مليار دولار تعويضات لما لحق باليهود خلال فترة الحكم النازيّ في ألمانيا، كذلك وقفت إلى جانب إسرائيل ماليًا وسياسيًا ودبلوماسيًا، وصوّتت دائمًا لصالحها في مختلف المحافل والمؤسّسات الدوليّة.

بتاريخ 2019/5/17 تم تبني قرار فدرالي ألماني غير ملزم يدين حركة المقاطعة لإسرائيل، وفي القرار نفسه تمّت المقارنة بين ما تقوم به حركة المقاطعة (بي.د.س) تجاه إسرائيل، وما كان يقوم به النظام النازي تجاه اليهود، وفي القرار نفسه تمّ التأكيد على إدانة كلّ المواقف التي تشكّك

بوجود إسرائيل، وكذلك حقّها في الدفاع عن نفسها، وقد صوت لصالح هذا القرار الفدرالي كلٌّ من الأحزاب الرئيسيّة الثلاثة.

بعد تبنّي هذا القرار الفدرالي بوقتٍ قصيرٍ قدّم مدير المتحف اليهودي في برلين استقالته نتيجةَ الضغوط التي مورست عليه من قيادات الجالية اليهوديّة الألمانيّة؛ والسبب أنّه نشر على موقع المتحف نصّ العريضة التي وقّعها 240 مثقّفًا وباحثًا وأكاديميًا وفنانًا يهوديًا من ألمانيا ومن إسرائيل اعترضوا فيها اعتبار ألمانيا حركة المقاطعة (بي. د. س) حركة غير سامية ومعادية لليهود.

يضاف لذلك أنه في تاريخ 2023/5/20 وافقت محكمة برلين الإدارية على قرار البوليس الألماني بمنع مظاهرةٍ أُعلن عنها بمناسبة ذكرى النكبة الفلسطينيّة، وهنا لا بدّ من الإشارة بوجود جاليةٍ فلسطينيّةٍ مهمّةٍ تعيش في العاصمة الألمانيّة برلين، وقد اعتادت هذه الجالية على تنظيم المسيرات والوقفات بمختلف المناسبات الوطنيّة الفلسطينيّة، وهناك محاولاتٌ مستمرّةٌ من جهاتٍ رسميّةٍ ألمانيّة تسعى لوضع العراقيل أمام أي طلباتٍ تقدّم لها، كما جرى أيضًا منع العديد من الندوات والمحاضرات التي دعا لها مثقّفون داعمون لحركة المقاطعة ومنهم شخصيّات يهوديّة.

الحالة البريطانيّة، لقد تم منذ فترة قصيرة تبني قرار حكومي بريطاني ضد حركة المقاطعة لإسرائيل، وقد صدر هذا القرار الرسمي والحكومي على لسان السيد ميشيل قوف، وهو وزير دولةٍ في حكومة المحافظين التي يترأّسها ريشي سوناك، وفي تصريح للوزير المعني قال فيه ما يلي: حركة المقاطعة (بي. د. س) هي حركةٌ ضدّ إسرائيل، ولها هدفٌ واحدٌ وهو المس بشرعية إسرائيل باعتبارها دولة، وخاصة دولةً يهوديّة.

صدر هذا القرار المعادي، الذي يجرم حركة المقاطعة بتاريخ 2023/7/3 وقد صوّت عليه 268 نائبًا وعارضه 70 نائبًا وامتنع عن التصويت نواب حزب العمال ومعهم 82 من النواب المحافظين.

أخيرًا الحالة الفرنسيّة، عرفت فرنسا قبل غيرها من البلدان الأوروبيّة تشريعات تجرّم حركة المقاطعة لإسرائيل، فقد صدر مرسوم بتاريخ 2010/2/12 من وزيرة العدل آنذاك أليدة آليو ماري، الذي يطالب من الجهات القانونية؛ أي من المدعين العامين للجمهوريّة في مختلف المحافظات الفرنسيّة بملاحقة القائمين على مبادرات تدعو وتطالب بمقاطعة البضائع الإسرائيليّة، وفعلًا قام بعض المدعين العامين برفع دعاوي بحقّ نشطاء في حركة (بي. د. س) حتى إنّ أحد الضحايا من نشطاء المقاطعة تقدّم بدعوى ضدّ فرنسا أمام المحكمة العليا لحقوق الإنسان الأوروبيّة، التي مقرّها لكسمبورغ، وكان قرار هذه المحكمة إدانة الحكومة الفرنسيّة على مرسومها الصادر في 2010.

ولمواجهة قرار المحكمة الأوربيّة، أصدر وزير العدل الجديد في فرنسا السيد إريك دوبوة موريتي مرسومًا جديدًا يجرّم أي دعوةٍ لمقاطعة البضائع الإسرائيليّة، وهذا المرسوم يشرعن الحقّ بملاحقة نشطاء حركة المقاطعة (بي. د. س) في الساحة الفرنسيّة. وقد تمّ التصويت في البرلمان الفرنسي على مشروع يضيف تعريف التحالف العالمي لذأكرة الهولوكوست للتعريف المتداول لمعاداة السامية أي تعريف غير السامية، وحاز هذا التصويت على 154 مع و72 ضد و43 ممتنع.

ونتيجةً لعمل أوساط اللوبي الصهيوني في فرنسا وهي ناشطةٌ ومؤثّرةٌ في الأوساط السياسيّة والحزبيّة، صرّح ماكرون بتاريخ 2022/2/24 أنّه يدعم أن تكون القدس عاصمة الشعب اليهودي الأبديّة.

بعد صدور آخر مرسوم في فرنسا، الذي يندد بحركة المقاطعة، بدأنا نلحظ اتخاذ قراراتٍ إداريّةٍ في مدنٍ فرنسيّةٍ مختلفةٍ تمنع تنظيم ندواتٍ ومحاضراتٍ يشارك فيها محاضرون معادون للصهيونيّة، وهذا ما جرى مع المعتقل المبعد لفرنسا صلاح حموري، الذي ألغيت بعض الفعاليات التي كان من المقرّر مشاركته بها، حتى إنّ القائمين على إحدى هذه المحاضرات، وكانت بمدينة ليون الفرنسيّة، لجأ للمحكمة الإدارية بمدينة ليون لإلغاء قرار رئيس البلدية منع المحاضرة واستطاعوا الحصول على حكم قضائيٍّ منها يسمح بتنظيم هذه المحاضرة.

ما من شكٍّ أنّنا أمامَ معركةٍ مركّبة، وفيها تباينٌ بين مختلف الدول في الساحة الأوروبيّة وهي معركةٌ فيها الجانب السياسي والقانوني، وكذلك الجانب التشريعي أي العمل والنضال البرلماني. إنّ حركة التضامن الأوروبيّة تمتلك الكثير من أوراق القوّة وعليها تفعيلها للوقوف أمام هجمة تجريمها، وآخر هذه الأوراق المهمّة أنّ عدوّنا يتخبّطُ ويعيشُ مأزقًا وجوديًا على صعيده الداخلي في وقتٍ لا تلعبُ التحوّلات الدوليّة لصالح القوى العالميّة التي مثّلت حاضنته الأساسيّة.

اقتحامُ مخيّم جنين
في الحسابات الاستراتيجيّة الإسرائيليّة

أبو علي حسن
عضو اللجنة المركزيّة للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين/ سورية

منذ أن ظهرت كتيبةُ جنين إعلاميًا وميدانيًا بالصورة والصوت، وتتجمّل بالسلاح وتتزنّر بالرصاص، وتعلي من فكرة المقاومة، وتتوعّد الاحتلال، وتفارق سياسة السلطة الفلسطينيّة الداعية إلى المقاومة الشعبيّة السلميّة التي لم تردع الاحتلال من ملاحقة المقاومين ولا وقف الاستيطان؛ باتت جنين ومخيّمها في عين العاصفة بالنسبة للاحتلال، باعتبار أنّ مقاومتها تمثّل نقلةً نوعيّةً في مستوى الوعي المقاوم، وظاهرةً مفارقةً للواقع المثالي في الضفّة الذي يتعايش معه الاحتلال كونه واقعًا مقتصرًا على الاشتباك السلمي مع جنوده ومستوطنيه ومستوطني الاحتلال.

ومع ظهور مجموعة أو كتيبة عرين الأسود، وتصاعد عمليات الاشتباك مع مستوطني الاحتلال وجنوده، أدرك الاحتلال أن الظاهرة قد امتدت، وأن ظاهرة الكتائب المقاومة في جنين ونابلس ليست ظاهرةً معزولةً أو محدودة، إنّما هي ظاهرةٌ مقاومةٌ فاعلة، «ومؤسّسةٌ لخيار المقاومة الفارق تمامًا عن عجز لوظيفة السلطة الفلسطينيّة، ويعبّر عن رأيٍ عام جماهيري ملتفّ حول الكتيبة»، وأنّها بنيةٌ عسكريّةٌ وسياسيّةٌ وفكريّةٌ سوف تمتدّ إلى كل مناطق الضفة. وإذا ما تنامت فإنّها ستخلق وضعًا مغايرًا في الضفّة، قد يشعل الضفّة إلى انتفاضة شاملة لا تقلّ خطورةً عن الانتفاضات السابقة. وهنا فإنّ مجابهة هذا الوضع المستجدّ من قبل الاحتلال قد تداخلتْ فيه الأسبابُ المباشرة والاستراتيجيّة والداخليّة التي أفضتْ إلى قرار اقتحام مخيّم جنين.

ومع تصاعد عمليّات هذه الكتائب واستهداف الجنود والمستوطنين، بات الأمرُ بالنسبة للاحتلال أكثر خطورة، وأكثر إلحاحيّة في كيفيّة وأد هذا التشكيل العسكري المنظم، فأقدم الاحتلال مبكّرًا على وضع خطة أمنيّة قبل عام لاقتحام المخيّم، وقام بأكثر من تعديل على هذه الخطّة لتجنّب الثغرات أو الخسائر، وفي كلّ مرّة كان يجري تأجيل تنفيذ هذه الخطة بفعل التجاذبات والخلافات السياسيّة والأمنيّة لدى الكيان، إلا أن تدمير مركبة النمر المتطورة واستخدام العبوات الناسفة، وإطلاق صاروخ من المخيّم، قد أجج الدعوات لاقتحام المخيّم فورًا، باعتباره أصبح «بؤرة إرهاب».

كما بدأت الأحاديث الإعلامية عن تآكل الردع لدى المؤسسة العسكرية، وأنها لم تعد قادرةً على بسط الأمن ولا تحقيق الأهداف ذات الطابع السياسي أو الاستراتيجي، وكانت فرقة ما يسمى «يهودا والسامرة» قد طرحت فكرة اقتحام المخيم مبكّرًا في نيسان 2020 لكن هذه الفكرة المتطرّفة وذات الأهداف الاستراتيجيّة لم يؤخذ بها لأسباب سياسيّة داخليّة. وهنا استجمع الكيان الأسباب السياسيّة والداخليّة والاستراتيجيّة للقيام بعمل نوعيّ هجوميّ لاستعادة حالة الردع المتآكلة ضمن رؤية استراتيجيّة للسيطرة على «يهودا والسامرة»، حيث شارك في هذا الاقتحام أكثر من ألف جندي من الكوموندز، وعدد من القوات الجوية والمسيرات، ودور للاستخبارات والشاباك، وإشراف سياسي في محاولة لإثبات قدرة الجيش على الردع وتحقيق الأهداف المتوخاة من العملية.

البعد السياسي الداخلي وأزمة الكيان في اقتحام المخيم:

من المسلمات أن الكيان الصهيوني يعيش منذ أكثر من أربع سنوات في أزمة سياسيّة خانقة على وقع نتائج انتخابات الكنيست الأربعة التي لم تحسم أمر الحكومة لفريق واحد دون تعاون مع حلفاء آخرين، لديهم القدرة على تهديد ائتلاف الحكومة كلّما تطوّر الخلاف الداخلي.

وإذا كان نتنياهو قد استطاع أن يشكّل حكومةً للتحالف مع التيّارات الدينيّة المتطرفة أمثال سموتريتش، زعيم «حزب الصهيونية الدينية»، وبن غفير، زعيم «حزب قوة يهوديّة»، وإعطاء الأخيرين صفة الوزراء مع صلاحيات جديدة تتعلّق بدورهم في وزارة الدفاع والأمن الداخلي القومي. إنّ إعطاء هذه الامتيازات لهذه القوى الأكثر تطرّفًا لم يفقدها الشهوة في المزيد من التطرف والعدوانيّة تجاه الفلسطينيين والطلب المستمر باقتحام المخيّمات، ومحاربة ما يسمونه «الإرهاب الفلسطيني»، وهذا جزءٌ من أزمة داخليّة، بيد أنّ أزمة نتنياهو تتعلّق أيضًا بأزمة القضاء التي أحدثت تصدّعًا عاليًا في المجتمع الإسرائيلي، وخروج المظاهرات الألفيّة إلى الشوارع على نحو غير مسبوق، وصدور تصريحات تحذّر من حرب أهليّة في ظلّ عمليّة استقطاب حادة في الشارع الإسرائيلي ودخول المؤسّسة العسكريّة على خط الاستقطابات، واستقالة القنصل العام الإسرائيلي في نيويورك آسان زمير احتجاجًا على ما يسمّى إصلاحات القضاء.

كل ذلك وغيرها من تداعي الأزمات قد شكل خيارًا لدى نتنياهو وفريقه بالهروب إلى الأمام عبر الإقدام على اقتحام وتدمير المخيم، في محاولة تسكين الحالة الشعبيّة والتجاذب السياسي والأيديولوجي، ومحاولة لإبعاد شبح انفراط الحكومة من جهة، وازدياد تفسخ المجتمع الإسرائيلي من جهة أخرى، معتقدًا نتنياهو وفريقه «أنّ العداء والحرب على الفلسطينيين هو عامل وحدة المجتمع الإسرائيلي، وعامل بقاء الحكومة».

البعد الاستراتيجي الرؤيوي في اقتحام المخيّم:

تعدّدت الأسبابُ لدى الكيان، والهدف واحد، فلا يمكن تفسير اقتحام المخيم ببعد واحد، وبمعزل عن الرؤية الاستراتيجيّة التوراتيّة في تهويد وضم الضفة باعتبارها

«يهودا والسامرة قلب إسرائيل التاريخية»، هذه الرؤية لا ينكرها الساسة الإسرائيليّون، لا سيّما الصهيونيّة الدينيّة والتوراتيّة، التي هي اليوم الأكثر هيمنةً وتأثيرًا على المشهد السياسي الإسرائيلي الرسمي، وكذلك الحال لا ينكرها الساسة العلمانيون المتطرفون أمثال نتنياهو وغيره، لا سيما تصريحاته الأخيرة والواضحة والعلنية بقوله «إنّ لا دولة فلسطينية يمكن أن تنشأ»!! وهو الرافض لاتفاق أوسلو مبكرًا، والمقاوم لحلّ الدولتين.

وحين تُرفض كل الحلول المطروحة من قبل الكيان، فإنّ الحلّ المقبول لديه يتمظهر في «إسرائيل اليهوديّة» وقلبها يهودا والسامرة، أي كامل أرض فلسطين. وما معركة جنين، إلا في سياق إخضاع الشعب الفلسطيني لهذا الأمر الواقع والقبول بالكيان الموحد.

هذه الرؤية يجري تطبيقها وفق الظروف المواتية السياسية والأمنية والدولية، وضمن مخططات، ومدايات زمنية، وفقًا لنظريّة «كلّ خطوة هي أمرٌ واقعٌ مع الزمن». وفي السياق هذا، تُقام مستوطنات الأمر الواقع على محيط القرى الفلسطينيّة وقلب مدنها.. وفي هذا السياق أيضًا يجري اقتحام مخيم جنين وتدميره لكسر إرادة الشعب الفلسطيني التي تتحدى هذه الرؤية.

عقدة المخيّم وجنين:

لطالما شكّلت المخيّمات الفلسطينيّة معضلةً أمنيّةً وسياسيّةً واجتماعيّةً لدى الاحتلال على مدى عقود احتلاله لغزة والضفة، فمن جهة ما زالت المخيّمات في الضفة والقطاع وفي الدول العربيّة تمثّل من الزاوية السياسيّة، الشاهد الأكثر حضورًا وملموسيّةً على مأساة الشعب الفلسطيني، وعلى حضور «قضية اللاجئين» الذي تأسس عليها قرار حق العودة رقم 194، بل إنّ قضية اللاجئين والمخيّمات هي وجودٌ ظاهرٌ وتأصيلٌ في الوقت ذاته لحقّ العودة سياسيًا واجتماعيًا، وهذا ما يخلقُ عملية عداء مستمرة لدى الكيان تجاه هذه الشواهد (المخيمات) على نبض القضيّة الفلسطينيّة، وتحوّل العداء إلى مضمون سيكولوجيّ عدائيّ تجاهَ كلّ مخيّم؛ لأنّه يذكّر الكيان بحَقّ العودة الفلسطيني والنقيض لقانون العودة لليهود إلى فلسطين.

وأمّا من الزاويّة الأمنيّة، فالكيان يعدُّ أنّ المخيمات هي خزانات المقاومة في داخل الأرض المحتلة وخارجها، وهي المولدة لطاقات الشباب والأفكار الراديكالية والمقاومة، حيث شكّلت وما زالت هاجسًا للأجهزة الأمنيّة الإسرائيليّة، فالأزقّة والحواري والشوارع الضيّقة، وتراص البيوت لا تستجيب للحاجات الأمنيّة؛ ما يجعل الاحتلال معنيًا دائمًا بالتفكير بإعادة هذه المخيّمات وإفساح المجال لحركة مركّباته ودبّاباته وجنوده، كما حصل في السبعينات لبعض مخيّمات غزّة، وبعدها جنين عام 2002.

إنّ مخيّم جنين ليس بعيدًا عن هذه الرؤية «الإزاليّة»، فالاحتلال معنيًا بتدمير المخيم وجرفه أكثر من حرصه على قتل مقاومين عدّة. فقتل المخيم، يعني قتل المقاومة وقتل الوعي المقاوم في نفوس أهل المخيم.

وإذا ما أضفنا أن الاحتلال له «ثأر تاريخي» مع مخيم جنين، حيث أقدم مقاومو المخيم على قتل 13 جنديًا إسرائيليًا عام 2002، وتدمير مركبة النمر في المعركة الأخيرة، وخلافه لإدراكنا كم من سبب يدعو الاحتلال لتدمير المخيم وجرفه، الذي تحوّل إلى رمز المقاومة وعاصمتها، وإشعاع النصر القادم.

رسائلُ تحذيرٍ للسلطة، وتحدٍّ شكلانيّ لأمريكا:

وبقدر ما حملت معركة جنين من غايات سياسيّة واستراتيجيّة إسرائيليّة، فإنّها في الوقت ذاته حملت رسائلَ متعدّدةً وواضحةً ومباشرةً إلى السلطة الفلسطينيّة، مفادُها أنّ السلطة حين تفقد دورها في مواجهة ما يسمى بالإرهاب الفلسطيني، فإنّ الجيش الإسرائيلي هو بديلها في محاربة ظواهر المقاومة، وأنّه قادرٌ على دخول كل المدن والقرى الفلسطينية دون حد أدنى من الاعتبار للسلطة، وليذكرها بأنّها عاجزة عن القيام بدورها المناط بها، وعليها أن تختار بين تحمل مسؤولياتها في مقاومة «الإرهاب الفلسطيني» أو تبقى سلطة ضعيفة وآيلة للسقوط أو أن وجودها سيبقى شكلانيًا دون أي نوع من السيادة الأمنيّة.

وبالرغم من أنّ دور السلطة كان دورًا يفقدها شرعيتها الوطنيّة كونها لم تسعَ أو تبادر بالدفاع عن المخيّم عبر أجهزتها الأمنيّة التي يفوق تعدادها عن سبعين ألف شخص، واكتفت بالتصريحات والإدانات ونشرات الأخبار والإعلام المندّد على شاشات الفضائيّة الفلسطينيّة، وهذا لا يلبي شرط الوطنيّة، حين يتعرّض المخيّم للاقتحام والتجريف والإزالة؛ الأمرُ الذي وضع السلطة أمام شعبنا الفلسطيني في الزوايا الحرجة والضيقة.. التي أدّت إلى طرد قيادات السلطة من مشهد تشييع الشهداء، بالرغم من ذلك، فإنّ هذا الدور الباهت والمتفرج لم يكن ليرضي الاحتلال.

أمّا الرسالة الثانية فهي الموجّهة إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة، رسالة تحدّ للضغوطات الأمريكية والانتقادات من بعض المسؤولين الأمريكيين، وأنّها لا تكترث لهذه التصريحات الأمريكيّة، ولن تتوقف عن مطارده الفلسطينيين، وإقامة المستوطنات، ولعلّ ردود فعل بن غفير الأخيرة على تصريحات بايدن بالقول «إنّ إسرائيل دولةٌ مستقلّة، وإنّها ليست نجمةً في علم أمريكا، وعلى بايدن أن يفهم ذلك»، وكذلك الحال قول نتنياهو «إنّ إسرائيل دولةٌ ذات سيادة، لا تتخذ القرارات بناءً على الضغوطات من الخارج»، تجيب على شكلانيّة التحدي للولايات المتحدة من المتطرفين الإسرائيليين، في حين أن الكيان بكل نخبه السياسيّة يدرك أن العلاقة مع أمريكا هي «علاقه وجود» والخلافات لا تعدو إلا سحاب صيف لا تسقط مطرًا.

نتائج ومسؤوليّات وطنيّة:

بمعزلٍ عن كلّ الأحداث المباشرة والاستراتيجيّة في اقتحام المخيّم باعتبارها سياسةً متّبعةً من الاحتلال، فإنّ هذه الغايات ليس بالضرورة أن تتحقّق بمجرد إعلانها مباشرةً، أو أنّها أهدافٌ مضمرة... فقد أثبتت معركة مخيّم جنين وصموده وشجاعة مقاوميه وعدم انتصار الجيش الإسرائيلي على الأقلّ في تحقيق هدفه المباشر وهو «استعادة قوّة الردع»، فإنّ حساب الحقلة لم يأتِ على حساب البيد...! وعليه، فإنّ صمود المخيّم لا يمكن اعتباره إلا انتصارًا في سياق مقاومة مستمرّة وفي سياق معركةٍ واحدةٍ سوف تتعدّد ما دام هناك احتلال.

إنّ هذه المعركة تضعُ الفصائل كافةً أمام مسؤوليّاتها الوطنيّة في المقاومة، التي تفرض عليها السعي الجاد نحو خلق «جبهة مقاومة ضدّ الاحتلال» وَفْقَ برنامج كفاحي، يستهدفُ إحداث القلق الوجوديّ اليومي للاحتلال بما لا يجعل الكيان يعيش أدنى حدّ من البحبوحة الأمنيّة... ومن جهة بما يعزّز من إمكانيّة طرد الاحتلال من الضفّة والقطاع.

«علّةُ المعقوليّة».. صافرةُ التّغييرِ تنطلقُ بالتقسيط...!

أكرم عطا الله
كاتبٌ صحفيٌ فلسطينيّ/ بريطانيا

بإلغاء حجّة المعقوليّة؛ أطلق ائتلافُ اليمين في إسرائيل صافرةَ الانطلاقِ نحوَ ثورته القضائيّة؛ مجموعةٌ من الوزراء الهُواة يأخذون إسرائيل إلى حيث يريدُ كلُّ خصومها؛ جميع مؤسّسات الدولة وأذرعها تدخلُ في حالة من الاضطراب، فقد توقّف المراقبون عن إحصاء تفاصيل المتمرّدين؛ معظم المؤسّسات الأمنيّة والعسكريّة يبلغُ المتطوعون فيها عن وقفهم للتطوّع بدءًا من الجيش والاستخبارات وفرق الاختراق الإلكتروني وجيوش السايبر والمخابرات وسلاح البحريّة والخدمات الطبيّة العسكريّة، في كلّ تلك الأذرع تشهدُ خلخلةً في سابقةٍ هي الأولى منذ إنشائها.

لحقت المؤسّسات المدنيّة والأطباء والممرضين اضراباتٌ عامةٌ تشبه حالةً من الفوضى، لم تقنع قادة الائتلاف بوقف انقلابهم على القضاء، بل تغيّرت الاستراتيجيّة من الثورة بالجملة إلى العمل بالتجزئة، بدأتها الكنيست بإلغاء حجّة المعقوليّة، التي تعني بالنص الواضح إلغاء الرقابة على قرارات الحكومة.

ردًا على خبر وقف تطوّع الطيّارين الذين يشكّلون السلاح القوي في إسرائيل وذراعها الضارب، يردُّ نتنياهو ببرود «الدولة تستطيع الاستمرار دون بعض الطيّارين، ولكنّها لا تستطيع الاستمرار دون حكومة»، هذا مؤشّرٌ مهمٌ لمعرفة مسار إسرائيل القادم، تؤكّده استطلاعات الرأي التي ينهزم فيها الائتلاف لو جرت الانتخابات، ما يعني أنّه لا خيار أمام نتنياهو وشركائه إلا التمسّك بهذه الحكومة ومنع سقوطها بأيّ وسيلة، وباتت الثورة القضائيّة العامل الأوّل في تماسكها بعد النجاح في تمرير الموازنة.

الائتلافُ يسيرُ للأمام غيرَ مبالٍ بكلّ الاحتجاجات ولا بالدولة التي يتآكل فيها كلّ شيء، ويشهدُ مجتمعها تصدّعًا يتحوّل إلى صراعٍ يأخذ طابعًا تصعيديًا من كلا الطرفين كلّما تقدّمت مسيرة الثورة القضائيّة ازداد التصعيد؛ الحكومة تصرّ والمعارضة تحشد والمتطوعون يستنكفون والشلل يتصاعد والأموال تنسحب من البنوك والشركات تغادر والإضرابات تتسع، وحتى كتابة هذا المقال لم تنضم نقابة العمال الهستدروت، ويبدو أنّها على الطريق؛ ما يعني شللًا كاملًا.

وما بين خيار السلطة الوحيد بالسير قدمًا رغم كلّ شيءٍ وبين خيار المعارضة بالتصعيد قدمًا، تبدو إسرائيلُ كأنّها تدخلُ عنق زجاجة كان واضحًا منذ البداية أنّ خيارات الخروج منه بأمانٍ تبدو ضئيلةً في حوارٍ كان يأمل منه الرئيس هرتسوغ أن يفضي إلى اتفاقٍ مراهنٍ على احتجاجات قد تؤثّر على ممثلي الحكومة، لكن الهُوّة ودوغمائيّة الأيديولوجيا وتكتّل المصالح لليمين، يرى أنّه يحمل رسالة الدين، كل هذا كان يقف حائلًا أمام أي تنازلٍ من قبل اليمين؛ ما أدّى لتصعيد الموقف.

توقّف المسارُ في نيسان الماضي بعد موقف يوآف غالانت، وزير الدفاع، الذي نقل رسالة الجيش الحازمة، وأعلن نتنياهو تجميد التصويت، ولكن قوّة الدفع لدى الائتلاف ومصالحه كانت أقوى من قوّة الكبح لدى الشارع والمعارضة ما جعل نتنياهو يقوم بمناورة ماكرة بتمرير المشروع بالتقسيط، لكن المعارضة التي تتسلّح بشارع قويّ ومؤسّسات فاعلة وإرث علمانيّ ودعم الجيش والولايات المتّحدة، تشعرُ أنّ لديها من القوّة ما يضمنُ لها النجاح أو على الأقل استنزاف الائتلاف لحين إجراء الانتخابات تكون قد جعلت كل قطاعات الشعب تقف ضده وتعاقبه وتسحقه، لكنّ الأهمّ أن هذا الصراع، وذلك الصدع يدور بين كتلتين تتنافران ثقافيًا وإيدلوجيًا؛ واحدةٌ تدفع لإقامة دولة الشريعة والسيطرة على «الأغيار» والأرض، أي العرب، والأخرى تمثّل إرث الدولة العلماني الذي ضمن لها السيطرة والعلاقات الدوليّة والمناعة الأمنيّة والرفاء لمواطنيها والاقتصاد المزدهر والعلم والتكنولوجيا.

صحيح أنّ عنوان الثورة تغييرٌ في نظام القضاء، لكنّ الأمر أبعد من ذلك بكثير، فهو يجهّزُ لتغيير شامل وانقلاب على التاريخ الذي أقيمت على أساسه الدولة، والشعب الإسرائيلي ليس محصّنًا من الانقسامات، وأينما دخلت الأيديولوجيا بين الشعوب كانت عاملَ تفريق كما أكّدت تجارب التاريخ في كثيرٍ من المجتمعات، فحين كانت تحكمُ إسرائيل القوّة العلمانيّة، كانت تتمكّنُ من احتواء التيّارات اليهوديّة المختلفة من

أرثوذوكسيّة ومحافظة، لكن حين يصعدُ للحكم تيّارٌ دينيٌّ في دولة أقيمت بالأصل على أساس دينيّ لا بدّ أن يكون الصدع بهذا العمق الذي نشهده، فما هو حاصلٌ حتّى اللحظة لم يعبّر عن جوهر الأزمة وتجلّياتها الحقيقيّة بعد.

البرنامجُ السياسيُّ لحركة شاس يحمل نصًّا يقول: إنّ هدف الحركة هو إقامة «دولة التاج»، أي الدولة الدينيّة، أما سموتريتش، فيستمدُّ برنامجه السياسي الذي كان قد أعلنه منذ خمس سنوات مستوحيًا برنامج يهوشع بن نون في السيطرة على الفلسطينيين والضفة الغربيّة، أما الحزب الإشكنازي الديني يهدوت هتوراة المشكل من تحالف حزبين دينيين، فقد خاض معركةً قبل أسابيع عشيّة إقرار الموازنة لتحصل على ربع مليار شيكل لمدارس التوراة، لتخريج أجيال من التوراتيين؛ أي إنّ الصدع لا يعود لقضايا قانونيّة بقدر ما يفسّر انشقاقًا عميقًا بين كتلتين، ويزداد هذا الانشقاق مع الزمن، من خلال متابعة حجم الولادات للسنوات القادمة بين الكتلتين؛ ما يعكس ازديادًا مضطردًا لدى الكتلة الدينيّة وانحسارًا للكتلة العلمانيّة مؤسّسة الدولة، التي تمثّل حتى اللحظة الدولة العميقة وقيمها، التي يتم استهدافها وتحويلها إلى أقليّة منبوذة أمام تطرّف الأيديولوجيا واستعلائها واحتقارها للآخر.

حتّى لو سقط هذا الائتلاف وتمكّنت إسرائيل من ترقيع حكومة تشبه حكومة يائير لابيد، فإنّ هذا لن يكون أكثر من حقنة مسكن مؤقّتة؛ لأنّ توربينات التطوّر الديمغرافي والشحن الأيديولوجي ومستشفيات الولادة كلّها تجر إسرائيل نحو الجذور ونحو الأيديولوجيا التوراتيّة، ربّما ما حدث ويحدث هو تبكير للأزمة، لكن في إسرائيل أزمة عميقة لن تخرج منها لتعود إسرائيل القويّة التي يعرفها العالم، سواءً لناحية التماسك الداخلي وقوّة الردع، أو لجهة تعاطي العالم معها... كلّ ذلك سيكون شيئًا من الماضي، وهذا مسارٌ طبيعيٌّ لدولة تأسّست بثنائيّة غريبة تنتصرُ إحداها على الأخرى، وقد انتصرت الأيديولوجيا على العلمنة، ذلك مسارٌ طبيعيٌّ لم تكن علّة المعقوليّة التي يتمّ إلغاؤها سوى مقدّمات لما هو آت.

دفنُ المخلّفات السامّة في الأرض الفلسطينيّة

د. إلهام شمالي
باحثةٌ في تاريخِ الحركةِ الصهيونيّة / فلسطين

استغلّتْ دولةُ الاحتلال غيابَ رقابةِ المنظّمات الدوليّة والحقوقيّة على انتهاكاتها المستمرّة في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة لاستهداف البيئة الفلسطينيّة وباطن الأرض بكلّ ما يحتويه من كنوز ومقومات للحياة الإنسانيّة من مياه وتربة صالحة للزراعة، وعملت على تنفيذ عمليّات طرد غير مباشر عبر تلويث التربة والهواء وزيادة الإشعاعات النوويّة المضرّة للصحّة العامّة، فالممارسات الإسرائيليّة التي ترتكبُها بحقّ البيئة الفلسطينيّة ترتكبُ بشكل يومي، ولعلّ أصعب ما تتعرّض له البيئة الفلسطينيّة هو دفن المخلّفات النوويّة الصلبة في عداد من المدن الفلسطينيّة كمدينة الخليل أو نابلس، وصحراء النقب، حيث تحولّت أجزاءٌ كبيرةٌ من تلك الأراضي إلى مكبّ للنفايات الصلبة، التي قدرت نحو 250 ألف طن سنويًا، تُدفنُ في باطن الأرض، وتلجأ إسرائيل إلى دفن 48٪ فقط من النفايات السامة للمصانع الإسرائيلية الرسميّة، أما 52٪ من النفايات الخطرة فلا تعلن دولة الاحتلال أين تدفنها، وهو ما يؤكّد أنّها تدفنها في أراضي الضفة الغربيّة وحدود قطاع غزّة، وخاصّة على الحدود الشرقية من مدنية خانيونس.

تفاقمت مشكلة المخلفات السامة مع قيام دولة الاحتلال في السنوات الأخيرة بنقل 300 من مصانعها إلى المستوطنات الإسرائيلية المقامة على أراضي الضفة الغربية، بعد سلسلة من الشكاوي تقدمت بها مؤسّساتٌ حقوقيّةٌ إسرائيليّة؛ بفعل انبعاث غازات سامة من تلك المصانع، وانتشار بعض الفيروسات المسبب للأمراض التي تصيب الجهاز التنفسي، ومن بين تلك المصانع 29 منشأة مختصة بإنتاج المواد الكيماويّة، بعيدًا عن المدن الفلسطينيّة التي احتلتها عام 1948م، وتنوعت تلك المصانع ما بين صناعات شديد التلوث للبيئة الفلسطينية والصحة العامة، كونها مصانع تتعلق بالمواد الصلبة التي يصعب التخلص من مخلفاتها، كالألمنيوم والإسمنت والمعلبات الغذائية والمطاط والكحول والسيراميك والرخام ومواد التنظيف الكيماويّة، وصناعة الدهان، والبطاريات والمبيدات الحشرية والأسمدة الكيمياوية والغازات وغيرها، التي تُدفنُ في القرى الفلسطينيّة والمناطق المجاورة لها سرًّا في باطن الأرض، ما يعني تدميرًا واستنزافًا للبيئة وصحة الإنسان الفلسطيني.

إنّ تزايد حالات الإصابة بمرض السرطان

في مناطق جنوب الخليل في فلسطين يرتبط فعليًا بالممارسات الإسرائيليّة التي ترتكب بشكلٍ يومي؛ الأمرُ الذي زاد من الإشعاع النوويّ، كما تهدّد عمليات دفن النفايات خزانات المياه الجوفية للمدن الفلسطينيّة، وعلى وجه الخصوص في مدينة نابلس الجبليّة، التي تعد أضخم مصادر المياه العذبة في فلسطين، كما أسفرت تلك المخلفات على البيئة الفلسطينيّة الطبيعيّة، وفقدت البيئة الحيويّة الفلسطينيّة جزءًا كبيرًا من الطيور والحيوانات المهاجرة، التي تقصد الأراضي الفلسطينيّة في مواسم معينة، هذا بالإضافة لتأثير جدار الفصل العنصري على البيئة بشكلٍ سلبي، وصعوبة وصول المزارعين إلى أراضيهم بفعل الجدار، والبوابات الحديدية التي تفتح وتغلق وفقًا لمزاج الجندي الإسرائيلي. كما اغتالت الجرافات الإسرائيليّة ما بين 3,5-4,5 مليون شجرة زيتون، منها نحو 800 شجرة معمرة يصل عمرها لآلاف السنيين، أي أكبر من عمر دولة الاحتلال، ويتعمد المستوطنون وقوات الاحتلال انتظار موسم قطف الزيتون للهجمة على أشجار الزيتون، واقتلاعها من أرضها، بالإضافة لملايين النبات البري؛ وذلك تمهيدًا لمصادرة الأراضي الفلسطينيّة وضمّها للمستوطنات، والبؤر الاستيطانيّة في الضفة الغربية والمناطق الحدوديّة في قطاع غزة.

خطورةً أخرى تتعرّض لها البيئة الفلسطينيّة بالاستهداف المنظم، فيما يتعلق بمفاعل ديمونا الذي أنشئ عام 1965م، الواقع فيما سمي بمركز الأبحاث النووية وسط صحراء النقب، والمكون من تسعة مبان وكل منها خصص لنوع معين للأسلحة النووية والكيماوية السامة، ويبعد المفاعل عن أقرب بلدة فلسطينية في الضفة الغربية ما بين 7-15 كم، كبلدة يطا والظاهرية والرماضين وغيرها، وهو الآن من المباني المتآكلة التي تشكل خطرًا استراتيجيًا؛ بسبب انتهاء عمرها الافتراضي، حيث يتسرب منها الإشعاعات النووية المضرة للبيئة في صحراء النقب، وهو ما أكده الأطباء والخبراء الذين رصدوا تزايد الأمراض والتشوهات وحالات العقم التي لم تكن موجودة، وهو ما يهدد الحياة الإنسانية والتنوع الحيوي ويضر المياه الجوفية. ثمّ إنّ تزايد عمليات مصادرة الأراضي تعني المزيد من استنزاف المياه الجوفية الفلسطينية، ومنحها للمستوطنين، فحسب البنك الدولي، فإنّ المستوطن الإسرائيلي في الضفة الغربية يستهلك أربعة أضعاف ما يستهلكه المواطن الفلسطيني، فإسرائيل تسيطر على ما يقرب من 86٪ من المياه، وبذلك لم يتبق سوى 13,5٪ للشعب الفلسطيني فقط، تتحكم به دولة الاحتلال أيضًا، بموجب القرار العسكري الإسرائيلي رقم 291 عام 1967م، الذي عد المياه الفلسطينية ملكًا لدولة الاحتلال، ثمّ إنّ تلك المستوطنات تغرق الأراضي الزراعيّة الخصبة بالمياه العادمة، التي قدرت نحو 40 مليون متر مكعب، يتم تسريبها لأراضي المواطنين، ما أثّر على مخزون المياه الجوفيّة، وزيادة نسبة النترات والأملاح، ما يعني عدم صلاحيّتها للاستخدام الإنساني، وزيادة نسبة ملوحة التربة، ومن ثَمّ عدم قابليّتها للزراعة، وانتشار ظاهرة التصحّر، والقضاء على الثروة الحيوانيّة والتنوّع الحيوي، فتتحوّل مع الوقت إلى مناطق مهمّشة، ومتروكة يسهل السيطرة عليها من قطعان المستوطنين؛ الأمرُ الذي قلّص المساحة المزروعة في الضفة الغربية، ولجأ المزارع الفلسطيني للمخصبات الزراعيّة، ومبيدات الآفات الزراعيّة بشكلٍ كبير، التي كان لها تأثيراتها السلبيّة على الصحّة العامة، وانتشار الأمراض المزمنة كمرض السرطان.

المتابع للانتهاكات الإسرائيليّة بحقّ البيئة الفلسطينيّة لا يمكنه التفريق بين عمليّات التطهير العرقي التي تعرّض لها الشعب الفلسطيني، مع ما يجرى من تطهير عرقيّ للبيئة الفلسطينيّة، بمحوٍ كاملٍ للقرى الفلسطينيّة التي دمّرت بشكلٍ كاملٍ عام 1948م، وما زالت عمليّات التّجريف والمصادرة للأراضي، وسرقة المياه تُمارَس بكلّ حذافيرها دون أي رادع لدولة الاحتلال، التي تسعى عبر اغتيال البيئة إلى تدمير كل مظاهر الحياة الفلسطينيّة؛ بغرض القضاء على مقومات الحياة كافةً للشعب الفلسطيني؛ إلا أن الصمود الفلسطيني عبّر عن مدى قدرت الفلسطيني على مواجهة آلة القمع الإسرائيلية.

إنّ الحفاظ على البيئة الفلسطينية مسؤوليّةٌ جماعيّةٌ يتشارك فيها الفرد والحكومة في ضرورة تفعيل القوانين، وضرورة تقديم الشكاوى الدوليّة ضد دولة الاحتلال لما ترتكبه من مخالفة صريحة للقانون الدولي، التي تمنع بشكلٍ صريح نقل النفايات من الدولة المحتلّة إلى الأراضي المحتلة، وهو ما ينطبق على فلسطين المحتلة منذ عام 1948م، فيجب أن تقف وكالة الطاقة الذرية العالمية ووكالات الأمم المتحدة عند مسؤوليتها في هذ الجانب، وعلى السلطة الفلسطينية مخاطبة الجهات الدولية المختصة والخبراء الدوليين، للوقوف عند مسؤوليتهم في هذا الجانب ومراقبة النشاط الإسرائيلي والمنشآت الإسرائيليّة النوويّة.

معركة جنين ..
الإعلامُ وتآكلُ الردع الصهيوني

رضي الموسوي
كاتبٌ صحفيّ/ البحرين

قبل عقود عدّة، رسمَ الفنانُ المبدع الراحل الشهيد ناجي العلي، حنظلة، وهو يمسكُ بيد الفدائي، والأخير مديرًا ظهره وهو يمشي مبتعدًا. قال له حنظلة: «اشتقنا لك.. ارجع». لقد تجلّى هذا الاشتياق بذرةً طيبةً أنبتت شجرة المقاومة في فلسطين، ومنها مخيّم جنين الذي لا يتجاوز مساحته نصف كيلو متر مربع، لكنّه لقّن جيش الاحتلال درسًا لن ينساه.

استشعر ناجي العلي المشهد قبل أن يقع فأس اتفاق أوسلو في الرأس الفلسطينيّة والعربيّة، وقد مرّت في الثاني والعشرين من تموز الماضي ذكرى إطلاق الرصاص عليه في إحدى أزقة العاصمة البريطانية لندن، بينما كان متوجّهًا إلى مقرّ عمله في صحيفة القبس الدولي، حيث كان ينشر رسمًا كاريكاتوريًا يوميًا يعبّرُ فيه عمّا يجيش بدواخل ملايين الفلسطينيين والعرب. وبعد شهر وسبعة أيام، أي في التاسع والعشرين من أغسطس/آب 1987استشهد ناجي العلي.

كما التطريز الذي تتميز به وتبدع فيه النساء الفلسطينيّات في حيفا ويافا وغزة وأريحا وجنين ونابلس والقدس وكل مدينة ومنطقة فلسطينيّة تصب جداولها بنهرٍ ضاربةٍ جذورُهُ في الأرض حتى الكنعانيين، كذلك هي المقاومة ومواجهة الاحتلال. لغزة طبيعتها وعلمها وتقنيّاتها في لجم اندفاعة الكيان العدوانيّة ومقاومته وكسر شوكته وقوّة ردعه وتصنيع صواريخه، وللضفّة الغربيّة بمدنها ومناطقها؛ ما تملك من طاقات فعّالة تحوّل فيها الإمكانات شبه المعدومة إلى قوّةٍ أسطوريّة تفاجئ الجيش الذي لا يقهر.

هكذا كانت معركةُ جنين التي أراد الصهاينة طمس بطولة ثلّة من المقاتلين المقاومين المؤمنين بعدالة قضيتهم المركزية للأمة، فواجهوا آلة الدمار بقدراتٍ ملائكيّة تشبه المعجزات، عجز عن محاكاتهم جيش الاحتلال المدجج بكل الأسلحة وكل التقنيات وكل العتاد الذي لا يوجد بعضه في جيشٍ آخر سوى الجيش الأمريكي، مقابل عبواتٍ شبه بدائيّة وبنادق ليست من آخر طراز، لكنّها مفعمةٌ بالإيمان بالحق والعدالة وطريق التحرير ومحاربة العدو في كل مكان، فكان الصمود والنصر حليفهم عندما فرضوا انسحابًا صهيونيًا من مخيّم شبه أعزل إلا من إرادته الفولاذيّة التي أذهلت العالم. فكيف تعاطى الإعلام الصهيوني مع هذا الصمود الأسطوري؟

الإرباك سيّد الموقف:

قبيل العدوان الأخير الذي بدأ في الثالث من يوليو/تموز الماضي، كان الإعلام الصهيوني يمارس عمليّةَ تحريضٍ للمؤسّسة العسكريّة لتقوم بعدوانٍ يفرم مخيّم جنين على خلفيّة كمينٍ أصاب مدرّعةً فيها سبعة من الجنود الصهاينة تعرضوا لإصابات مختلفة، فيما ذهبت بعض وسائل الإعلام إلى أكثر من ذلك، عندما راحت تسلخ في مؤسسة الجيش وكأنها مصابة بعطب جوهري، في تحريض غير مباشر لسحق جنين ومخيمها، وهي العقدة التي دامت عقودًا طويلةً؛ نظرًا لما يشكله هذا المخيم من ذاكرة لدى الفلسطينيين الذين غادروا قراهم وبلداتهم في أراضي الـ48 قبل انقضاض عصابات شتيرن والهاغانا عليهم وتنفيذها لسياسة التطهير العرقي والإبادة الجماعية وتشريدهم من بيوتهم ومزارعهم.

كان وزير الأمن الداخلي بن غفير، ووزير المال بتسلايل سموتريش يقودان الحكومة الصهيونيّة نحو الانزلاق لمستنقع الفاشيّة. سموتريش، عضو الكنيست عن البيت اليهودي المنحدر من حزب المفدال الديني المتطرّف، ينشط بين المستوطنين. يؤمن

سموتريش وكتلته، ويعمل من أجل تحقيق حلم «أرض إسرائيل الكاملة» بالاستمرار في الاستيطان للحدود القصوى، وأن أقصى ما يمنح للفلسطينيين كانتونات منفصلة عن بعضها بعضًا، مسيّجة بالمستوطنات والجيش والأمن الصهيونيين ومعزولة عن العالم الخارجي.

هذا الحلمُ الشيطاني يحتاج إلى إعلام يؤجج المعنويات المتردية عند عناصرَ الجيش وشرطة الاحتلال ومواجهة تداعيات التفكك الذي يتعرض له حاليًا المجتمع الصهيوني؛ بسبب نزوع نتنياهو ومجموعته نحو الديكتاتورية التي أشعلها في داخله سيد البيت الأبيض السابق دونالد ترامب بتحقيق اختراقات كبرى في مسألة التطبيع مع دول الخليج العربية. كان الإعلام الصهيوني يعبد الطريق للخطوات الجديدة وينظّر لها باعتبارها انتصار على طريق تحقيق ما بشرت به وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كوندليزا رايس التي بشرت بفرض الشرق الأوسط الجديد على رؤوس اللبنانيين الذين كانوا يتعرّضون في تموز وآب 2006 لحمم القصف الصهيوني الذي أُريد منه إعادة الاعتبار للجيش المندحر عن جنوب لبنان قبل ذلك بستّ سنوات.

المعركةُ الإعلاميّةُ التي تتجلّى في جنين اليوم تلخّص السرديّة المقدّمة للمتلقي. ففي الوقت الذي يؤكّد المقاومون في مخيم جنين السردية الفلسطينيّة، ويدحضون بأجسادهم أوهام التسوية البائسة، ويقدمون نموذجًا تحتذي به الجغرافيا الفلسطينية الأخرى في مقاومة الاحتلال، يبدو الإعلام الصهيوني يسقط

في الإرباك الشديد إزاء طريقة تعاطيه مع الحالة المتقدّمة للمقاومة التي كيّفت عُصارة تجربة عقودٍ من المواجهة مع الاحتلال. ففي حين كان بعض الإعلام الصهيوني يحرض الجيش وجنرالاته على البطش بجنين، كانت وسائل أعلام أخرى تشكّك في قدرة هذا الجيش على تحقيق أهدافه في بقعة صغيرة يتمركز فيها بضعة مقاتلين بأسلحتهم الفردية وبعض العبوات المحلية الصنع، خصوصًا أنّ هذه العبوات تمكنت من اختراق جسد المدرعات المصفحة التي تعدّ فخر الصناعة «الإسرائيلية». متحدث باسم جيش الاحتلال قال لـ بي. بي. سي «لدينا أهداف محددة داخل مخيم جنين، خاصّةً إلغاء الاعتقاد السائد بأنّه مكانٌ آمنٌ للإرهابيين، ويمكن للأمر أن يستغرق ساعات أو يومًا أو يومين». هذه العمليّة لم تحقّق أهدافها كما ادّعى الاحتلال، الذي زجّ بأكثر من ألف جندي موزعين على فرق ومجموعات متخصّصة في الحرب غير النظاميّة، وهي العمليّةُ العدوانيّةُ التي وصفت بأنّها «أكبر اجتياح إسرائيلي لجنين، منذ الاجتياح الكبير لها عام 2002».

كان الإعلام الصهيوني مشوّشًا، يقدّم تحليلات متناقضة يراد منها التضليل الإعلامي وإرباك المقاومة الفلسطينية وتعطيل قدراتها على اتّخاذ موقف بناء على القرارات التي تتخذها الحكومة الصهيونية، وبالقدر ذاته ربّما كان ذلك تعبيرًا حقيقيًا عن حالة التيه التي يعاني منها الكيان وإعلامه. لقد عمد الإعلام الصهيوني إلى صرف الأنظار نحو الحدود اللبنانيّة مع فلسطين المحتلة وتسليط الضوء على الخيم التي نصبها حزب الله هناك، فتحرّك الإعلام الصهيوني لينفخ فيها ويبالغ في دلالاتها، بينما كانت التحضيرات قائمةً على قدم وساق للهجوم على المخيّم. كان الاحتلالُ يبحثُ عن عامل المفاجئة، وضخّ الكثير من المعلومات للتأثير السلبي على المقاومين وحاضنتهم الشعبيّة، إلّا أنّه فشل في هذه المهمة، فقد كان تحرُّك المقاتلين مدعاةَ فخرٍ للشعب الفلسطيني، ليس في المخيّم فقط، بل على المستوى الوطنيّ والعربيّ أيضًا.

مهمّةٌ وظيفيّة:

ربّما تفاجأ الإعلامُ الصهيوني بالعبوة ذات الـ 40 كيلوجرامًا، وقد تمّ تفجيرها عن بعد في المركبة الصهيونيّة فأصابتها بشكلٍ مباشر، فكان التعليق والمتابعة يعانيان من تشوش زاد من ارتباك المتلقي الصهيوني الذي كان يراد له أن يطمأن على قدرة جيشه في مواجهة مقاتلي المخيم بقيادة كتيبة جنين، لكن الإعلام الصهيوني كان متخبّطًا ونقل عن القائد السابق للقيادة المركزيّة غادي شامني قوله: «لقد وصلت جنين إلى مستوى من القدرة يتطلب التفكير والتقييم من قبل الجيش الإسرائيلي، لم تتفاجأ القوات بوجود عبوات في المنطقة، فهي كانت دائمًا موجودة، ولكن هذه المرة نجح الفلسطينيون». وأكّدت وسائل إعلام صهيونيّة هذا القول بالتأكيد على أن «الفلسطينيين كانوا مستعدين جيّدًا؛ ما أدّى إلى هذه النتيجة المؤلمة للقوات الأمنية وسيكون لها تداعيات كبيرة (..) المؤسسة الأمنية بدأت تحقيقًا بكيفية معرفة المقاومين في جنين طريق خروج القوات، حيث وضعت هناك عبوات ناسفة بكميّات كبيرة». ونقلت القناة 12 الهواجس والمخاوف التي تنتاب قادة الجيش والاستخبارات بتأكيدها على أنّ «عددًا كبيرًا وغير معتادٍ من العبوات استخدمت ضد القوات في جنين، إحداها أصابت الجزء السفلي لمركبة مصفحة وأدت لإصابة الجنود الستة، كما علقت مركبات أخرى ما استدعى احضار قوات كبيرة إضافية لإنقاذها»، وزادت وسائل إعلامية أخرى: «الآلية الإسرائيلية التي أصيبت في جنين تضررت رغم أنها أُعدت لمواجهة عبوات وإطلاق نار، ويجري فحص ما إذا كانت العبوة التي ألحقت الضرر بالآلية هي من إنتاج محلّي أم جرى تهريبها إلى المنطقة».

الصحفي الصهيوني ومراسل صحيفة يديعوت أحرنوت لشؤون الجيش والأمن، يوسي يهوشع، قال «ستصبح عملية جنين علامةً بارزةً في الجيش الإسرائيلي، ليس فقط بسبب الوقت الطويل الذي استغرقه الخروج من الورطة (أطول عملية استباقية منذ الانتفاضة الثانية)، ولكن نظرًا للسبب الذي أدّى لذلك: دخول المتفجّرات القويّة التي حوّلت القطاع إلى منطقة شبيهة بجنوب لبنان في سنوات التسعين، حتى لو كانت هذه العبوات أقلّ قوّة من تلك التي رأيناها آنذاك».

خلاصة القول: إنّ الإعلام الصهيوني يعدّ أداةً يوجهها جنرالات جيش الإحتلال وأجهزة أمنه، وهو مطيعٌ مهمته تحقيق الأهداف التي يرنو لها الكيان ومؤسّساته، وهو إعلامٌ مخاتلٌ لا يمكن الركون لمصداقيته مهما ارتفع سقف نقده للجيش والمستوطنين والحكومة. فالمسألةُ الإعلاميّةُ بالنسبة للحركة الصهيونية تعدُّ قضيّةً مركزيّةً لا تقلُّ أهميّةً عن المال والسلاح، وهي بذلك لا يمكن العبث بها أو تركها لغير متخذي القرار على المستوى الاستراتيجي المتعلّق بواقع الكيان ومستقبل مصالحه، ومن ثَمّ، فإنّ التعاطي مع هذا النوع من الإعلام يحتاج إلى الكثير من الذكاء لاستيعاب ما يهدف إليه، وما يكتبه بين السطور، ويبثه على الهواء أو تحته. وتشير المعلومات إلى أن هناك أكثر من 10 لغات مختلفة في وسائل الإعلام الصهيونيّة، حيث انتبه مؤسسو الكيان لدور الإعلام قبل تأسيس الدولة العبريّة باعتباره أحد أدوات الدولة ومرتكزاتها الرئيسيّة، وقد أنشأت الحركة الصهيونيّة إذاعةً موجّهةً لليهود، وأصدرت 14 صحيفةً بينها 4 ناطقة باللغة العربية، علما أن صحيفة هآرتس صدرت سنة 1919ويديعوت أحرنوت في 1939، بينما صدرت صحيفة معاريف في 1948.

ويؤكّدُ ديفيد بن غوريون، أوّل رئيس وزراء للكيان، أنّ وظيفة الإعلام الصهيوني تتمثّل في الدفاع عن المشروع الصهيوني ويقول: «في هذه الساعة نحن في حاجة إلى صحافة حرّة ومخلّصة، ولكن علينا الحذر، يجب علينا أن نزن أقوالنا وعدم إعطاء العدو معلومات أو زرع الفتنه والفوضى في شعبنا، وعدم الاستسلام».

بن غوريون شكل، عند إعلان تأسيس الكيان الصهيوني، ما يسمّى بـ»هيئة رؤساء تحرير الصحف» التي ضمّت رؤساء الصحف المستقلّة والحزبيّة كافةً، آنذاك، وقد عدّت من إحدى أذرع جهاز الموساد، حيث قامت بمهام الرقابة، المحكمة على الإعلام الصهيوني، وكانت تتلقّى المعلومات من كبار المسؤولين، كرئيس الحكومة والأجهزة الأمنية، حول ما يجب نشره في الإعلام. لكن هذا الإعلامُ المؤدلج صهيونيًا منذ الطلقة الأولى سقط في امتحان مخيّم متناهي الصغر اسمه جنين.

الهدف الثقافي

الوطنُ ليس ذاكرةً فحسب.. عائد إلى حيفا

«لا شيء. لا شيء أبدًا. كنتُ أفتّش عن فلسطين الحقيقيّة. فلسطين التي هي أكثرُ من ذاكرة. أكثرُ من ريشة طاووس. أكثرُ من ولد. أكثرُ من خرابيش قلم رصاص على جدار السلّم. وكنتُ أقول لنفسي: ما فلسطينُ بالنسبة لخالد؟ إنّه لا يعرف المزهريّة، ولا السلم ولا الحليصة ولا خلدون. ومع ذلك فهي بالنسبة له جديرةٌ بأن يحمل المرء السلاح ويموت في سبيلها، وبالنسبة لنا أنت وأنا، مجرّد تفتيش عن شيءٍ تحت غبار الذاكرة، وانظري ماذا وجدنا تحت ذلك الغبار.. غبارًا جديدًا أيضًا!

لقد أخطأنا حين عددنا أنّ الوطن هو الماضي فقط، أما خالد فالوطنُ عنده هو المستقبل، وهكذا كان الافتراق.. وهكذا أراد خالد أن يحمل السلاح.

عشرات الألوف مثل خالد لا تستوقفهم الدموع المفلولة لرجالٍ يبحثون في أغوار هزائمهم عن حطام الدروع وتفل الزهور، وهم إنّما ينظرون للمستقبل، ولذلك هم يصحّحون أخطاءنا، وأخطاء العالم كله...!

(من رواية عائد إلى حيفا).

يقول الدكتور محمد عبد القادر في كتابه: «غسان كنفاني.. جذور العبقرية وتجليّاتها الإبداعيّة»، في عائد إلى حيفا يحمل غسان كنفاني معوله ليقوّض أركان الوعي السالب والفكر المهزوم والسلوك المنكفئ فيجلسها على كرسي الاتّهام ويحاكمها محاكمةً حادة، وقاسية، وجريئة، ومؤلمة. ولا شكّ في أنّ الوعي الكنفاني ذاته هو بطل الرواية ومحرّكها، ولكن غسّان بمهارته الفنيّة العميقة وزع وعيه على شخصيّات الرواية بما فيها الشخصيّة اليهوديّة الأساسيّة، دوف، أو خالد بن صفية وسعيد. وتشتدُّ قسوة الكاتب حين يجعل المحاكمة الأساسيّة للأبوين تتمُّ على يد دوف، الابن المتروك، الابن المسروق، الجندي في جيش الاحتلال بعد عشرين عامًا من النكبة. والرواية محاكمة من جانب الكاتب لجيل الهزيمة الذي غادر الوطن بصرف النظر عن الطرد والإرغام وكل المبررات.

ويكمل قائلًا: في هذه الرواية يقوّض غسان المفاهيم التقليدية السائدة، ويهدم الوعي السطحي، ويميط اللثام عن السلوكات البالية النابعة من وعي زائف. في الرواية تتدحرج المفاهيم البليدة واحدًا إثر الآخر، ضمن بناءٍ فنيٍّ حواريٍّ وصفيٍّ مثير، لكن بالاستناد إلى

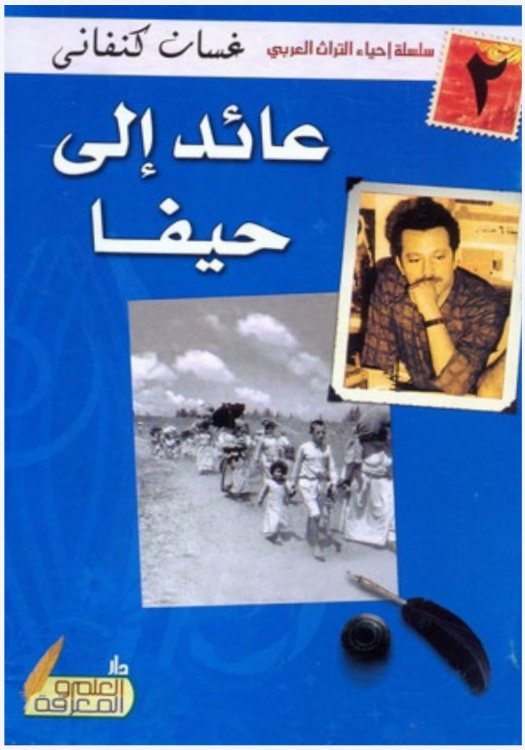

وعي الكاتب وأفكاره. ولنبدأ باستخدامه كلمة «عائد»؛ إذ إن العودة، مفهومًا تاريخيًّا عند الشعب الفلسطيني، مرتبطةٌ بالعودة الوطنيّة المشرّفة إلى أرض فلسطين، وما حدث لسعيد وصفيّة لم يكن عودة، بل كانت زيارةً مذلّةً بتصريح من سلطات الاحتلال، ما يتعذّر معه أن ننسب العودةَ إلى سعيد وصفية، بل إلى خلدون الابن الحقيقي رمز الغد، الساعي لحمل السلاح والانتماء للمقاومة. سعيد نفسه يدرك هذا، ويؤكّد في أكثرَ من موقع أنّه ليس «عائدًا»، بل إنّهم «يرونها» له ولها.

لذلك، في أثناء زيارة الذل المُركّب، يشعر سعيد أن «الوطن» أنكرهما، فيدرك بعد ذلك أن الوطن ليس ذاكرة، ولا ريش طاووس وخربشات على الجدران، بل الوطن هو «ألا يحدّث ذلك كلّه»، أي ألا يضيع الوطن أصلًا، وألّا تسمح لأحد باحتلاله، وألّا تصمت على الاحتلال، وألا تترك ابنك وحيدًا عند الرحيل عن الوطن، وألّا تقدّمه جنديًّا في جيش العدو، وأن تكافح لاستعادة الوطن والابن والبيت.

الدكتور محمد نعيم فرحات «للهدف»:

غسّان غاب لكن الوعي الذي قدّمه لم يسقط، ولم يكنْ من الممكن تغييبُه

أجرى المقابلة : د. وسام الفقعاوي

محمد نعيم فرحات، من مواليد فلسطين، أكمل دراسته العليا في علم الاجتماع في جامعة تونس الأولى. بدأ حياته في الكتابة صحافيًا وكاتبًا في جريدة الخليج الإماراتيّة، وجريدة الرأي العام، وجريدة الشروق التونسيتين، وجريدة العلم في المغرب، وعمل مندوبًا للشؤون الفلسطينيّة لإذاعة الشرق، التي تُبثُّ من باريس، إضافةً لمنابرَ عربيّة أخرى. منذ سنواتٍ خلت يعمل أستاذًا لعلم الاجتماع في الجامعات الفلسطينيّة، وهو ناشطٌ فكري وسياسي في المشهد الفلسطيني والعربي، ويتولّى حاليًا الأمانةَ العامةَ للجمعيّة العربيّة لعلم الاجتماع، التي أُنشئت في تونس عام 1986، وأسهم في إنشائها أبرز وجوه العرب في علم الاجتماع والكتّاب والمفكّرين ممّن عُرفوا في النصف الثاني من القرن العشرين، وكانت من أنجح المحاولات الأهليّة العربيّة التي سعت لتأطير العمل الفكري والأكاديمي في المجتمعات العربيّة واهتمّت بقضاياها المختلفة.

كتب مئات المقالات والمقاربات السوسيو ثقافيّة والسياسيّة والدراسات التي نشرها في منابرَ مختلفة، فقد أصدر عام 2014، كتابًا بعنوان: (الفلسطينيّون والمنفى: دراسة في بنية الوعي والثقافة: إنتاج الانكسارات أو المقاومات المحبطة)، وفي شهر تموز المنصرم، صدر له كتابٌ جديد: كمين غسان - كيف تعقّب النص تاريخه وأدركه.

*** د. محمد ما الذي أخذك لاستطلاع «كمين غسان» والكشف عنه؟**

** يعودُ الأمرُ لحالة الوعي التي بناها كنفاني وتمايزها وعمقها واختلافها عن مجمل خطاب الأدب الفلسطيني في السنوات الأولى التي تلت النكبة، واشتباكه العميق والضاري مع الواقع الذي وجد نفسه فيه وقراءته العميقة للسياق الموضوعي والذاتي الذي أفضى إلى حالة التشرّد والنفي.

هذه الحالةُ صعدتْ وتشكّلت في وجدانه وعقله من صلب المعاناة التي عاشها وعاينها في نفسه وعند أهله وعند الآخرين. إدوارد سعيد يتحدّث بشجنٍ عن الفلسطينيين المعاصرين «مجتمعًا تاريخيًا من العذاب» وغسان ابن الطبقة الوسطى والساحل الفلسطيني، كان هناك في صميم العذاب فعليًا وفكريًا معًا. غسان لم يتمثّل عذاب الفلسطينيين عن بُعد، أو تخيّله؛ لأنّه كان يعيشه ويتقلّب فيه.

اقرأ عن زمن الاشتباك في قصته «الصغير يذهب إلى المخيّم» مثلًا، وتابع سياقات وأبطاله خلفياتهم قبل التحوّل تجاهَ المقاومة وبعده، أنّهم يفيضون بالمعاناة والوجع وانعدام القيمة أمام أنفسهم وأمام عدوّهم وأمام الحياة، وهي لحظةٌ استثنائيّةٌ وفارقةٌ في تاريخ الوجع الإنساني الفلسطيني المعاصر.

في هذا السياق، ولد ونشأ غسان كنفاني، ومن هناك نصب لوعينا كمينًا دعانا وحثّنا ودفعنا دفعًا كي ننزل فيه، ونحوّله لمعقل فكريّ وثقافيّ لتعديل التاريخ وظلمه الجبّار؛ تاريخٌ صنعه أعداءُ شعبه، تزوّد بالمقولات والقدرات والأحلاف الكبرى، الذي استفاد أيضًا إلى حدّ بعيد، من عجزنا وخيبتنا وضعف تقديرنا من جهة، وتواطؤ البعض منا معه من جهة أخرى.

كمين غسّان كان يزحمُ ويقاومُ كمائن لا حصر لها، كانت تناهض الفلسطينيين وشعوب المنطقة، وتسعى للإطاحة بهم أكثرَ فأكثر؛ كي يتلاشوا ويذوبوا ولا يبقى لهم: لا قدرة ولا طاقة، وحتى لا عين ولا أثر.

كان الوعي الذي قدّمه غسّان كنفاني لنفسه أوّلًا ولنا أوّلًا أيضًا، عبرَ كلّ أشكال تعبيره ونصوصه المكتوبة وغير المكتوبة، هو الأكثر نضجًا وبسالةً واستقامةً؛ كي ننهض، وهذا أمرٌ يحثّ ويغري على اقتفاء أثره وتمثّله.

وغسّان لم يطلبْ منا تبنّي وعيه ودعوته وهو جالسٌ في مكانٍ مريح، لقد كان تجسيدًا حيًّا وماجدًا على التطابق بين الفكرة والموقف والاختيار في حدود شخص، وكان في هذا الصدد أمثولة قالت قولها بفعلٍ فصيح. وغسان ليس فردًا، بل حالةٌ وتيّارٌ وامتدادٌ حاضر، ويتواصلُ حتى على أيدي أناسٍ لا يعرفونه على نحوٍ دقيق، وأحيانًا لا يعرفون اسمه، وهذا يؤشّر على قوّة حضوره وحضور نموذج وعيه على نحوٍ يثير الدهشة، رغم انقلاب وتقلّب أوضاع الفلسطينيين السياسيّة على نحوٍ بالغ البؤس.

*** قلت في مقدّمة كتابك «كمين غسان»: «رغم سقوط غسان مسفوك**

الد م»، إلا أن صواب الوعي الذي قدمه لم يسقط، بقراءة سوسيو— تاريخيّة، أين ترى الحالة الفلسطينيّة اليو م من هذا الوعي الصواب؟

** هذا صحيحٌ من - وجهة نظري — باعتباري قارئًا للواقع والتاريخ، غسّان غاب لكن الوعي الذي قدّمه لم يسقط، ولم يكن من الممكن تغييبه، بل إنّه يتعزّز، وهنا تكمن أحد مصادر قوّة غسّان ووعيه الباقي دليلًا صالحًا يتأكّد كلّ يوم عبر الزمن.

بعد موت غسان، كان هناك سياقٌ سياسيٌّ موضوعيٌّ وذاتيٌّ أدّى إلى انتكاس الحالة الفلسطينيّة وتدهورها، اليوم نلاحظ أنّ هناك حالتين في المشهد الفلسطيني، هما على طرفي نقيض، حالة التردي والتساوق والتواطؤ على الذات وعلى متطلبات الحياة الكريمة، وحالة تعبّر عن نفسها على أساس وعي مقاوم، وتعمل في ظروف صعبة، لكنّها على صلة بالوعد، فيها قوى بلغت مرحلةً معقولةً وحاسمةً من التكامل، وفيها قوى تشكو من غياب التكامل في رؤيتها وخياراتها وتعبيراتها. لكن المتوقع في المدى التاريخي المنظور من مجمل ما يحدث في المنطقة يبشّر وسط الصعوبات بزمن من نوع آخر.

كما أنّ هناك عودةً واستعادةً لفلسطين فكرةً، ودعوةً للتحرّر والانعتاق؛ كي تستقيم أحوال الزمن برمّته، وليس أحوال فلسطين وأهلها فقط، وهذا سرٌّ من أسرار من شاهدَ فلسطين وغيّبها، لتاريخها يقول لنا: إنّ من بين أدوارها أن تعطي هُويّةً للزمن، ما يتعيّن على غالبيّة من الفلسطينيّين (قوى وأفرادًا ومجتمعًا) إعادة قراءة فلسطين وفقهها من جهة، والإجابة عن سؤالها أمام أنفسهم هو: **أين هم من الوعي المناسب والملائم الذي يمكّنهم من بلوغ أهدافهم داخل مشقّات التاريخ، وأن يضعوا حدًا لضلال السعي، بينما يحسبون بأنّهم يحسنون صنعًا، قياسًا على القول العالي الكريم؟**

على وعيهم أن يرى فلسطين في مدارها الواسع، ويدركون مرّةً واحدة، ولكن إلى الأبد، أنّ تقرير مصيرها عند نقطة معيّنة يكفّ عن أن يكون شأنًا فلسطينيًا خالصًا، فلسطين في الزمن والتاريخ شأنٌ روحيٌّ وزمنيٌّ للقوى الحيّة في أمّتين معروفتي الاسم والعنوان، وأمة ثالثة منثورة على مساحة العالم. ومن كانت فلسطين هي دليله فلن يضل الطريق أبدًا، وعند فقدانها دليلًا ودعوةً فلن يربح أحد من المهتمين بها، لا نفسه ولا مصيره ولا أي شيء آخر.

*** عدّ البعض الكتابة العربيّة بعد سنة 1948، «عملًا تاريخيًا» و«عملًا مقاومًا»، في تصدّيها للانقطاع والتمزيق اللذين أحدثتهما النكبةُ في الزمن العربي، ومنه الفلسطيني، في حين قلت إنّ هدف دراستك «كمين غسان»، هو تعقّبُ بنية الوعي، كما بناها نص «كنفاني» في علاقتها مع التاريخ الذي صدرت منه من جهة، وتحكمها في الواقع ومتطلباته من جهة أخرى: هل لك أن تشرح وتوضح لنا الفكرة المرادة أكثر؟**

** عندما جرى تجريد الفلسطينيين من كلّ شيء بفعل النكبة وسياقها، لم يبقَ لديهم، وكما قال الراحل محمود درويش، سوى الكلمات، صعود الفلسطينيين من حيز الوجع إلى حيز إدراك ما جرى ثم مقاومته تمّت بقوّة الكلمات أوّلًا.

عبد الكريم الكرمي، نجيب نصار، عبد الرحيم محمود، إبراهيم طوقان، سميح القاسم، محمود درويش، ناجي العلي، غسان كنفاني، إميل حبيبي، فيصل دراج، يوسف الخطيب، رشاد أبو شاور، خالد أبو خالد، وحشد من الأسماء المتعاقبة، فلسطينيين وعرب كثر أيضًا نهضت من هناك، في حيّز الكلام مقاومةً تؤسّسُ لكل أشكال المقاومات وتشارك فيها.

الكلام أيًا كان الشكل الذي يرد فيه نصوصًا على تنوعها أو أصواتًا حيّة تقول ليست منعزلةً عن الواقع الذي تصدر منه، وهو ليس نتاجُ فعلٍ فوضوي. الواقع له بنيةٌ وسياقٌ والكلام الأصيل له بنيةٌ وسياقٌ وبين السياقين والبنيتين تقوم علاقاتُ تجادلٍ وتثاقف، ومن هنا تأتي أهمية تعقّب النصوص للتاريخ الذي تصدر منه، والكشف عن الوعي الذي تبنيه.

هذا ما فعله غسان كنفاني، وهذا ما يجب أن تفعله قراءته وقراءة خطابات الآخرين،

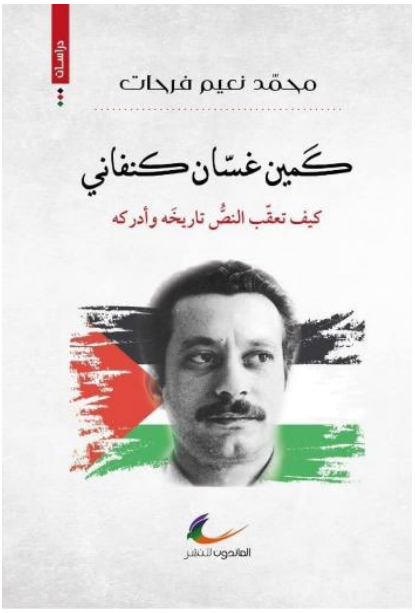

وباستثناءاتٍ محدودة لدينا تقصيرٌ فادحٌ في قراءة تجاربهم وخطاباتهم، والوعي الذي تشاركوا في تكوينه واستدخاله وتكوين إيمانٍ عميقٍ مستدام يشارك فيه الجميع ويعملون في ظلّه. واقع الحال الراهن يشير إلى أنّنا متفرقون ومتنافرون ومختلفون أكثر من أيدي سبأ.

في ثنايا نص كنفاني البسيط، لكن المتكاثف إلى حدّ مدهش، نعثرُ على ملامح بنية الوعي التي بلورها وأبعادها المختلفة التي قامت على فكرة المقاومة بمعناها الوجودي العميق، وليس بالمعنى المشرذم الذي يعطيه الوعي الفلسطيني السائد لها.

والتعقّب هنا هو فعلُ اقتفاء، يجب أن يكون يقظًا، نبيهًا، ومتبصّرًا، يرمي لإدراك مقاربة النص لعالمه وبنية الوعي التي تقوم فيه.

*** يرى إدوارد سعيد أنّ رواية غسان كنفاني «رجال في الشمس» هي من أقوى الأمثلة على الكتابة المقاومة، ويعدّها من أبرع وأقوى الروايات القصيرة في الأدب الحديث، كيف لنا أن نتمثّل مشروعًا وطنيًا تحرّريًا إن لم يوازِه مشروعًا ثقافيًا من العيار ذاته؟**

** المشروعُ الثقافيُّ لا يقوم في موازاة المشروع الوطني، المشروع الثقافي هو مؤسّسٌ وفاعلٌ دائمٌ لأيّ مشروعٍ مجتمعيٍّ

مهما كان وفي أي ظرف كان. قوة الجماعات وتعبيراتها عن نفسها كما ضعفها يعود إلى جوهر ثقافتها ومكوناتها وروحيتها.

النهوض الفلسطيني المعاصر المقاوم هو في الأصل نهوضٌ للروح الثقافية، والتراجع الفلسطيني والارتباك والضمور والانقسام والتشظي والتباين السياسي هو بسبب ابتعاد الخيارات السياسية - عند أغلب، إذا لم يكن كل القوى الفلسطينية - عن الثقافة وروحيتها وقيمها ودليلها الناظم، ولاحقًا نبحث عن عوامل موضوعيّة أخرى.

الخياراتُ السياسيّةُ السويَّةُ تكون تعبيرًا عن الثقافة السويّة، وعندما تتبثُ العلاقة بين السياسة ومرجعياتها الثقافية السوية، تكون النتيجة ضلالًا سياسيًا وتاريخيًا مبينًا. الفلسطينيون وقواهم السياسيّة على اختلافها تقيم في حيز الأزمة القائمة بين السياسة والثقافة، كلٌ في نحو يخصّه، ولن تصبح لهم جدوى سياسيّة أمام أنفسهم وإزاء التحديات مهما كانت دون حل هذه الإشكالية، وهي إشكالية لا يحلها الجلوس على الموائد، بل في تغيّر ما في نفوس من يجلسون على الموائد، وإعادة الناس لترتيب ما في نفوسهم على أساس القيم والاعتبارات الثقافيّة الإيجابيّة والبناءة. خط المناعة والصمود والقدرة الأول والأهم عند كل الشعوب هو ثقافتها. أمّا ما قاله إدوارد سعيد عن رجال في الشمس فهو وصفٌ حقيقيٌ وعالٍ ليس بمقدور أحد أن يضيف عليه.

*** يذهب د. فضل النقيب إلى أن غسان بدأ بالتعبير عن نفسه سياسيًا من خلال الرسم قبل الكتابة، ووجد لاحقًا في ناجي العلي الرسام الذي قدّمه من خلال صفحات مجلّة «الحريّة»، تعويضًا عن انشغاله في الكتابة التي أحبها وأعطاها عمره، وهنا هل يمكنُ القول إنّ غسان وناجي مثّلا ظاهرةً واحدة، ومن ثَمّ لقيا المصير نفسه؟**

** ناجي العلي وغسّان كنفاني مثّلا مقاربتين متجانستين في المضمون والأهداف والخيارات، وإن اختلفت أشكال التعبير عندهما، كل واحد منهما فعل ذلك من موقعه وبحساسيّة تخصّه، ولأنّهما كانا أصيلين فقد التقيا في حيز التقاطع العميق والتخاطر عند أصحاب النفوس العالية.

لا نحتاجُ للبحث عمّا يُفضي لإدماجهم مثقفينا وكتابنا للتعامل معهم ظاهرةً واحدة، الذي نحتاج إليه أن نعاين كيف أن دروبهم المختلفة قد أدّت بهم للالتقاء في حيز الأهداف الجماعيّة الموحّدة، وكيف ربطوا جدارة البقاء بالمقاومة.

ناجي وغسان وغيرهما كانوا رايات الوعي الملائم إذا جاز القول، وقادة في جبهات الثقافة التي حاولت صياغة خيارات سياسيّة تتّفق مع منطلقاتها وعواطفها وحاجاتها.

*** من أهم النتائج التي قد يصلُ إليها قارئ دراسة غسان كنفاني عن ثورة 1936 — 1939، هي ما يتعلّق بطبيعة النخب والقيادات الفلسطينيّة آنذاك التي صنّفها: قيادة مقاومة، وتعرف جوهر المشروع الصهيوني، وقيادة تجيد المقاومة والمساومة في الوقت ذاته، وأخرى ترى أن ضمان مصالحها يتحقق بالتعاون أو التواطؤ مع الاستعمار لا مقاومته، ونتيجة أخرى مهمّة، وهي أن خسارة فلسطين لم تجرِ عام 1948، بل عام 1939، عندما انتهت ثورة 1936 دون أن تحقّق أيًا من أهدافها... فأي مقاربة تلك التي يمكن أن تقرأها بين ثورتي 1936 ومآلاتها، وبين ما تعارفنا عليه بالثورة الفلسطينية المعاصرة وأُورّخ لها منذ منتصف الستينات في ضوء ما كتب غسان؟**

** قراءة التاريخ الفلسطيني المعاصر تقول للمعنيين الكثير من الملامح الأساسية التي يحتاجونها لتكوين فهم وتفسير مناسبين لما عرفه هذا التاريخ في نزوله وصعوده، في انكساراته ومقاوماته، وخصوصًا تفسير إعادة إنتاجه لشوائبه.

من هذه الملامح أن الجماعة الفلسطينية وأبنيتها تفرز ديناميكيّة مقاومة، لكنّها تعاني من الإحباط في تواصلها واستدامتها وفي تطوّرها وفي تأطير نفسها على نحو مناسب، وفي تحقيق أهدافها أو التأسيس لتحقيق أهدافها على نحوٍ راسخٍ ومتراكمٍ وواعد.

الوعي الفلسطينيّ لا يقومُ على أساس التراكم والاستئناف من حيّز التراكم، وليس محكومًا بنظرة عميقة وشموليّة للواقع وسياقاته، ولا يعرف فضيلة استخلاص العبر، ولم يتعلّم ذلك، رغم قسوة التجربة، لذلك يميل الفلسطينيون جيلًا تلو جيل إلى الارتجال المحبط عمومًا أكثر مما يميلون إلى منطق الخطّة والتأطير الفكري والثقافي والتنظيمي المناسب والمتواصل والقابل للتوريث. كلّ جيل فيهم صعد من ركام تجربة الجيل الذي سبقه أكثر من آخر منجزاته ومشكلاته، وهذا في مكان ما يشيرُ لبعدٍ مأساويّ في طريقة تفكير الفلسطينيين.

هناك مشاكلُ بنيويّةٌ عميقةٌ ومشتركةٌ وجماعيّةٌ عند الفلسطينيين نخبًا وقوًى وعامةً، في التحسّب واليقظة والاستشراف والتقدير، لذلك يميلون غريزيًا لتجريب منهك ومتعب يعطونه صبغةً قدريّةً لا علاقةً عمومًا بينها وبين مفهوم القدر السماوي العظيم.

*** ثلاثيّة النظريّة والتنظيم والممارسة، كانت هاجس غسان في تناوله لمعضلات الثورة الفلسطينية، من خلال دراسة له بالعنوان ذاته، وهنا يحضر واحدة من المسائل/المعضلات المهمة، وهي ترابط: الطبقي والوطني والقومي؛ كونك أستاذًا متخصّصًا في علم الاجتماع، برأيك لماذا أخفقنا في ذلك؟**

أخفقنا لأسباب كثيرة، للخلل في الرؤية عندنا، ولخلل في طريقة وعينا وإدراكنا للواقع وسياقاته ومشكلاته وحلولها، وأخضعنا المصير للتجريب، ولم نربّ أنفسنا ووعينا على متطلبات التحقّق بصورة كافية وحاسمة، وهذا يشير فيما يشير لهشاشة ما في بنيتنا رغمَ قوّتها اللافتة في مستويات أخرى.

أسباب إخفاقنا البنيويّة والموضوعيّة كثيرة، لكن ما نحتاج إليه هو تلك القوّة التي تأخذنا من الإخفاق إلى حيّز الوعد والإنجاز.

* بين فعل الكتابة وفجيعة الموت: كيف تعقّب النصّ تاريخه وأدركه؟

** على النصوص أن تتعقّب تاريخها في كلّ حال، على نحو يقظ وعميق وشفاف وأصيل ومقاوم لا أقلّ.

روحُ غسان كنفاني

وليد عبد الرحيم
كاتبٌ ومخرجٌ فلسطيني/ سورية

من مزايا الروح أنّها لا تختفي ظلالُها مع رحيل الجسد، ثمةَ سرٌ أبدي في ذلك، سر لا تُدركه العين المجردة، يتمُ رصده عبر تلسكوب حسّي لا يمكن إدراك كُنهه أو الوصول إلى المفتاح الذي يفُضّ صكّ باب الخفية والتواري.

شابٌ ما، قد مات حيًا في ستة وثلاثين عامًا، وما زال حيًا في مقبرة شهداء الثورة قرب مخيّم صبرا، خلف تلك النباتات التي تسمح لامتداداتها بتظليل قبر رخامي الطلعة، يُطلُ منه خلسةً وجهٌ غير بريء أبدًا، شامتًا بكلّ أصناف القتلة الذين ترفض نبابات الدُفلى في فلسطين أن تلتفّ أو تتمدّد حول قبورهم، أو حتى تنظر بعيني أفرعها نحوهم، ها هو يطلُ الآن، وأنا أقف أمامه، أحادثه كأنّنا أصدقاء، كأنّني المقارب للستين أكبره، وهو ابن الستة والثلاثين!

لم يكبر هذا الشاب بعد واحد وخمسين عام، ما زال ذلك المتربّعَ الشابَ الساخرَ من الدم والقبلات المزيّفة والمعنى اللفظي، الذي يصوغُ معانيه بمفردات معهودة ودلالات لا تُرى إلا للعارفين بما خلف الستارة، ها هو الآن ينظر ساخرًا من تحت رخامة ويسألني: هيي.. أنت... ما الذي أتى بكَ الآن؟

شُجيرةٌ متطفلةٌ تردُّ على السؤال، أنايَ في ارتباكٍ تتلعثم الإجابة، فأسأله: كيف لم ينضبْ صوتك أيّها اللئيم الحاذق؟ فيجيب: لا صوت لي أنا، بل تلك القوة الكامنة في روح الكلمات وحكمة الجينات البعيدة. وهكذا يتّحد صوتُ غسان مع النباتات ولونِ ظلالِها لحظةَ قيظ بيروتي هبّ في حفرة المعنى، وتشهق بكل دهشتها نباتاتُ عكا، مدينتنا المشتركة الواقفة قبالة البحر التي لم تخشَ هديرَه يومًا حتى صارت عقدةً لنابليون والإنجليز وسائر المشرق والمغرب وجدائل الغرباء.

قلت له: يا غسان، أنْ أكبرَك بربع قرن، فأنت لم تكبر سنًا، وأمّاي فقد غزا البياض ذؤابتي ونَمتْ طحالبُ الروح على جدرانها كنبات تسلّق في الخفاء والجهر، فهبّتْ خلايا عناقيد العنب الخليليّ، وبعضُ أسماك غزة التي تستفز الصيادين، وبنادق الغزاة. قال: أنْ لا لون للقاتل ولا شكلَ يُذكر، هو قد تنوع حتى الفضيحة، ولم يستطع طباعة أيّ من سُحناته على جدران قلعة مدينتنا، هناك حيث كنتُ طفلًا وأنت لم تكن، فكيف تكبرني بثلاثين؟!

ارتجّت رخاماتُ القبر حين ذكر القلعة - قلعة عكا. صرختُ بأعلى ما بي من صمت مزمن: بيروتُ لم تعد قلعةً منذ لحظةَ الخروج المُرّ من تلابيب أزقّة المخيّمات المذبوحة بالحصار الخبيث المزمن، وانتصار تُجّار المخدرات على الحقيقة والثورة وابتسامات الصبايا الحالمات وهموم «أم سعد» التي علّمت روحَك معنى البسَاطة وقضْمَ الجراح بمُتعة الاعتياد كالفستق الحلبي فهل تفهم معنى أن تكون أو أنّى تكون؟ قد يكون ذلك في ألّا تكون جسدًا، أعني بأن تبقى روحًا وما أسهل حجيج الروح وقطع المسافات البعيدة من تراب بيروت إلى حجارة عكا التي ترقب مستقبل البحر!

المسألةُ ببساطة، هي ألا تكترث للجسد، بل للفكرة؛ فالأفكارُ إن بُثّتْ كما يجب صارت روحًا، والروح لا تفنى أو ينضب ماؤها.

ألم ترَ كيف أن مياه البحار تصعد نحو السماء وتعود مطرًا، أو لم ترَ أنّ الشهداء يذهبون وهم باقون في عين الوقت؟ ها هم قد ذوتْ أجسادُهم وبقيت تلك الأرواح ترفُ فوق سقوف الصفيح في مخيّمات اللجوء وجدران الذاكرة الدامعة قطعةَ لحم قُدّتْ من كتف خروف لحظةَ العيد، عيدِ القتلة الذي يصادف كلّ يوم منذ قرن خلا، مع كلّ قطرة عرق تنزف من صدر عامل بناءٍ في أصقاع الأرض وأسخانها، من بيتٍ مدمّرٍ في مخيّم اليرموك حتى كوخ شجري يحترق في غواتيمالا.

قلتُ سقطتْ كل الأمم وذوتْ النزعة الأممية، والشيوعية والوجودية والدادائية والإمبريالية والسريالية فكيف تذكر كل هذا؟ وكيف تترك ظلك ههنا وتسير نحو كوارث الآخرين بكل أناقة الشيوعي ذي السيجار الكوبي وقبعة فلاديمير وصخبِ تروتسكي؟

أتعلم؟ - قال بعد أن عدل من جلسة قبره - أعني تلك النباتات التي تهتزُ مع كلماته - بأن جورج حبش ووديع حداد كانا ينسجان ثوبًا عالميًا مزركشًا بروح أجدادنا، منطلقًا في مثلثاته من ثوب أمّهاتنا التراثي لمعرفتهما بأنّ هناك من سوف يسرق التطريز ومن يخطط لاقتباس اللون من رائحة الزعتر وأجنحة نوارس حيفا، بدليل أنّني قلت لوديع يومًا إنّ إرهابنا أشبه بلوحة رومانسيّة لفنان عاشق من العصور الوسطى، إن أنّت قارنته بما يخطط له العقل الذكي الممول من القدرة المالية العالمية ومن أنظمة العرب، فقال وديع بعد أن مسح صلعته بمنديل التقطه من على طاولتي بأنني الوحيد الذي يراني أكثر لؤمًا منه، ثم دار حول الكرسي ليجلب كتفي إلى ناحية أخرى؛ كي يرى دمعتي المختبئة خلف مفرداتي الموارية التي

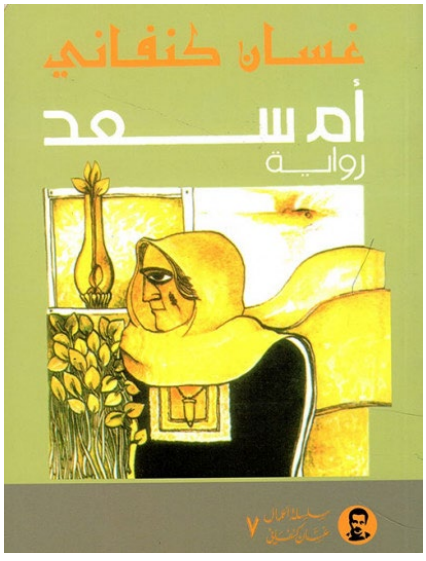

سأخفي وراءَها عشقي للنساء وكراهيتي للدم المجاني الذي يسيل كالحليب من أثداء أمهاتنا بعد الولادة!

- هل قرأت أم سعد؟
- قرأتها أكثر منك.

رمى قلمه غاضبًا، وأسدل حاجبيه كَستارة صالة عرض سينمائي ثم تابع، ليس المهم عدد مرات القراءة وإنما الوصول إلى لُبّ ما يكمن خلف الحروف وصوْبَ جرار الماء الكنعانية المدفونة في عمق الأرض، فهيا ابحث عن الماء لا الذهب! الماءُ باقٍ، وأما الذهب فمهما بلغ مآله إلى التاجرِ الشره الذي يُكدّسه كي يصنع جوعك/ جوعنا، لينتصر دوران الرغيف على حشود المعرفة، فلا تكن طماعًا سطحيًا باحثًا عن الذهب؛ كيلا تكون غريبًا عن الروح/ روحك ذاتها التي تَدور بدورها لتلعن سطح الكلمات المكرورة وانتباهات الوصول إلى وهم الذهب!

- صبرتُ عليك طويلاً، ما الذي تعنيه ؟
- سألتك هل قرأت أم سعد؟ وهل أدركت معنى أن المرء لن يصبح على وطن، فليس هناك من ينام ثم يصحو في اليوم التالي ليجد وطنًا في انتظاره، فقم أنت أيضًا مثل عنقاء تتجدّدُ كلما ذبحتها سكاكين الغزاة والانتهاز والترهُّل، ولا تؤجّر صوتك أبدًا إلا للفكرة ذاتها، حيث تترنّمُ الحروف على نغماتك أنتَ، لا نغمات جامعي الذهب.

قلتُ له: انهض قليلًا من تحت الرخام لنسير معًا في شوارع بيروت، فقال إنّما أنا روحٌ ولستُ قبرًا، فانظرْ إلى الأعلى تراني!

رفعتُ رأسي نحو السماء، ثمّةَ ضوءٌ في كبد السماء، هالةٌ من ضوء مُشعّ يحوّم فوق الرخام وقد ظهرت خيوط عَنكبوت تحتها تحجب بعض معالم ما خلفها، كانت حشرات الانتهاز والخطاب المكرّر قد عشّشت طويلًا على رفوف الضوء وطبقاته مبتسمةً ببلاهةٍ من أجل التقاط صورةٍ للذكرى في احتفالات القبور، وأغصانُ الفكرة متناثرةٌ هنا وهناك، كأنّها تلتحفُ لحى المنافقين في كلّ خليّة من خلاياها، وبعض المنافقين على الجانبين يصرخون: اللّه أكبر.

قلتُ لنفسي إنّني بتُّ على سوية عالية من الغباء؛ كومةُ فحم تُحيطُ بي، فكيف لم ألحظ كل ذلك، وعلى أية جهة أسير كقدّيس أعمى ضلّ طريق إيمانه بالخلود، ونثر على الطريق خلفه حبات التلاشي كمسبحة شيخ صوفيّ انقطع خيطُها؟

سرتُ خطوةً تجاه بابِ المقبرة، فتحركت هالة الضوء فوقي كأنها تظللني... تشجعتُ أكثر لأمضي نحو «مار تقلا» لأصل إلى تلك البقعة التي غيرت معالمها السنون، ولم يعد هناك، في ذلك الطابق الأرضي أشلاءُ سيارة أو كتلُ لحم تشظّت بفعل عبوة لم تكن ناسفة إلاّ شكلًا، بدليل أن هذه الروح الحية الساخرة التي تسير فوق رأسي كهالة ضوء ما زالت تبتسمُ ساخرةً من الخطاب، وما زالت تحفر المعنى بأظافرها الحادة.

نظرَ وجهُ غسان من قلب الضوء، ليس وجهًا بريئًا أبدًا ولا مظلومًا حتى، فالمسألةُ كما قال وهو يبتسم ساخرًا من المادة بأنك حين تزدري المادة تُزهر الروح، فالعظام تتلاشى، الدم يجف، وأما الفكرة فباقيةٌ أبدًا، تتحوّل الفكرة إلى روح، وعليك أن تدفعَ العظامَ والدمَ والجسدَ كله، لا ضير في ذلك طالما أنّ الروح باقية.

قلتُ: الأرواح لا تتلاشى.

قال: أترى؟ لم يقتلوني، أنا من قتلهم، وها هم يترنحون.

قلت: أيها المعلم الحاذق، طوبى للروح الأبديّة، ثم مضيت، وعاد هو إلى كونه، ذاك الكون غير النهائي، سيد الأبدية، الكون الذي لا يصله إلا المطهرون من الخطاب ومن حُبِّ الذهب!

استلابُ الذّاتِ الفلسطينيّةِ في مشروعِ غسّان كنفاني

خالد فارس
كاتبٌ في شؤونِ السّياسةِ والفلسفة / قطر

يُطْلعُنا غسّان كنفاني في رواياته على الذّات الفلسطينيّة في لحظات استلابها وما بعد استلابها؛ لنَجِدَها ذاتًا في أتون الاستغلال بأشكاله وأنواعه كافةً. ينطلقُ كنفاني من الذّات الفلسطينيّة المُسْتَلَبَة، كأنّها مقدّمةٌ لما بعدها من تشرّد، مخيّم، اعتقال، حصار، مطاردة، جنسيّة، إقامة، وظيفة، وطن بديل ... التي كلّها تقع في سياقات الاستغلال الاجتماعي على الفلسطيني.

والاستلابُ مسألةٌ تعني في الاجتماع السياسي والثقافي أنّ الذات الإنسانيّة، جوهرها، الذي يمثّل وضعها الطبيعي، قد فقدته، وبدأت تكتسب ذاتًا مُغايرة، مصدرها قوى خارجة عنها، طارئة عرضيّة، مفروضة عليها، تُملي عليها ما هي الذات الفلسطينيّة المطلوبة للمرحلة الجديدة. الوطن هو مكانُ ذات الإنسان الطبيعيّة زمانها؛ لكي تنمو وتزدهر بحرّيّة وتقدّم؛ سرقة وطن هو سيرورة فصل الذّاتَ عن بيئتها نحو الشّتات والضّياع.

وكلّما وقعت هذه الذّات في زمان الاستلاب ومكانه؛ أي إنّها اكتسبت عناصر ذات أخرى، قَصْرًا، بفعل قوى أكبر وأقوى منها، ستبدأ هذه الذّات في الدّخول في معادلات تُناقض طبيعتها، وَتُطَوّعُها تدريجيًّا بوسائلَ المال، والإعلام، والسلطة.

تدخلُ الذّات الفلسطينيّة في مرحلة دون الوعي؛ لكي تختلط عليها الأزمنة والأمكنة، ففي رواية ما تبقى لكم يقول كنفاني في التوضيح عن شخصيات الرواية، وكأنّه يحاكي أو يستشرف حال الفلسطيني «لا يتحرّكون في خطوط متوازية أو متعاكسة، ولكن في خطوط متقاطعة تلتحمُ أحيانًا. وهذا الالتحامُ يشملُ الزمانَ والمكان بحيث لا يبدو هناك أي فارق محدّد بين الأمكنة المتباعدة أو بين الأزمنة المتباينة، وأحيانًا بين الأزمنة والأمكنة في وقت واحد. «لقد ذهلني هذا التعبير الذي يجسّده في مشاهد تصويريّة، والحديث عن ضياع يافا، التي صار بعدها زمانٌ جديدٌ يتداخل مع كلّ شيء، زمان القضيّة التي ستتجمّدُ فيها الذات الفلسطينيّة، أمام أزمنة ممكنة أو ضروريّة، فتجد نفسها في لحظات انتظار، وهي مُستلبة ستدخل في زمان الانتظار الذي سيمتدُّ في المدى البعيد «ووقف أبي أمام الباب، كان غاضبًا، وكان يرتجفُ شأنه كلّما حار في غضبه، وصاح بصوته المبحوح: «لا تتحدثوا عن الزواج قبل انتهاء القضية»» (ما تبقى لكم، صفحة 189، الأعمال الكاملة).

فالقضيّةُ أزمنةٌ متداخلة، يصعب ملاحقته في «عالم مختلط «. ولكن في هذا العالم يتسلّلُ الوعي من حالة دون الوعي، من عالم يسعى كنفاني فيه إلى «تعيين لحظات التقاطع والتمازج والانتقال، التي تحدثُ عادةً دون تمهيد» (ما تبقى لكم)، بذا نسمع من كنفاني لغة التحوّل النوعي في الحياة؛ بسبب تراكمات من تداخل الأزمنة والأمكنة، فيحدث الانتقال. إنّها لغةٌ جدليّةٌ مع الواقع، أن تكون هناك ذاتٌ قد استُلبتْ، ثمّ استغلالًا يضعُها في أزمنة وأمكنة مختلطة تثيرُ تناقضاتٍ حادّةً فيها، ثمّ يخرجُ منها الجديد.

عندما يفقدُ الإنسانُ ذاته الطبيعيّة، يدخلُ في دون الوعي، وهي المرحلة التي يصبحُ فيها جاهزًا للاستغلال. هذا ما فعله كارل ماركس في مشروعه الكبير، عندما انطلق من الاستلاب إلى الاستغلال، وأن الاستلاب هو سببُ الاستغلال. فبعد أن كتب ماركس كتاب المسألة اليهوديّة، وهي أوّلُ مرّة يشيرُ فيها إلى الاستلاب، والمخطوطات الفلسفيّة

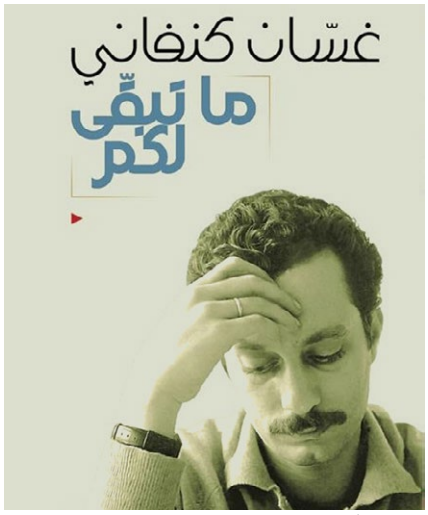

التي نَظَمَ فيها إطار عمل للاستلاب لأوّل مرّة أيضًا، ذهب ليشرحَ الاستغلال الذي يقعُ على الإنسان في رأس المال وغيره.

تُجَسّدُ أعمال غسان كنفاني هذا الاتجاه، أو هذا النمط والحس الإنساني، ويُجسّد الانتماءُ إلى مدرسة فلسفيّة تؤمنُ باستعادة الذّات الإنسانيّة طبيعتها، وأن تحافظ على جوهرها. وتجسّد أيضًا سيرورات التاريخ، السّياسي منه بوجه خاص، الذي منه يتمُّ بناء العَيْني؛ لكي يصل إلى العام الاجتماعي المشترك في أزمنة النكبة والنكسة. فلا يمكنُ لمشروع تحرّر وتقدّم أن ينطلق قبل أن يفهم الذات التي استُلبت، والمحاولات التي جرت لتغيير جوهرها، وواقعها الطبيعي الذي منه تنتج حياتها السياسية والثقافية والاقتصادية. هذا لا يعني أنّها لم تكن تحت الاستغلال في حقب الاستعمار البريطاني، أو العثماني وهو «احتلال» مختلف، ما قبل الإمبريالي الغربي حضر ضمن تمدد الخلافة الإسلامية في أرجاء الوطن العربي أو لم تكن غايته الاحتلال كما البريطاني، بل التقدّم والتطوّر من خلال سيطرة عائلة إقطاع سياسي ديني (عائلة آل عثمان)، بل كانت الذات الفلسطينية في حالة استلاب أيضًا خلال الحقبة البريطانيّة وقبلها العثمانيّة. ولكن هناك محطّة الاحتلال الإسرائيلي، الذي عندما جاء أراد أن يفرض غير الذّات الفلسطينيّة، نفي الذات؛ إنّه لا يوجد ذات فلسطينيّة أصلًا؛ لكي يبرّر سرقة الأرض وتهجير الشعب.

أراد كنفاني أن يغرس الذات في التاريخ،

ويُأَصّل لها، ويرصد عوالمها المتداخلة، «الصعوبة الكامنة في ملاحقة عالم مختلط بهذا الشكل...» (رواية ما تبقّى لكم. التوضيح). ثم ينطلق في استكشاف آليات استغلال ما بعد الاستلاب، وهو بذلك يواجه المشروع الصهيوني فلسفيًا وتاريخيًا بأدوات الثقافة الأدبيّة. الصهيوني الذي يُنكر الذات الفلسطينيّة الطبيعيّة (أرض بلا شعب وشعب بلا أرض). فيقول لهم كنفاني، إنّنا سنعلن ولادة ذات فلسطينيّة مُستلبة، ونحن نعي ذلك جيّدًا، ونعي أزمنتها وأمكنتها، وندرك تمامًا أنّها ستقعُ في براثن الاستغلال الحديث.

وعن أم سعد يقول كنفاني «لقد علّمتني أم سعد كثيرًا، وأكاد أقول: إنّ كلّ حرف جاء في السّطور التالية إنّما هو مقتنصٌ من بين شفتيها التين ظلّتا فلسطينيتين رغم كلّ شيء.»، وهنا كنفاني يلجأ إلى ذات فلسطينيّة «أصيلة»، يتعلّمُ من كينونتها. ولكنّها ليست وحدها، إنّما شعبٌ له تجسيدٌ طبقيٌ في النكبة والنكسة فأم سعد ليست امرأةً واحدة، ولولا أنّها ظلّت جسدًا وعقلًا وكدحًا، في قلب الجماهير وفي محور همومها... فقد كان صوتها دائمًا بالنسبة لي هو صوتُ تلك الطبقة الفلسطينيّة التي دفعت ثمنًا غاليًا ثمن الهزيمة». ثم يأتي الاستغلال بعد الاستلاب «التي تقف الآن تحت سقف البؤس الواطئ.. وتدفع، وتظل تدفع أكثر من الجميع». بعد أن تمّ استلاب ذات أم سعد، وفقدتها بسبب الهزيمة، أصبحت تحت وطأة الاستغلال. تسلسل منهجي جدلي، لا يَحْرقُ المراحل ولا يتجاوزها عُنوةً أو إراديًا، بل يأخذها في منطق التاريخ العيني ليصل إلى العام الاجتماعي، طبقة النكبة والنكسة في تنوع واقعها وذاتها.

سنجد في كل لحظة أن غسان يحاول استعادة لحظات الاستلاب؛ لكي يثبت أن هناك زمانًا ومكانًا قبل الاستلاب، وأنّه حمل في ذلك الزمان كل ما فيه من سلبيّات وإيجابيّات. لم يقل كنفاني أن ما قبل الاحتلال الصّهيونيّ الذات الفلسطينيّة صافيّة الوجود، ونقيّة، إنّما أراد أن يقول: إنّ استلاب شيء يعني أنّه موجود شعبًا وأرضًا، وإلا لما أمكن استلاب شيء غير موجود. هذا التجذير الوجودي للشعب الفلسطيني، صدم المشروع الصهيوني؛ لأنّه تواجه معه في عقر داره، في أيديولوجيته التي تتخفّى في أقنعةٍ يصعبُ على العام الاجتماعي إدراكه.

ولو شاءت الأقدارُ أن يكون غسان هنا، بيننا، فإنّني أستشرف بأنّه سيكتب عن تداعيات أوسلو التي قَسّمَتْ الذات الفلسطينيّة إلى ذات النّكبة وأخرى للنّكسة وما بينهما من الضفّة وغزّة والشّتات، وشتات الشّتات، ويرفض قطعيًا خيانة «أم سعد» التي جسّدت طبقة الفلسطينيّين. لكنّه أيضًا سيرى في واقع أوسلو العيني حالة تجسيد عينية للزمان والمكان الفلسطيني، وربما يكتب عن استلاب ما بعد الاستلاب الأول واستغلال يقوم على الاستلاب الثاني، كم نحن في حاجة إلى مشروع أدبي يشرح لنا الاستلاب الثّاني الذي يُمزّق الذات الفلسطينيّة إربًا؟

فكتابات كنفاني هي استنهاض، وليس بُكاء على الأطلال، وهي الواقع أيضًا، والمُضي قُدُمًا بأدوات تُراكمُ معرفة ونِضال وتَحرر. وأنا أكلم نفسي، أقول، ربما سيكتب لنا عن الفلسطيني في عصر الفضاء المعلوماتي، والذكاء الصناعي وربما يقول لنا إنه الغباء الصناعي؛ لأنه يتصرف نيابة عن الإنسان، وهذه لن يقبلها كنفاني الذي يعد أن الإنسان في ذاته هو الأصل، وأن الغباء الصناعي هو استلاب لها. وربما يقول لنا إن هناك غباء صناعيًا خاصًا بالفلسطيني؛ لأنّه سيؤدّي دورًا في استلاب ثالث، استلاب ديجيتال. فهو الرقم الصعب الذي بعد كل هذا التدمير، والتفتيت والحصار والشتات والفقر والاضطهاد، تعتقد قوى الاستلاب العالمي أنّه لا بدّ من مواصلة تذويب الذات الفلسطينيّة التي جسّدتها أم سعد والمخيّم والشّتات والأوطان البديلة.

لماذا يجب الحديث عن غسان كنفاني دائمًا؟

يثير التنوع الذي سعى له كنفاني سؤال المجتمع. إنْ كانت النكسة والنكبة تعبر عن طبقة، فهذا لا يعني أنه لا يوجد تنوّع ولا يعني أن الطبقة عند غسان هي مجرّد نمطٍ ساكنٍ أحادي الوعي والأحاسيس. رَمَزَ بتصوير جمالي أدبي، وأنه إذا كان للطبقة اتجاه مسيطر نافذ في الواقع العيني، فهذا لا يعني أن الحق معها «وأحيانًا ينحرف الماعز الأكبر في القطيع وراء قشرة برتقالة فيتبعه القطيع بأكمله، وقد يجتاز سياجًا فيشتبك الرعاة بالمزارعين ويموت ناس ....» (من رواية العاشق صفحة 429 الأعمال الكاملة). فالقيادة التي تسعى إلى قشرة برتقالة، فإنّ مآلاتها ستكون «القطيع» بما في ذلك من أخطار الانقسامات التي تمر فيها محطّات حروب أهلية.

من مهمّات القيادة النافذة البحث عن الحَقّ في التَنَوّع، في وحدة الناس باختلافهم عن بعضهم البعض، هذه هي الطبقة الفلسطينيّة في تنوّعها، فهي لا تتوحّد إلّا في تنوّعها. استلاب الذّات الفلسطينيّة الجمعيّة بتحويلها إلى «قطيع»، هو الذي يمنعُ قيام وحدة التنوّع. استلاب داخلي، استكمالًا لاستلاب الاحتلال، وهو تحويل الجماهير إلى قطيع أو رعاع، ظاهرة عامة عربيّة، بدأت منذ وعد بلفور، أخطرها عندما تحدث في أوساط الشعب الفلسطيني.

إنّ «رأس الولي» في رواية «الأعمى والأطرش» ما هي إلا «فِطْر» تَوَهّمَ الناس أنه وَلِي يحمل سمات خارقةً على الواقع، بذا علينا أن نعاين الواقع؛ لأنّه دون المعاينة لهذا الواقع، سندخل في التجريد الميتافيزيقي، وهو أخطر أنواع الاستلاب للذات؛ لأنّه يحتكر الحقيقة التي هي أحاديّة مركزيّة ترفض التنوّع. لا نريد استلاب «قشرة البرتقال» ولا «رأس الولي»، كلاهما يدمر طبقة النكبة والنكسة المتنوعة، وينسخها في قالب «ذِهْنَوي» أخطأ في معاينة «رأس الولي وقشرة البرتقال»، أحدهما تمدّد في مُلخّص وَلي وآخر خرج عن طريق الصف الاجتماعي نحو قشْرَة. فتتحول بهما الجماهير إلى «قطيع» أو فردانية تنتفع من هيمنة أوهام الخلاص الفردي. وهذه واحدة من استخلاصات الحِكَم في مشروع غسان كنفاني.

إنّ الفلسفة بالتعريف، هي حب الحكمة. أن تحب الحكمة يعني أن تحب غسان كنفاني.

من غسّان كنفاني إلى ميلان كونديرا:
الحياةُ ليست في مكانٍ آخر

تغريد عبد العال
شاعرةٌ وكاتبةٌ فلسطينيّة/ لبنان

يقولُ غسّان كنفاني: إنّ الحياةَ لا قيمةَ لها قطُّ، إن لم تكن دائمًا واقفةً قبالةَ الموت. ومن هنا يبدو سرُ فلسفةِ غسّان تجاهَ الحياة بالمواجهة وليس الفرار والهرب. ولعلّ قولًا آخرَ أيضًا يستوقفنا حين يقول غسّان: إنّ كلماتي ليست إلا تعبيرًا صفيقًا عن غياب السلاح. فتبدو اللغةُ في أدبه مكانًا حقيقيًا يواجه الموت، ويطرح أمامه الأسئلة، كما كان في كلّ رواياته.

ففي أدب الكاتب الفلسطيني المناضل غسّان كنفاني أسئلةٌ راهنةٌ عن الحياة بشكلٍ عام، وعن الوطن بشكلٍ خاص، ولذلكَ نعدُّهُ كاتبًا معاصرًا. لا يزال أدبه يُقرأ اليوم؛ بسبب تلك الحاجة إلى تحليل الواقع بالاستناد إلى ما طرحه غسّان من أفكارٍ وأسئلة. لذلك نسأل دائمًا: لماذا نعيد قراءةً غسان دائمًا؟ وهل نحن بصدد قراءةٍ مختلفةٍ كلّ مرّةٍ لأعماله؟

أقول: إنّنا سنعيدُ قراءته؛ لأنّنا اكتشفنا أن الواقع لم يتغيّر، وأنّ ما تحدّث عنه يحدثُ كلّ يوم أمامنا. فها هم «رجال في الشمس» يرمونَ أنفسهم مجدّدًا في قوارب الموت. كأنّ الطريق لم تتضح بعدُ أمام الباحثين عن خلاص فرديّ في عالمهم الجماعي المثقل بالذاكرة الجمّاعيّة. فغسّان أطلّ علينا قبل عقودٍ لينبّههم أنّه ربّما عليهم ألا يكونوا في الخزّان أصلًا، ليتحوّل سؤاله إلى أحد أهم الأسئلة التي نطرحها على أنفسنا - نحن الفلسطينيين-.

ومن هنا نكتشفُ فنيًا وأدبيًا معنى كلمة «المعاصرة»، أنّها تطرح سؤالًا راهنًا وتكتبُ أفكارًا لا ينهي صلاحيّتها الزمن، هي العمقُ الذي تحدّث عنه غسّان حين قال: ليست الأشياء العميقة معقّدة، وليست كل الأشياء البسيطة سهلة، بل إنّ الانحياز الفنيّ هي أن نقول الشيء العميق ببساطة». في زمنٍ يمجّد الابتعاد عن الكلاسيكيّات والخطابات، نجد البعض أحيانًا يعدُّ هذا الأدب الذي سمّاه غسّان «أدب المقاومة» قد أصبح في الماضي، بينما يبرهنُ هذا الأدب كلّ مرّة أنّه أصبح مرجعًا للفكر والسياسة والرواية والفنّ أيضًا؛ لأنّه كلّ مرّة يجعلنا نفكّر بالهُويّة، وكيف ننقذها في زمنٍ تشويه المعايير الفنيّة والأدبيّة، التي أصبح الغرب، وكأنّه هو المركز المحرّك لهذه المعايير والمهيمن عليها، بينما وجدنا على المقلب الآخر كيف احتفى بغسان لعظمة ما قدّمه من أدب. فلماذا هذه المفارقة التي تجعلنا أحيانًا مستلبين لمعاييرَ غربيةٍ في النظرة للعالم؟

ففي «رجال في الشمس» مرّة أخرى، يوحي غسّان أنّ الخلاص ليس في مكانٍ آخر؛ لأنّ القضيّة واحدة، هي فلسطين، فالصحراء ستبتلعنا إن استسلمنا. بينما على الجهة الأخرى، تحتفي رواية الكاتب التشيكي ميلان كونديرا «الحياة في مكانٍ آخر» بذلك المكان البعيد الذي يحتوي كل الأحلام عن الحياة، وهي تتحدّث عن شاعرٍ يعاني في ظلّ أيديولوجيا الحزب الشيوعي، ويفكّر في الابتعاد عن كلّ شيء. هذه الفلسفة، فلسفة كونديرا، التي تتساءل عن معنى أن تكون شاعرًا في ظلّ نظام ديكتاتوريّ كما يراه كونديرا، أثّرت على ثقافاتٍ كثيرة، حتى صار الهرب من المكان الخانقِ هو الحلّ الفرديُّ للأزمة الوجوديّة، بينما لم يكن غسّان مستلبًا، بل كان ينتقد تلك الأفكار، ولذلك كان قرع الخزان ضروريًا، ووهم المكان الآخر لم يكن في ذهنه أو قاموسه، بل حذّر منه، حتّى أنّه في رواية «أم سعد» قال تلك الجملة الفارقة التي تؤسّس لمكانين مختلفين داخل المكان نفسه: «خيمة عن خيمة بتفرق».

لذلك وبالنسبة لتلك الروايات الكثيرة التي نقرأها اليوم، التي تكتبُ في العالم العربي، هي رواياتٌ تحاولُ أن تقول ما تعكسه الروايات الغربية: إنّ الجنة في مكانٍ آخر، أكثر حرية وانفتاحًا، ومن هنا نرى غسان الذي قرأ الكثير من روايات الأدب الروسي وروايات فوكنر، وربّما تأثّر قليلًا بأساليبهم، لكنّه لم يكن مجرّد ناقلٍ للأفكار، فقد كان في الأدب صاحب فكرتِه الأصيلة، كما كان وهو صحفيٌّ ندًّا للإعلاميين الغربيين، فكلنا شاهدنا كيف تحدّث غسان مع الصحفي الأسترالي.

وقد كان غسّان كنفاني نفسه حائرًا لمن يكتب، فكان منشغلًا أيضًا بأسلوبه الفني، وليس فقط بالفكرة النبيلة. فقد تراوحت أعماله بين البساطة أحيانًا والصعوبة نادرًا، كرواية «ما تبقى لكم»، «والأعمى والأطرش»، لكنّه اكتشف أنّه يريد أن يكتب للجماهير منحازًا لتلك البساطة العميقة، فعبّر بلغة بسيطة عن أفكارٍ عميقة جدًا وكبيرة: كالوطن والحياة والمنفى والموت والخوف، وهذه الأفكار تتداخل لتشكّل فكرةَ الإنسان الذي تحدّث عنها، وهي القضيّة «فلسطين» التي كان يحاربُ من أجلها.

والآن أعودُ إلى المكان الآخر لأتذكّر قصّة غسّان «البومة في غرفة بعيدة»، فعندما طلب الشيخ من البطل أن يخبّئ البنادق تحت شجرة التين، بعد أن دخل اليهود إلى القرية، ورغم الخوف فقد ذهب إلى الشجرة البعيدة، وخبأ البنادق، ولكنّه نظر إلى الشجرة في الأعلى فرأى بومةً خائفةً تنظر إليه. في هذه القصّة أيضًا يجعلنا غسّان ندرك أنّ العمل البطولي يكمنُ في تلك المواجهة الحيّة للخوف وللموت إجمالًا.

لذلك أتخيّل أنّ غسّان يقول لكونديرا اليوم: عزيزي كونديرا الحياة ليست في مكانٍ آخر.

غسّان.. في ذكراه!

د. حسن حميد
كاتبٌ قصصيٌّ وباحثٌ روائيٌّ فلسطيني/ سورية

أجل، ما كان أحدٌ يعي ما الذي سيكون عليه بوشكين (1799-1937) من أهميّة ومكانة وحضور في الأدب الروسي، حين رحل وهو في عمر ثمانٍ وثلاثين سنةً فقط؛ لا أحد، آنذاك، وعى أهميّة ما كتبه من قصص، وروايات، وأشعار ومسرحيّات؛ وما قاله من مقولات نقديّة إلا على نحو من يمشي فتماشيه هالةٌ من نورٍ مفارقة، وما ميزة له عن الآخرين. لقد طارد بوشكين الوقت، وطارد طرائدَهُ الجميلة (قصصًا، وقصائد، وروايات، ومسرحيات، وآراء نقديّة شفهيّة ومكتوبة)، مثلما طارد الإبداع؛ لكي يكون غنيًا مثل نهرٍ يمرّ بالأمكنة فتجاوره الأشجار، والحقول، وقطعان الماشية، والأزهار، والقرى، والطيور!

مثل هذه الحال البوشكينيّة المحتشدة بالخصوبة والمطاردة عاش غسّان كنفاني حالًا مشابهةً لها أيضًا، فالهاجسُ أنّ زمنه قصيرٌ ومحدود، وامتلاكه جنسًا أدبيًّا واحدًا لا يكفي لكي يضيء ما في روحه من إبداع وجمال، وما في عقله من رؤى، كلّ هذا كان من شواغل الاثنين: بوشكين، وغسّان كنفاني؛ لأنّ الخوف من فقد كلّ شيء في لحظة طائشة كان متشابهًا عندهما أيضًا؛ فبوشكين خافٌ من أن يأخذ به المتربصون غيلةً وفجاءةً غير محسوبة، وفي كلّ الأمكنة التي عاش فيها منفيًّا، في بطرسبورغ، وموسكو، والجنوب الروسي، والمقاهي، وأمكنة الحفلات!

وغسّان كنفاني خافٍ هو الآخر من أن يُؤخذَ أيضًا، وعلى نحوٍ فجائيّ غير محسوب، منذ أن كان طفلًا مُوزّعًا (خلال اثنتي عشرة سنة من طفولته) بين مدن فلسطينية ثلاث: عكا، حيفا، يافا، وبسبب الخوف ووجود أهل الخوف وصانعيه: الإنجليز وعصابات اليهود، راح يمشي في درب المدرسة متلفّتًا يمينًا وشمالًا؛ لأنّ الأخبار التي سمعها أمس عن المجازر، والقتل، والدمار، والخراب، والمطاردة في الأرياف والمدن الفلسطينيّة باتت تجولُ في رأسه الصغير، ولهذا كان قرينه اليومي، في طفولته المبكّرة، هو الخوفُ من المحتلين، ثم سيكبر الخوف حين يغادر المدن الفلسطينيّة الثلاث قسرًا في نفي أليم موجع، وسوف يصير الخوف أكبر فأكبرَ حين يتحوّل إلى أسئلة قلقٍ إجاباتُها عصيّة!

غسّان كنفاني (1936-1972)، وقبل رحيله المباغت، ما كان أحدٌ يعي ما الذي سيكون عليه هذا الرجل الذي تناهبته الآداب، والفنون، ووسائل الإعلام، والأخبار، والتواريخ والأمكنة، واللغات (لقد أتقن الإنجليزيّة والفرنسيّة قبل أن يعرف طعوم المنفى)، مثلما تناهبته الصداقات، والأسئلة، وشواغل الحياة، لهذا لم يعش، شأنه شأن بوشكين الروسي؛ حياته الخاصّة إلا على شكل محاورةٍ يوميّة مع الأسئلة الرجيمة التي تبحث عن خلاصٍ لها من الأشراك والأفخاخ. لقد ظنّ بوشكين أنّ قربه من السياسة، والشعراء، وقصر الإمبراطور، سيوفّر له الحياة المرتجاة والمأمولة، ولكنّ ظنّه ظلّ ظنًّا، وأنّ مبارزة عاشق زوجته، قولة ستبعثرها يد الهواء، وأنّ جمال كتاباته سيحول بين جسده والأذى، لكن الظنّ ظلّ ظنًّا أيضًا! وغسّان كنفاني، هو الآخر، ظنّ أنّ استغراقه في الآداب والفنون والإعلام والسياسة، سيوفر له النجاة المحلومة من قلق الأسئلة وضجيجها المخيف، لكن الظنّ ظلّ ظنًّا أيضًا!

لقد رحل بوشكين وبقيت جسارته، ورحل غسّان كنفاني وبقيت أحلامه، وقد تذوّق كلاهما طعوم الإبداع، فأرادا بناء مملكة للإبداع هناك في روسيا، وهنا في المنفى الفلسطيني، ومع ذلك لم يجهر أحدهما بمعاني الأبوة، أو يشير إلى طيوفها؛ بسبب طراوة عمريهما، الزمنُ وقرينُه الجمالُ جهرا بأن بوشكين روسيا هو أب الأدب الروسي، وبأن غسان كنفاني هو أب الأدب الفلسطيني، وذلك لفذاذة رابخة في مدونتيهما الخالدتين.

ما كتبه بوشكين من أدب، على اختلاف أجناسه، هو، ومنذ قرابة مئتي سنة، غيرُ قابلٍ للنفاد؛ لأنّ روح هذا الأدب هي روح الشعب الروسي؛ أيّ روح الأجداد المتجددة والمتعددة والخصبة، وما كتبه غسان كنفاني من أدب، على اختلاف أجناسه، هو، ومنذ خمسين سنة وأزيد، غير قابل للنفاد، لأنّ روح هذا الأدب هي روح الشعب الفلسطيني، أيّ روح الأجداد المتجددة والمتعددة والخصبة!

أجل، أطاحت المبارزة الدموية الظالمة بـ بوشكين، وأطاح اللغم المتفجّر بـ غسان كنفاني، لكنّهما ما زالا قمرين من نور بهّار، وحضور باذخ، شأنهما شأن الآباءً الذين يدوّم ذكرهم في البيوت؛ لأنّهم بُناتها وأعمدتها أيضًا، وكلاهما عرف القاتل الذي لم يكن سوى الظلموت غامق السواد هنا، وغامق السواد..هناك!

السّردُ القَصصي في (أرض البرتقال الحزين) لغسّان كنفاني

سعيد بشتاوي
شاعرٌ وكاتبٌ فلسطينيّ/ سورية

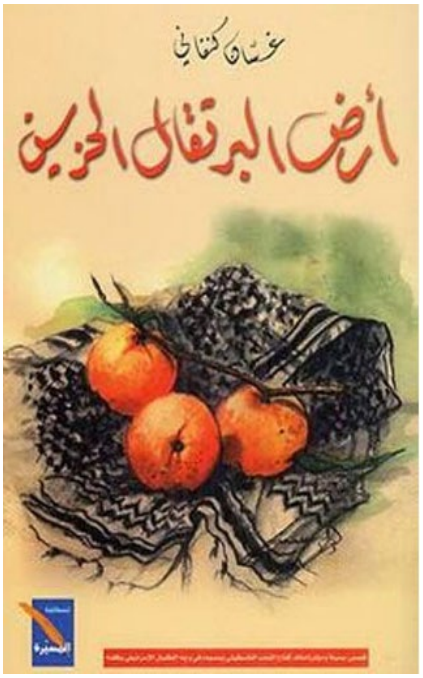

لا يختلفُ اثنان، سواءً أكانَا أصحاب ثقافة أم لم يكونا كذلك، أنّ غسّان كنفاني أيقونةُ النضال الفلسطيني الشرعي وخزّان أسراره ومصباح دروبه، ولو لم يكن كذلك لما طالته أيادي العدوّ الصّهيوني لتغتاله، محوّلةً جسدَهُ أشلاء وُزّعت مدنًا فلسطينيّةً على أرض لبنان، ومن المسلّم به الحديثُ عن غسّان أديبًا ومناضلًا وسياسيًا وفنّانًا.

لقد كان رحمُ الإبداع عنده خصبًا على قصر المساحة الزمنيّة التي عاشَها، كان غسّان يرى أنّ العمر الطبيعيّ للإنسان يكون في الستين، ولكن لم يدرك أنّه من أراد أن يكون ندًّا فإنّه سيموت قبل السّتين بكثير. حقّق غسّان وصيّته بألا نموت إلّا بين زخّات الرصاص، ولم يمت موتًا طبيعيًا في حين أنه رآه عارًا؛ أي الموت الطبيعي.

أرض البرتقال الحزين، لم تكن صورة عكّا كما أرادت هذه المجموعة القصصيّة، بل كانت صورة فلسطين بأكملها، وحتى أجزائها التي لا يعيش فيها البرتقال، كانت أيضًا هي أرض البرتقال الحزين، وقد تلخّصت فلسطين في (أرض البرتقال الحزين) بثماني قصص، كلّ قصّة استقلّت بشخصيّاتها وأحداثها عن الأخرى، وكان لكلٍّ منها أسلوبها الخاص، وصورتها التي ترتسم بها ولا ترتسم بها أختُها الأخرى، ولكن وجدت نفسها كاملةً على اختلاف مضامينها أنّ تجري في مجرى واحد لتصبّ في مصبٍّ واحد، ألا وهو الحزنُ الفلسطيني الأبديّ، والسؤال الذي ضاعت إجابتُه: لماذا نحن هنا؟ ولم يستطع هذا السؤال حتى الآن أن يتزوّج جوابًا.

أرض البرتقال الحزين هي الأرضُ الأدبيّةُ التي اتّضحتْ فوقها مأساة الفلسطيني التي ما زالتْ تائهةً في شوارع المنفى الكبيرة، وفي أزقّة المخيّمات الصغيرة، المتّسعة لكلّ تفاصيل يتمنا وحزننا، ولقد أراد غسّان منها مرآة للواقع الفلسطيني، وذاكرة له، يستطيع أن يرجع إليها متى شاء؛ كي يتثبّت من مأساته.

تبدأ هذه المجموعةُ القصصيّةُ بحوار بين شخصٍ من العامّة وشخصٍ من الخاصّة، حوارٍ فيه أسئلةٌ وقضايا فلسفيّة في العلاقة بين الفرد والجماعة، أو العامّ بالخاص، بين الفقر والتشرّد وبين الثراء والتسلّط، ويفضي هذا الحوار في نهايته إلى أنّ الفرد الفلسطيني كيف أصبح حالة، ومادّة للسياسيين في خطاباتهم وفي تربيتهم شعوبهم، وكيف أصبحت المخيّمات التي تطفح بالألم مادّة للسيّاح يلتقطون لها الصور، ويشجّعون أقرانهم أن يأتوا إليها قبل أن تنقرض، ورغم هذه القيمة المعدومة التي أصبحت للفلسطيني بفضل لجوئه إلا أنّه صار رحمةً للسياسيين؛ إذ باللاجئ الفلسطيني تبرّر فشل برنامجك، وباللاجئ الفلسطيني تهدّد شعبك ليتّخذ الفلسطيني عبرة، ويُعدَم الفلسطيني إذا لزم الأمر حتى تصبح حجّتك أكثر إقناعًا.

وفي فصلها (السلاح المحرّم) يرسمُ صورة فلسطين ذلك السلاح المحرّم ولا إمكانية للاستيلاء عليه إلّا لحظات، تمامًا كأبي علي الذي استولى على سلاح جندي أراد أن يسكن القرية بشجاعة باسلة قد امتنعت عند غيره، لكن هذا السلاح الذي أصبح حلال أبي علي يُستَولَى عليه من قاطعَيْ طريق، وهو السلاح الذي بنى عليه أبو علي آمالًا كبيرة، وفي (أوراق من فلسطين) تتّكثّف صورة فلسطين أكثر، وخصوصًا في فصلها (ورقة من الرملة) التي كان بطلُها أبا عثمان الذي أجبرته ثورة جبل النار أن يلجأ إلى الرملة ويعمل بها حلّاقًا وطبيبًا يحبُّه الجميع، مسرورًا رَغم ما يحمله من حزن على وفاة زوجته أم عثمان وابنته الصغيرة السمراء (فاطمة) التي أُعدمت أمام عينيه من قبل الصهاينة بدم بارد وبضحكات المهزوم، يدفن أبو عثمان حزنه الجديد بيديه ويعود إلى الطابور على قدم واحدة، ثم ما فتئ حتى ذهب إلى الضابط وتفجّر وإيّاه ليتناثر جسده أشلاء قضت على حلمه في أن يُدفَن بالرملة، ولم يكتفِ غسّان في هذه المجموعة بأن يتحدّث عن الهم الفلسطيني وحسب، بل أخذ يتناول الأسباب التي أضاعت فلسطين، وذلك من خلال أسئلة معروفة الأجوبة، منها حال الجيوش التي أخذت على كاهلها تحرير فلسطين، وصورة الجندي المحنّط فيها، الذي ظنّ فيه قادته حشوة فارغة يحشونها بالأوامر، ومنها عدم تبنّي المسؤولين للثوار ولا سيما بعد حادثة مصنع (الريفانيري) ومنها أولئك المثقّفون الذين يجلسون على مقاعدهم المريحة ومكاتبهم الجميلة يتحدّثون عن معارك فلسطين وهم لم يسمعوا طلقة واحدة، أولئك الذين قال فيهم: (ولكن لم يكن الخطأ منّي أنا، كان من فوق، من هؤلاء

الذين يقرؤون ويكتبون ويرسمون خطوطًا ملتويةً ينظرون إليها باهتمام).

تزدحمُ أحداثُ الرواية أكثر في فصلها الذي يتحدّث عن الهجوم الكبير على عكّا، الذي سبّب مأساة اللجوء منها أي عكا/ فلسطين إلى أماكن شتّى في لبنان والأردن، لجوء بدأ من حشو سيارة كبيرة بالناس والأغراض، التي أخذت تشقُّ طريقَها نحو رأس الناقورة جنوب لبنان، كانت السيارة تبتعد وعكّا تحتفي أكثر وكروم البرتقال ما زالت ترافق السيارة حتى نهاية طريقها، وفي أثناء هذه الرحلة التي توّجتها الدموع يحيلنا غسّان إلى مفارقةٍ عجيبة؛ إذ قال إنّ سماعَ طلقاتٍ ناريّةٍ ونحنُ في رحلتنا كانت كأنّها تحية الوداع، ولكن بالحقيقة هي التي سبّبت الوداع، فالتحيّة تكون إذا خرجنا طوع إرادتنا لا طوع اغتصاب للأرض، على أنّهم قد أدركوا طول رحلتهم في المنافي إلّا أنّهم قد تركوا في جعبتهم ما يربطهم بالأرض.. أخذوا معهم البرتقال الذي تشقّقت أيديهم وهم يحاولون تربيته، فصار البرتقال رمزًا للأرض كما المفتاح رمزًا للعودة، وكان أبو هذه الأسرة التي هاجرت مع أسر أخرى في السيارة الكبيرة على رغم تعبه وخيبته ما زال يعيش على خيطٍ من الأمل في تحرير فلسطين والعودة إلى بيّارات البرتقال والليمون، فكان كلّما شاهد مجموعة سيّارات للجيوش العربيّة لهث وراءها يحيّيها والجنود يوحون إليه بشيءٍ مخيفٍ ينبئ به صمتهم.

لم يفتّ غسّان أن يسخر من أولئك الذين يركبون الثورة ويدّعون تقدميّتهم، من خلال الحوار الذي دار بين الرجل المسنّ (التقدّمي) وبين معروفٍ في الحافلة التي كانت تقلّ معروفًا إلى بغداد قبل أن يموت في الموصل، يقول معروف لهذا الرجل الذي حاول أن يساعد سائق الحافلة بإصلاح عجلة الحافلة، وهو يهمُّ برفع المطرفة ولا يستطيع أن يرفعها فوقَ رأسه: (أيّها التقدّمي المسكين إنّ تجربتك العمّالية الصغيرة فشلت وهكذا فلن تستطيع أن تكونَ تقدّميًا كاملًا.. ماذا؟ أنت لا تستطيع أن ترفع المطرقة فكيف لك أن تدرك التناقص إذًا؟).

يختم غسّان هذه المجموعة بـ (لا شيء) فيه يوضّح سياسة الأنظمة بتحويل كل من ينادي بالأراضي المحتلّة إلى مجنونٍ مريضٍ عصبي.

بعد هذه القراءة السريعة لهذه المجموعة يتّضح أنّ شخصيّاتها كانت متعدّدة بحسب الحدث وبحسب السياق، ولم تكن هذه المجموعات فيما بينها يربطها خيطٌ فنّي، ولكن ربطها خيط معنوي أنّها اتّفقت فيما بينها على خصوبة الجرح الفلسطيني، وفيما يخصّ السرد التي سارت عليه، فلم يكن ذا تسلسلٍ زمني منطقي، بل كان سردًا يعتمد على الرجوع إلى الماضي، وإلى ما خزّنته الذاكرة، وهو سرد اعتمد فيه غسّان على خلخلته وإثارة البلبلة فيه؛ وذلك لتنوّعه في رسم الأحداث بين التقديم والتأخير والحذف والذكر، واستخدم لتلك الخلخلة الاستباقات، فجاءت على شكل نبوءاتٍ مستقبليّة، وكذلك التنوّع في استخدامِ الحركات السرديّة لتعطيل السرد وتسريعه من خلاصةٍ وحذفٍ ومشهد، وكان التفاوت والتباين بينَ سيرِ الأحداث مع الإبقاء على منطقيّتها كبيرًا.

وإذا ما نظرنا في لغة هذا السرد فسنجد أنّها لغةٌ بسيطة، غير مقعّرة وفي الوقت ذاته ليست سطحيّةً مبتذلة، بل جاءت أقرب للعامّة أكثر منها للخاصّة، وهذا ينطبق والحياة التي خاضها غسان كنفاني، حياة المخيّمات واللجوء والتشرّد والدراسة والانقطاع عنها، والبحث عن عملٍ وعن رزق، كلُّ هذه التناقضات قد أسهمت في بناء شخصية غسّان الأدبية، فلم يكن أديبَ المكاتب والرومانسية، بل كان أديب الشارع والدم والقضية التي إلى الآن ما وجدت ضالتها.

أما مكان الأحداث فلم يكن مكانًا واحدًا، فتارة كان في يافا ومرة في غزّة ومرة في عكا ومرة في الرملة ومشارف القدس ومرّاتٍ في المنفى (لبنان — بادية الشام — الكويت — بغداد — الأردن). وإذا ما ولجنا أكثر في أماكن السرد، فسنجدها أماكن مفتوحة لا مغلقة، فمعظمها في السهول وفي الساحات والشوارع والبوادي، وقلّما كانت أماكن مغلقة كبيت أو قاعة، وهذا يدلّ على شخصيّة غسّان المنفتحة التوّاقة للحرية والنور.

كانت مجموعةً فوضويّةً فنّيًا؛ لكنّها فوضى تفضي إلى شيءٍ واحد: أنّ الهمّ الفلسطيني كبير!

رسالةٌ مفتوحةٌ إلى
غسّان كنفاني

عبد الرزاق دحنون
كاتبٌ سوريّ/ تركيا

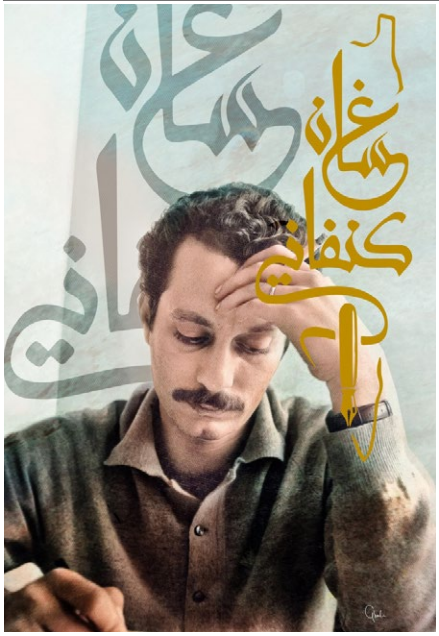

صباح الخير يا غسّان؛ أيّها الغزال الذي كان يُبشّر بزلزال، ويترك في كلّ صباح صحفَ الاحتلال، بين قيلٍ وقال. على كلّ حال، لكلّ مقام مقال. هل تُصدّق أنّني عشتُ معك كلّ حياتي، حيثُ انطبعتْ كلماتك فيّ ذاكرة الطفل الذي كُنته، والعلم في الصغر، كما تعلم، مثل النقش في الحجر. اسمك لم يفارقني من يو م وعيتُ على الدنيا وأهلها. ومن ثَمّ، وبعد حين من الدهر، اكتشفتُ متعةَ القراءة والكتابة، وها قد مرّت على تلك الأيا م أكثرُ من خمسين سنة، وأنا صديقك اليومي ما أزال.

نعم، أقولُ صباح الخير وأنا حزينٌ يا غسّان؛ لأنّني نسيتُ في أيّ مرحلة دراسيّة كنّا نقرأ مجموعةَ قصص من تأليفك اختارتها وزارة التربية والتعليم في سورية مطلع سبعينات القرن العشرين، ليطالعها التلاميذ في حصص القراءة الرافدة في المدارس تحت عنوان «حقٌّ لا يموت» أذكر منها حتّى الساعة قصّة «الصغير يستعير مرتينة خاله ويُشرّق إلى صفد» التي افتتحتَ بها مجموعتك القصصيّة «عن الرجال والبنادق» وكنتَ قد كتبتَ مقدّمتها في كانون الأول/ ديسمبر 1968. كان عنوان

القصّة مألوفًا، حلوًا، فيه تلك اللغة اليوميّة التي يتعامل بها كلّ البشر «يستعيرُ مرتينة خاله ويُشرّق» إلى أين؟ إلى صفد. وما صفد هذه؟

لم ندرك معناها أوّل الأمر، فجاء شرح أستاذنا العزيز جبور عيسى جبور «أبو سليم» سليمًا في المعنى: صفد مدينة فلسطينيّة عريقة، وهي إحدى مدن فلسطين التاريخيّة، تقعُ المدينة في منطقة الجليل الأعلى، كما تُعدُّ واحدةً من أكثر مدن فلسطين ارتفاعًا عن سطح البحر. تقع على بعد 134 كم شمال مدينة القدس، وتُطلّ على بحيرة طبريا ومرج بيسان الواقعين إلى الجنوب الشرقي منها وعلى جبل الجرمق إلى الغرب.

تسأل لماذا أنا حزين؟ أنا حزين يا غسّان وكأنّه الحزن الذي قال فيه صاحبك ورفيق دربك الثائر الأرجنتيني أرنستو شي غيفارا: «كنتُ أتصوّر أنّ الحزن يمكن أن يكون صديقًا، لكنّني لم أكن أتصوّر أن يكون وطنًا نسكنه، ونتكلّم لغته، ونحمل جنسيّته» ثمّ جاء الشاعر الكردستاني شيركو بيكه سه ليكتبَ قصيدةً بديعة يقيس بها حزني وحزنك. يقول فيها: جاء التاريخ وقاس قامته بقامة أحزانك، كانت أحزانك أطول، وعندما أراد البحر أن يقيس عمق جراحاته مع جراحاتك، صرخ؛ لأنّه كاد أن يغرق فيك.

أنا حزينٌ يا غسّان لأنّني فارقتُ مكتبتي في مدينة إدلب في الشمال الغربي من سورية، وفيها أعداد مجلّة «الهدف» التي أسّستها أنت، وصدر العدد الأول منها في صيف عام 1969 وصارت في سنوات قليلة من أفضل المجلّات العربيّة وأوسعها انتشارًا.

أنا حزينٌ يا غسّان لأنّ رحلة الرحيل عن ديارنا كانت شاقة وخطرة، تركنا تلك الديار معلقةً على حبل الغسيل؛ لأنّ حقائبنا الصغيرة المعلّقة على ظهورنا لا تتّسع وطنًا، فالأوطانُ أكبرُ من أن تُحمل في حقائبَ على ظهور البشر.

أنا حزينٌ يا غسّان لأنّني رُميتُ بالغربة عن وطني، كأنني أذنبتُ في حالة القرب فأدّبني بهجره وبُعده. أستغفر الله هو مسقط رأسي، ومجمع أهلي وناسي، وملعب إخواني وخلاني. والشاعر يقول: شكوت وما الشكوى لمثلي عادة/ ولكن تفيض العين عند امتلائها. وعلمي أن محاسن الأوطان كثيرةٌ لا تُستقصى، وأوصاف صفاته تتضاعف أعدادها ولا تُحصى.

وها أنا من بعيد أُطلّ عليك يا وطني. وأحنُّ إليك. أي والله. وكيف أُخفي ذلك، وقد سبقنا الأوائل في القول: حبُّ الأوطان من الإيمان. وأقول مع الشاعر: وما عن رضى كانت سُليمى بديلةً/ربليلى، ولكن

للضرورات أحكام. وأبو الطيب يُنشد: لا خَيْلَ عندكَ تُهديها ولا مالُ/ فليُسْعِد النطقُ إن لم بُسعِدِ الحالُ. وكُلنا يعلم بأنَ آراء الناس تختلفَ من زمن لآخر، وهذا من حقهم، ولكنهم يحتاجون إلى التعاون من أجل نهضة الأوطان، وأساس التعاون والعيش المشترك هو التفاهم الذي يزيل الخلاف بين الأطراف ذات العلاقة في عالم متنوع. وأنت علّمتنا يا غسّان بأنّ الوطنيّةً هي هذا الشعور العميق الذي يحدو صاحبه إلى مؤاخاة جميع الناس؛ لأنّهم يشاركونه في مُثُلٍ عليا يُقدّسها وهي تستلزمُ حقوقًا وواجبات.

في رحلة الرحيل كانت الدروب تضيق بين صفوف عسكر الحدود المتنكب بنادق رشاشة ومن يغلط في المسير يُرديه رصاص القناص قتيلًا بين أشجار غابات الصنوبر. كلا يا غسّان لا تحتمل تلك الحقائب الخفيفة وطنًا وديارًا ومجلّدات الكتب الثقيلة، والذكريات الحزينة، لذلك من يستطع حمل ما يرغب من كتب ومجلات من مكتبته، هذا الترف لا تحتمله ساحات الحروب ودروبها الضيقة.

كم كنتُ حزينًا يا غسّان؛ لأنّني لم أستطع حمل «ملف» عن مسيرتك في الصحافة، جمعه صديقي الباحث والمؤرخ الأستاذ «فايز قوصرة» الذي تعرّف إليكَ شخصيًا في بيروت، وتعلّم منكَ الكثير، وعمل معكَ في مجلّة «الحريّة» وفي جريدة «المحرّر» في ستينات القرن العشرين. في «الملف» الذي لم أستطع حمله وتركته في مدينة إدلب قصاصة من جريدة «المحرر» أظنّها عام 1963 وفيها مادّةٌ لك مع صورتك بالأسود والأبيض تتضح شبابًا ونضارة. وقد كنت تكتب مقالًا أسبوعيًا في جريدة «المحرّر» التي كانت ما تزال تصدرُ أسبوعيّةً صباح كل إثنين في بيروت.

كم كنتُ أرغبُ في حمل المجلّد الثاني من مجلّدات أعمالك الكاملة وفيه «مجموعات» قصصك، ولهذا المجلد قصةٌ شائقة وطريفة حدثت معي، ولكن لا يتسع المقال لذكرها الآن، سأكتب عنها فيما بعد. وبعد، كم كنتُ أرغب في حمل أعداد مجلة «الهدف» الخاصة التي كانت تصدر في الثامن من تموز يوم استشهادك من كل عام، وكنتُ أجمعها وأحرص أن تبقى كما اشتريها وقت صدورها، كنتُ أُبقيها نظيفة، مرتبة، طازجة، تفوح رائحة الحبر من أوراقها، وأخجل حين تنثي صفحة بالغلط من صفحاتها التي يُطل اسمك ورسمك في كل زاوية من زوايا العدد السنوي التي كان رفاقك في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يعتنون بإخراجه فنيًا وفكريًا في ذكرى رحيلك مع لميس ابنة أختك فائزة في تفجير سيارتك المفجع في صباح يوم السبت الثامن من تموز عام 1972 في حي الحازميّة في العاصمة اللبنانيّة بيروت.

أنا حزينٌ يا غسّان؛ لأنّ رفيق دربك بسّام أبو شريف (الذي كان يومها عضوًا في المكتب السياسي في الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، ورئيس تحرير مجلة الهدف) ها هو يلملم أغراضه يوم الرحيل في صيف عام 1982، ماذا يأخذ وماذا يترك في رحلة الرحيل عن بيروت؟ يستعجله الرفاق: يا رفيق بسّام علينا أن نُغادر. يحزم أمره أخيرًا فيحمل المجلّد الأوّل من أعداد مجلّة «الهدف» أغلى ما يملك، يضعه في كيس البحار العسكري وينطلق مع الرفاق إلى السفينة المغادرة.

كانت مجلّةُ الهدف في حصار بيروت قد تحوّلت إلى جريدةٍ يوميّةٍ باسم الهدف أيضًا، وراحت تُوزّع على الفدائيين في الخنادق ومتاريس أكياس الرمل. كانت تسهم إلى حدٍّ ما في صمود الفدائي، فهو إنسانٌ في النهاية له ما لنا وعليه أكثر مما علينا. له عواطف جياشة، ومشاعر فيها الفرح والحزن، يُحب كما نحب، ويعشق كما نعشق، ويحلم كما نحلم. يستمتع بالشاي والسجائر وقهوة الصباح المفقودة... صباح الخير يا غسّان.

غسّان كنفاني
ومأزق المقاومة الثقافيّة في القرن الـ 21

د. حاتم الجوهري
أستاذُ الدراساتِ الثقافيّة المنتدب بالجامعات المصريّة/ مصر

إذا كانت تمرُ هذه الأيام ذكري اغتيال غسان كنفاني في شهر يوليو عام 1972م، فإنّ السؤال الملحّ الذي يجب أن تنظر فيه المخيّلة العربيّة، هو مأزق المقاومة الثقافيّة في القرن الواحد والعشرين، وسبل الدفاع عن «مستودع الهُويّة» العربي ومكوّناته، وفي القلب منها مدينة القدس وقضيّة فلسطين عمومًا في القرن الواحد والعشرين؛ فالأمرُ أنّ العقدين الثاني والثالث من القرن الجديد شهدا ظهور «الاتفاقيّات الإبراهيميّة» التي تمثّل الجانب الثقافي والقوّة الناعمة، لمشروع «صفقة القرن» التي طرحها دونالد ترامب الرئيس الأمريكي السابق، وإذا كان البعضُ يرى أنّ صفقة القرن بالشكل الذي طرحه ترامب قد فشلت، فإنّ «الاتفاقيّات الإبراهيميّة» لا يزال مشروعها قائمًا وتبنّت تصوّراته الثقافيّة بوضوح إدارة جو بايدن الرئيس الأمريكي الحالي، وهو ما يطرحُ السؤال على الحاضنة الثقافيّة العربيّة والمنتمين لها، بحثًا عن الخطاب الثقافي والاستراتيجيّة الثقافيّة الممكنة لمواجهة «الاتفاقيّات الإبراهيميّة» في المحافل الدوليّة، حيث يرى البعض أنّ واحدًا من أبرز عيوب الثقافة العربيّة يكمن في محليّة خطابها الثقافي، واعتماده على العاطفة والحماسة والصوت العالي، وكذلك افتقاده للثبات الانفعالي والهدوء الحجاجي والمنطق الناجع، بما يجعله خطابًا غير قادر على الصمود في المحكات الدولية وبروتوكولاتها المعتمدة.

بالعودة للوراء قليلًا، في القرن العشرين، وفي تجربة جيل غسان كنفاني والمقاومة الثقافيّة التي طرحوها، سنجد أنّهم كانوا يتحرّكون من قلب الحدث، وفي ردّ فعل دائمًا لخطوات الاحتلال الصهيوني، وكانتْ الصحافة والإعلام والأدب ما زال بريقهم حاضرًا في مجتمعات تستقبل أدوارهم بتقدير البدايات وزهوتها وتفاعلها، لكن في القرن الواحد والعشرين أنت أمام مجتمعات مفتوحة على آفاق المعلومات والاتّصالِ والحضورِ الشخصي ومنصّات التواصل الاجتماعي، وكذلك تراجع الهمّ الجماعي لحدّ بعيد.. لذا تبدو الحاجة ملّحةً لاستحداثِ آليّاتٍ عربيّةٍ جديدةٍ للعمل على المستوى النخبويّ والسرديات الكبرى في المحافل الدولية، وعلى مستوى المجال العام التقليدي واختبار آليات جديدة لبناء الجسور مع جيلٍ عربيّ جديد، شهد — وما زال يشهدُ - العديد من الصدمات والطموحات والانكسارات في آنٍ واحد.

جوهر «الاتفاقيات الإبراهيميّة» يكمنُ في أنّها تسعى لتفجير التناقضات داخل مستودع «الهُويّة العربي» والانتصار للرواية الصهيونيّة في السيادة على مدينة القدس وعلى العرب أجمعين، باسم صلات القربى التاريخية والدينية! وهي آخر ما وصلت له القريحة الغربية في محاولة تمرير المشروع الصهيوني! قبلها فشلت مشاريع «الصهيونيّة الماركسيّة» التي حملها بيير دوف بيرخوف والتنظيمات التي تفرّعت عن حزب «عمال صهيون» حتى الآن في فلسطين المحتلّة، وفشلت تصوّرات «الصهيونيّة الليبراليّة» باعتبار دولة الاحتلال واحة الديمقراطية والحرية في محيطٍ عربيّ من الاستبداد والرجعيّة والتشدّد كما يدّعون، وكذلك فشلت تصوّرات «الصهيونيّة الدينيّة» بخطابها المباشر العدواني، لذا كان على الغرب أن يخرج لنا باستراتيجيّة ثقافيّة جديدة تخاطب العاطفة العربية وحسها الديني تعتمد على الصلات الدينية والتاريخية بين العرب وبين اليهود وما يسمى بـ»المشترك الإبراهيمي»!

والحقيقة أنّنا في حاجة إلى خطاب واستراتيجيّة ثقافيّة عربيّة بديلة، من أهمّ سماتها: تجاوز الاستقطابات السياسيّة والأيديولوجيّة، التأكيد على مساحة المشترك الثقافي العربي، والتأكيد على غياب الشريك الصهيوني الذي يقدّم السلام العادل وفق قرارات الأمم المتحدة، والترويج لصورة غير نمطيّة للعربي تقوم على تقديم «مستودع الهُويّة» العربي في شكلٍ جديدٍ يفكّكُ مزاعم الصورة النمطية الصهيونيّة والغربيّة والتشويه الذي قامت به، فنحن في حاجة لاستراتيجيّة تقوم على خطاب هادئ ورصين ومتزن يملك حجته ومنطقه الخاص أمام العالم.

لقد نشأت قضيّة فلسطين، وبرزت الصهيونيّة ومشروعها في قلب «المسألة الأوربيّة»، بدايةً مع ظهور العداء للجاليات اليهوديّة وما عُرف بـ «معاداة الساميّة» في أوروبا، ثم تطوّر الوعي القومي للجاليات اليهودية في أوروبا مع صعود النظريّات القوميّة الأوروبيّة، ولقد دعمت أوروبا الصهيونيّة بتمثّلاتها الأيديولوجيّة المتعددة لسبب تاريخي يرجع للشعور بالذنب؛ بسبب أحداث «معاداة الساميّة»، وكذلك دعمتها لسبب فكريّ أنّ الصهيونيّة تبنّت الخطابات الأوروبيّة في أشكالها الليبراليّة أو الاشتراكيّة أو حتّى الدينيّة (بدعوى التفوّق العرقي والتطوّر في سلّم الوعي الديني في علاقته بالعقل البشريّ التي تستندُ إليها مسيحيّة ما بعد العصور الوسطى، خاصّةً في التأويلات الجرمانيّة تحديدًا)، وكان السبب الأبرز أنّ الصهيونية

عملت بالفعل باعتبارها أحد تمثّلات المسألة الأوربيّة ومتلازماتها الثقافيّة، أو بالأصح البعد التوظيفي للصهيونيّة وتوظيف يهود أوروبا في الصراع بين الشرق والغرب، واعتبار الصهيونيّة ودولتها كابحًا وجوديًا معطّلًا للذات العربيّة/ الشرق المسلم عن النهوض وتجاوز مرحلة ما بعد الاستقلال عن الاحتلال الأوروبي، التي تجمّدت عندها الذاتُ العربيّةُ منذ القرن الماضي.

لذا، فإنّه على المستوى السياقي العام ستبقى الصهيونيّة حاضرةً بشكلٍ ما، قويت أو ضعفت، تطرّفت أو اعتدلت، طالما بقيت المسألةُ الأوروبية ومتلازماتها الثقافيّة معتليةً عرش الظاهرة الحضاريّة، وترفض التنحي عنه معتقدةً أنّها ذروة التطور البشري وثمرته المقدّسة ولا تطوّر بعدها! من ثمّ سيكونُ على الخطاب الثقافي العربي واستراتيجيّته المطلوبة أن يقدّم روايةً حجاجيّةً راسخةً عن الحق العربي والفلسطيني تقلق الدعم الغربي للصهيونية وتعاليه وتؤرق يقينه المطلق، وتمهد الطريق في اتجاهين؛ الاتجاه الأول: في المدى القريب، للتأكيد على الحق العربي والفلسطيني، وغياب العدل عن التصور الصهيوني والدعم الغربي الحاضن له، والاتجاه الثاني: على المدى البعيد، يجب على الاستراتيجية الثقافية العربية أن تطرح البدائل لاحتواء الوجود الصهيوني عندما تتفكك المسألة الأوروبية، التي قد تتفكّكُ سريعًا وفي ظرفيات غير متوقّعة بالمرة، أي على الاستراتيجيّة الثقافيّة العربيّة في المدى البعيد أن تستعدّ بخطابها لاحتواءِ من سيبقى من يهود الصهيونيّة في فلسطينَ العربيّة المحرّرة، وفتح الطريق لمن يريد الخروج منها من الصهاينة والعودة لأوروبا وبلدان العالم.

وفي هذا السياق لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الحرب الثقافيّة الخشنة التي تجري الآن في أوروبا على أرض أوكرانيا، بين رواية «الأوراسيّة الجديدة» والصعود الروسي الجديد التي قدّمها ألكسندر دوجين (الفيلسوف الذي يطلقون عليه عقل بوتين)، وبين رواية «التمدّد الأطلسي» التي تستقي روافدها من رواية فوكوياما عن «نهاية التاريخ» الأيديولوجي، ورواية هينتجتون عن «صدام الحضارات»، لا تقف بعيدا عنها رواية «الصهيونيّة الإبراهيميّة» التي تطرحها أمريكا في عهد بايدن الآن، فما كان يجري في «قمة جدة» بالمملكة السعودية العام الماضي من جانب الإدارة الأمريكية، كان محاولة لتفجير التناقضات بالمنطقة العربية بين الرواية السنية والرواية الشيعية لصالح «إسرائيل»، من خلال تأسيس حلف ناتو عربي سني تقوده دولة الاحتلال، ويكون موجّهًا ضد إيران الشيعيّة، ذلك في إشارة واضحة إلى أنّ أزمة العالم الآن هي فكرةً المسألةً الأوروبيّة ومحاولة فرض هيمنتها على العالم، من خلال تفجير التناقضات في مستودعات الهُويّة كافةً (كما يحدث بين الصين وتايوان، وبين كوريا الشمالية والجنوبية، وبين المركزية السوداء الأفريقانية وعرب شمال أفريقيا... ألخ) لتدير هذه التناقضات لصالح أوهام النظرية الشمولية، سواء عند ورثة هيجل في دولة الديمقراطية الليبرالية التي تمثلها أمريكا، أو عند ورثة ماركس الذين يطرحون تصورات «ما بعد ماركسية» مع ألكسندر دوجين في روسيا، أو يطرحون «ماركسية رمزية» أو شرفية مع الصعود الصيني. وهنا سيكون أيضًا على الاستراتيجية الثقافية العربية الجديدة أن تستشرف شكل العالم فيما بعد «المسألة الأوروبية»، وتبحث لنفسها عن موطأ قدم فيه، وتنظر في إمكانية أن تقدم مفصليةً ثقافيةً ممكنة للعالم، تعتمد على تجاوز التناقضات والمتلازمات الثقافية إرث القرن العشرين، رغم ما قد يمثله ذلك من صعوبات بالنسبة للبعض لتعلقه بالأشكال التاريخية القديمة، وربما يرتبط ذلك بالمشروع الثقافي المسكوت عنه، الذي خرجت به الثورات العربية في العقد الثاني من القرن العشرين، متجاوزةً شعارات اليمن واليسار العربيين، وهو مشروعٌ ثقافيٌ مسكوتٌ عنه؛ لأنه لم يخرج من يعبر عنه بشكلٍ ثقافيّ مؤسّس بعد، رغم دوران الكثيرين حولَه ومحاولتهم تلمس حدوده، ولكن دون يقينٍ ثقافيٍّ أو معرفيّ في التأكيد عليه بوصفه مفصليّةً ثقافيّةً ممكنةً وكامنة، تستطيع أن ترفد الوجود البشري في وقتٍ شاخت فيه المفصلية الثقافية الأوروبية، وعدّها بعضهم نهاية الفكر البشري والتابو المقدس الجديد له.

قدم غسان كنفاني وجيله إرثًا عريضًا من المقاومة الثقافية العربية.. إرثًا يتسق مع ظرفيته التاريخية ويتوجهان بجهده المشهود، وبين هذا الجيل والأجيال التي خلفته تفجرت تناقضات عديدة عند الذات العربية، واختلطت العديد من الأوراق، وصعد على السطح الكثير من أنصار الانكفاء على الذات والكتابة الشخصية والتصورات الأسلوبية والشكلانيّة، ونادى البعض بالانسلاخ كليّةً عن الذات العربية باعتبارها ذاتًا عاجزةً قاصرةً عن القيام بعملية التحديث وبناء تراكم حضاري جديد، ونادى هؤلاء بالاستلاب للآخر الغربي عمومًا، وكشفوا عن وجههم القبيح مع صفقة القرن والاتفاقيات الإبراهيمية معتبرين الصهيونية ودولتها تمثّلًا قريبًا للحضارة الغربية، ومروّجين لها ولمشروع الاتفاقيات الإبراهيمية وسيطرة الصهيونيّة على مدينة القدس والمقدّسات العربيّة الإسلاميّة والمسيحيّة.

إنّ الثقافة العربيّة الآن وفي ذكرى رحيل غسان كنفاني واستشهاده، الرمز والتجربة معًا، تحتاجُ إلى جيل مؤسّس جديد يقدّمُ خطابًا حجاجيًا يستطيع أن يقف ثابتًا هادئًا راسخًا أمام العالم أجمع، ويعيد إنتاج الذات العربية في مقولات جديدة وتصوّرات نظريّة وفلسفيّة مواكبة للحدث، وخطابات رافعةً تجاه المستقبل تعي التدافعات الإقليمية والعالمية والتناقضات التي تفجرت داخل حواضن الذات العربية، وبالأخص يضع نصب عينيه أولوية تجاوز التناقضات والاستقطابات التي ضربت عواصفها العالم العربي حتى كادت أن تفكك أوصاله، جيل يكون على اطلاع وإلمام بتجربة القرن العشرين بحلوها ومرها والبنية الثقافية لدولة ما بعد الاستقلال والجذور الثقافية لكتلتي اليسار واليمين التي نشأت في خضم تلك الدولة، ويكون على اطلاع بكليات الفكر الغربي -يساره ويمينه- وجذورها القديمة وتمثلاتها الجديدة في القرن الواحد والعشرين، ويكون لديه القدرة على العمل بهدوء وثبات وصمود وتقديم بدائل ثقافية رافعة ومرنة في مواجهة التحديات كافةً، التي تحيط بالذات العربية داخليًا وإقليميًا ودوليًا.

في الهدف

محاولةٌ فاشلةٌ قبل أن تبدأ

طلال عوكل
كاتبٌ ومحلّلٌ سياسيّ/ فلسطين

موعدٌ جديد، مع خيبة أملٍ جديدة متوقّعة، مع نهاية هذا الشهر في القاهرة، ليس لمن يتابعُ من كثب التطوّراتِ الداخليّةَ الفلسطينيّة وسياق الصراع الفلسطينيّ الإسرائيليّ أن يبدأ مقالته، بهذه النتيجة الواضحة، قبل أن يقع الاجتماع، لولا أنّ المعطيات الأوليّة التي تسبقُ الاجتماع تُقرّر ذلك.

واقعيًا يمكنُ الافتراض، أنّ تغيّراتٍ خطيرةً وقعتْ بين الاجتماع القادم للأمناء العامين، باجتماعهم السابق عام 2022، رغمَ أنّ المشترك الوحيد بينهما أنّهما ينعقدان بدعوةٍ من الرئيس محمود عباس.

تواصلاً مع الفرضية ذاتها، فإنّ ظروف الدعوة الحالية، تشهد تطوّرًا خطيرًا، حيث تتولى السياسةَ في إسرائيل حكومةٌ عنصريّةٌ إرهابيّةٌ فاشية، تعمل بشكلٍ حثيث على حسم الصراع، ولا تتورع عن استباحة الدم والأرض وكرامة المواطن الفلسطيني. إن كان الاجتماع السابق، قد جرى في ظروفٍ تجعلُ من مخرجات ذلك الاجتماع، عنوانًا للاستثمار الخاص بصاحب الدعوة، فإنّ ظروف الاجتماع المقبل، موضوعيًّا لا تتيح مجالًا لذلك، ما يجعلُ اللعب على حبل الاستثمار الشخصي مكشوفًا وفاشلاً مسبقًا.

هذا لا يعني أنّ الاجتماع المقبل، سيكون جديًّا ومثمرًا، ونحو رسم خارطة طريق بين قوى متصارعة، مختلفة سياسيًّا، تخشى بعضها البعض، بل تناصب، بعضها البعض العداء، ولم يصدر عنها لتحسين أجواء الحوار، أية بوادر حسن نيّة، أو أيّة خطواتٍ إيجابيّة. ليس لنا أن نستعرض العقبات والمطبات الكثيرة، والأسباب التي تدعو للتشاؤم، ولكن يكفي أن حركتي الجهاد الإسلامي وحماس تتهمان السلطة، باعتقال نشطائهما وملاحقة عدد من المقاومين التابعين لهما. السلطة من جهتها، تنفي وتتهم المعتقلين بملفاتٍ جنائيّة؛ الأمرُ الذي في أحسن الأحوال، سيحوّل الاجتماع إلى ساحة مناكفة وتبادل الاتهامات، هذا إذا تمّ فعلاً حضور الجميع... ربّما يغيب عن أذهان هؤلاء جميعًا أن المواطن على دراية، ولذلك فإنّه يفضّلُ التجاهل، ولكنْ إلى حين.

الشّاعر المصري الراحل

محمود قرني

1961 - 2023

AL-HADAF
الهدف

غسّان كنفاني الذي وجدتُهُ ولم ألتقِ به

مروان عبد العال
روائيٌّ وكاتبٌ وعضو المكتب السياسيّ للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين / لبنان

قبلَ وفاةِ الكاتب الجميل الرفيق أبو أحمد الزعتر عام ٢٠٠٥، القيادي في الجبهة الشعبيّة، وأحد أبطال الصمود في مخيّم تل الزعتر، كان قد اصطحبني في سيّارته، دون سابق إنذار، إلى منطقة الحازميّة ناحية "مارتقلا"، لا أعرفُ لماذا فعلها، وأنا لم يسبق لي أن طلبتُ منه ذلك؛ ليشيرَ إلى الطابق الأرضي من مبنى متواضع الحجم والطبقات، أوقف السيارة في أرض بور، وسط منطقةٍ جرى عليها تغييراتٌ كثيرة، مبنى قديم متهالك، مهشّم، ومثقل بسنوات الرصاص، وحديقة كئيبة لا لون لها، وقبل السؤال البديهي قال: هنا قال غسان كنفاني لزوجته آني كنفاني جملته الأخيرة: "اعمليلنا أكل طيب.. بعد شوي بنرجع"، ولم يرجع..

استغرقتُ التأمّل في المكان، وبعد صمتٍ رهيب، دقّت الساعة، تشير إلى الحادية عشرة والدقيقة الـ ٤٥ من ظهر يوم السبت الثامن من تموز عام ١٩٧٢ وحسب عقارب الوقت المتوقّفة فيما تبقّى من يد صبيّةٍ اسمها لميس نجم على سطح مبنى في الحازميّة. أمّا الساعةُ المعلّقةُ على الحائط، فكانت كأنّها ما زالت تخفقُ بذاك الزمن، قرّر أن يكون الوقتُ هو البطل الذي جسّده يومًا في رواية «ما تبقى لكم»، ورقاص الساعة الذي يسير مع النعش في جنازة، ليظل رمز الساعة تعبيرًا عن عداوة الزمن ومراوغة الأحلام.

صرنا نستنطقُ أبطاله كما نستنطق دمه، عن العبوة التي تزن ٥ كيلوات من مادة "تي أن تي" وجسده المتناثر على مساحة خمسين مترًا والساعة المعلّقة على الشجرة، نحيب قلب آني كنفاني ودموع أم سعد تحتضن فايز وليلى، استعدنا صوت الانفجار والحريق الذي التهم سيارته «أوستن -١١٠٠» كل شيء يتردد صداه وجعًا ومرارة، مثل سماعنا لكل حادثة إطفاء شمعةٍ على يد القوى المعادية والظلاميّة، أو استباحة لقامةٍ ثقافيّةٍ بمخزونها الجمعي والوطني.

ولعلّ هذا ما كان يغبط المرحوم الدكتور أنيس صايغ: إنّ غسان كنفاني أكثر سعادة منّا؛ لأنّه رحل من دون أن يرى الواقع المهزوم، حيث قال له فيها: «إنّ انفجار سيارة الأوستين حرك من هذا العالم وأبعدك عن المأساة التي نعيش وأخفى عن عينيك عيوب الحاضر وجرائمه وانهزاماته. فأغمضت عينيك على صورةٍ جميلةٍ من صور النضال والإيمان والثورة والقيم». لذا، لن تتوقف الساعة؛ لأنّ زمن المقاومة يتواصل مع أطفال غزة يلعبون أمام عيون بحرهم المحاصر لعبة «فدائي ومحتل» وفي حارات نابلس «عسكر وحرامية» وفي أزقة مخيّم جنين «مقاوم ومعتدي» وقد مضى زمنٌ طويلٌ لأكتشف أن المستهدف في صيف تموز، ليس غسان الذي كان، بل غسان الذي سوف يكون، الذي سيتوالد في أجيالٍ جديدة.

ومذّاك، ونحن نرسم مثله، نتبع أثره نقلّده ونسرد قصّته ونكتب عنه وفيه وله، وهو ينمو ويكبر ويتبرعم ويثمر.. ونحن معه. ففي عام ١٩٨٥ منظمة الشبيبة الفلسطينية - التي كنت مسؤولها - أقامت أول ندوةٍ أدبيّةٍ نوعيّةٍ عن غسّان كنفاني في المخيّم، والمصادفة في المكان ذاته قرب الخزان على الشاطئ يوم جاء خبر استشهاده، وتحدث فيها عمداء من الجامعة اللبنانية وأسماء ثقافية لامعة، وسط اندهاشٍ على وجوه الحضور الكثيف، يومها لا أنسى عندما علّق أحد الحضور: "شكرًا للشبيبة، اليوم جعلتنا نتعرّف على غسان كنفاني".. هكذا وجدته ولم ألتقِ به، ولكن لم نفترق أبدًا، ومنذ ذلك التاريخ لم يمرَّ عامٌ دون أن أكتب أو أتحدّث عن غسان، ولسببٍ وجيهٍ أنّه جعلنا حبًّا وطواعية، ننتسبُ لدمه وفكره وحلمه وحزبه، والأجمل من ذلك، أنّه أدخلنا إلى قلب فلسطين، نحن الذين ولدنا خارجها وننتظر على بابها، وجعلنا نحبها دون أن نراها.

AL-HADAF الهدف